عبير حامد
رواية
ختامٌ برائحة المسكْ
الدار المصرية اللبنانية

ختام برائحة المسك

ختام برائحة المسك: رواية /عبير حامد. - ط1.-

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2023.

تدمك: 9789777954082

1- القصص العربية.

أ - العنوان. 813

رقم الإيداع: 2023/ 5177

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.

تليفون: 23910250 202 +

فاكس: 23909618 202 + ص.ب 2022

E-mail:info@almasriah.com

www.almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: 2023م.

تصميم الغلاف الفنان: أحمد الصباغ

الدار المصرية اللبنانية

تعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف

وليس بالضرورة أن تعبّر عن آراء الدار

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،

بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًّا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

عبير حامد

ختام برائحة المسك

رواية

الدار المصرية اللبنانية

إهداء

أهدي هذا الكتاب:

إلى روح أمي..

التي حال بيني وبينها القدر

رحمكِ الله يا جنَّتي.

إلى أبي..

ذاك الرجل، الوسيم، المثقف، المستقيم.

الفرح والسعادة والقدوة الحسنة، أطال الله عمره وألبسه ثوب الصحة والعافية.

إلى الإنسانية..

إلى كل أمٍّ أعطت وضحَّت دون مقابل.

إلى كل مَن آلمتهم الغربة وأوجعتهم الحياة، فلم يتمكنوا من البوح بمشاعرهم.

أُمِّي يا ملاكي يا حبي الباقي إلى الأبد

ولا تزال يداكِ أرجوحتي ولا أزال أنا ولد

يرنو إليَّ شهرٌ وينطوي ربيع

أُمِّي وأنتِ زهرٌ في عطره أضيع

شعر: سعيد عقل

غناء: فيروز

ختام

هي مَدرسة متخصصة في تعليم الصبر والحكمة والعطاء، ابنة بارة بوالديها، وزوجة مخلصة لزوجها وبيتها، وأم حاضنة لأبنائها، وصديقة وفية وحكيمة.

نذرت عمرها لأداء رسالة حاكتها بخيوط الصبر وزينتها بالحب والعطاء.

قضت رحلتها في هذه الدنيا بسعادة، وملأتها حبًّا وعطاءً، وبعطائها تخطَّت الكثير من المكائد.

لوَّعتها الدنيا بأوجاع الغربة والفقد والمرض، إلا أنها ظلت متماسكة فأسست عائلة متينة لملمت بها جراحها.

استمرت حتى آخر لحظة من حياتها توزع ابتسامتها الأجمل وتنشر الحب من حولها، رحلت في الختام دون وداع، تاركة بصمتها التي يتغنى بها الجميع، حتى غدت رمزًا ونجمة للأمل في سماء اللاجئين والمحرومين، وأثرًا جميلًا في قلب كل مَن عرفها، لتصعد روحها إلى السماء عروسًا تبدأ حياة جديدة في دار الخلود، مسك ختام. ليخلد التاريخ صراع امرأة بسيطة في هذه الحياة كانت رمز التضحية والتواضع والتفاؤل والأمل، بروح هينة لينة عذبة المبسم نقية القلب جميلة الأوصاف.

أؤمن أن الإنسان لا يموت دفعة واحدة

وإنما يموت بطريقة الأجزاء

كلما رحل صديق مات جزء

وكلما غادر حبيب مات جزء

وكلما قُتل حلم من أحلامنا مات جزء

ليأتي الموت الأكبر ليجد كل الأجزاء ميتة فيحملها ويرحل.

جبران خليل جبران

(1)

الساعة السادسة مساءً، الشمس تأخذ مسارها نحو الغروب، فتحت عينيها لتجد نفسها مستلقية على الأريكة في غرفة الضيوف، غرفة واسعة، كنبها أنيق ذو نقشٍ كلاسيكي باللونين البُني والبيج، نسقتها هي والملاك بأسلوبٍ عصري، الجدار زُيِّن بلوحاتٍ تحمل آياتٍ قرآنية، وعباراتٍ دينية، بها طاولة طعام خشبية كبيرة، بتسعة مقاعد، لها ذات نقش الكنب، وفي الغرفة شرفة شرقية؛ تطل على سهلٍ فسيحٍ أخضر مليءٍ بأشجار الزيتون، ظلت واعية لدقائق، وعادت وأغمضت عينيها لوهلة، تذكرت حلمها أمس «حيث زارتها في المنام جدتها التي توفيت منذ زمن، كانت تبتسم لها، اقتربت منها كثيرًا دون أن تحادثها، وأمسكت بعقدها الذهبي الذي كان يُزين جِيدها منذ أن أهداها إياه شقيقها فريد، وانتزعته منها ورحلت».

فتحت عينيها من جديد، أخذت تفكر بهذه الرؤيا وتتذكر تفاصيل ما رأت، نهضت من سريرها، وهنا بدأت تسمع صوت فحيح ثعبانٍ كأنه يزحف بالقرب منها، ذات الصوت الذي رافقها لسنوات، إلا أنها لم تعُد تكترث له على الإطلاق، توجهت نحو غرفتها التي لم يمضِ وقت طويل على تجهيزها، كان يتوسطها سرير فخم من الخشب الفاخر المحفور بنقوش متقنة، مغطى بلحاف قطني جميل، يتميز بتفاصيل أنيقة أحضرته معها من غربتها، أمام السرير دولاب خشبي، حُفرت به ذات النقوش، وعلى اليمين منه تسريحة بمرآة غطت واجهة كبيرة من الجدار، وقفت أمامها تتأمل وجهها للحظات، والفحيح يرتفع أكثر فأكثر وتزداد حدته، أخذت تتلمس وجهها بيديها، فلم تعُد تعرف نفسها، بحثت عن جهاز التحكم بمكيف الهواء المعلق بجانب سريرها، فقد شعرت بحرارة شديدة تخرج من جسدها، أدارت المكيف ليبعث هواءً باردًا يخفف عنها ما تشعر به من اختناق، وضعت يدها على عقدها لتتأكد أنه لا يزال يزين جيدها، كان جسدها متعبًا جدًّا، وكأنها انتهت للتو من رحلة ركض طويلة، فلا تستطيع التقاط أنفاسها براحة، رأسها ثقيل جدًّا فلم تحتسِ قهوتها هذا الصباح، تتحامل على قدميها الثقيلتين وتنهي التفاصيل الأخيرة لزفافها، دقات قلبها تزداد سرعة، والأفكار والمشاعر تختلط بداخلها، فتحت الدولاب، وأخذت تبحث عمًّا ترتديه، اختارت ثوبًا أبيض واسعًا جدًّا، يتدلى باتساعٍ إلى قدميها، لفَّت رأسها بشالٍ أبيض طويل، منسدلٍ على ظهرها بالكامل، بدت في غاية الجمال كالأميرات، وكأن الزمن عاد بها فاختفت ثلاثون عامًا من عمرها، فغدت بالعقد الثالث من العمر، لم تضع مساحيق تجميل، فقد اعتادت أن تُزين وجهها بابتسامةٍ هي الأجمل على الإطلاق، خرجت من غرفتها، نظرت حولها فوجدت أمها وخالتها وشقيقتها نجوى يقفن في

صالة المنزل، ينظرن إليها، وأخذن يتبعنها طوال الوقت، أما هو فقد كان يرتدي بيجامة نومه، يجلس على الأريكة في غرفة المعيشة ينتظرها، ويترقب المجهول، فقد مرَّت من أمامه دون أن تلتفت إليه، ما أثار الخوف بداخله، كانت غرفة المعيشة حيث يجلس تأخذ شكلًا دائريًّا، بأثاثٍ يحمل اللون الوردي الداكن ونقشًا لزهور التوليب باللونين الأبيض والأرجواني، عُلِّقت على أحد جدران الغرفة ساعة فضية دائرية، توقفت عقاربها عن الحركة عند الساعة العاشرة والنصف، وعلى الجدار الآخر تلفزيون كان مغلقًا حينها، السكون عمَّ المكان، وغدت زهور التوليب بلا لون، وما زال ينتظرها.

مشت من أمامه، ودَّعت بنظرةٍ حزينةٍ كل ركن من أركان منزلها، وكل تفصيلةٍ من تفصيلاته، ودَّعت غرفتها وسريرها، ودَّعت مطبخها وصالتها، وودَّعت حياتها معه التي أفنتها إلى آخر العمر ولم تودعه.

تقدَّم نحوها حزينًا، وهو يرى نورًا مدهشًا يسطع منها في كل خطوة تخطوها إلى الأمام، ينطفئ فيها النور من الخلف، فيتبعها ظلام دامس، في تلك اللحظة غابت ابتسامته وخيَّم الحزن على قلبه، واختفت من عينيه كل معالم المكان، إلا وجهها ظل مشرقًا في قلبه.

كان السكون يعم المكان، فلا يكاد يسمع سوى دقات قلبها وخطواتها المتثاقلة، متجهة نحو الباب للخروج من المنزل، سيطر الفحيح على مسمعها، فغيرت مسارها متجهة نحوه، وقفت أمامه ونظرت إليه، واستمرت بالتحديق فيه، وكأنها تقول له: عاد الصوت يسيطر على سمعي من جديد، لم يزحزح نظره عنها، ابتسمت له والدموع تُغرق وجنتيها، اقتربت منه أكثر وأمسكت يديه، وحين نظر في وجهها المرتعب، مسح فوقه بأنامله الحانية، وأطال النظر في عينيها إلا أن بريقهما أخبره بأنها مجبرة على الرحيل من دونه.

لم يتعلق بذراعها، بل تعلق بذراعيها وصيفتان عن يمينها وشمالها، وتعلق هو بروحها، تقدمت نحو باب المنزل للخروج منه بلا زفَّةٍ كأميرةٍ أسطوريةٍ في صفحات القصص الخيالية يحيطها نور أبيض كثيف، من شدته لم يستطع هو أن يفتح عينيه، فتحت بابَ المنزل وصيفتُها التي تقدمتها لتساعدها على الخروج، إلا أن ذيل فستانها تعلق بالباب، ممسكًا به بقوة، كأنما يتوسل إليها ألا تذهب، أطرقت برأسها بهدوءٍ وخجلٍ وتوقفت عند الباب، لتسحب وصيفتها ذيل فستانها وتسير بها للخارج إلى ساحة المنزل، حيث وقف على يمينها والدتها وشقيقتها نجوى وشقيقها حسين، وعن يسارها والدها وجدتها وجدها وخالاتها، وها هي خالتها أم الملاك أيضًا وابنتها سهى، كلهم حضروا مرتدين الأبيضَ ملتفين حولها، بلا زغاريد، ولا هتافات، ظلت تسير نحو الطريق الطويل

المحاط بأشجار التين والمشمش والعنب والورد الجوري، لتهب نسمة ريح خفيفة، رغم حرارة شهر يوليو تحمل في ثناياها حُبًّا وسكينة، تسري في قلبها وقلبه، تبعتها نسمة أخرى هزَّت شجرة الخرُّوب التي تسير من جانبها، وأسقطت منها ورقة التصقت بذيل فستانها ورافقتها.

كان يقف في الخارج أمام الباب في حيرةٍ من أمره، أخذ يتبعها، ابتلع ريقه، وجثم عليه سكون رهيب، ينظر إليها وهي تخرج من منزله دونه، كان يترقب كمَن يقف على قمة جبلٍ متهالكٍ آيلٍ للانهيار، باحثًا عن منجى له، لتقطع ترقبه سيارة بيضاء مزينة بمصابيح زرقاء وحمراء تنتظرها في آخر الطريق، ظل يترقب ويترقب، وقد سيطر عليه الخوف من أن يرى أميرًا غيره يمسك بأميرته، ويأخذها منه، إلى أن فُتح باب السيارة الخلفي، وصعدت هي ووصيفتاها دون أن يلحظ وجود أحد.

لم تلتفت إليه لتودعه ما زاد حزنه، فوقف متسمرًا في مكانه يحملق بالسيارة، حتى اختفت عن ناظريه، تاركة وراءها ظلامًا دامسًا، وبقايا إنسان لا حول له ولا قوة، التفت إلى الخلف حزينًا منكسرًا ليعود باتجاه المنزل، سواد رهيب يحيط بالمكان من حوله، فلا يكاد يرى سوى إضاءة منزله في آخر الطريق، وكأن الأشجار والزهور قد راحت معها، شعر باختناقٍ شديدٍ هيمن على صدره، إنه لا يقف وحده، ومع هذا فهو وحده جدًّا، يقف من حوله والداه وإخوته وخالاته وعمَّاته وجده وجدته يستعدون للحاق بها ليأخذوها معهم، ولكنه لا يراهم، سرح في خياله ربما تعود إليه وتكون عروسه من جديد لتطمئن نفسه المتعبة، لقد زُفَّت من أمامه وتركته وحيدًا، فلن يراها مجددًا في هذه الدنيا، وهي التي لم تكن ترضى أن يظل وحيدًا دونها، خوفًا عليه، منحته الحب والاهتمام، وقدمت الكثير من التضحيات له، حتى حان يوم الوداع، وقد كان هذا اليوم هو آخر يوم لها في منزله.

بدا الطريق إلى المنزل طويلًا جدًّا، ليكسر سكونه ويقطع خياله غراب ظهر في السماء أمامه لم يرَ منه سوى لمعة عينيه، تحرك باتجاهه مسرعًا وأصدر نعيقًا بطيئًا وثقيلًا، فشعر بالخوف ما دفعه ليسرع نحو باب المنزل ويغلقه بإحكام، وما إن أغلق الباب حتى عادت دقات قلبه للتسارع من جديد، تذكر وجهها، وأخذ يتأمل كل زاوية من زوايا المنزل ويشم رائحة المسك التي كانت تفوح من جسدها، والتي ظلت عالقة في وجدانه، ارتسمت أمامه صورة وجهها الأبيض، الذي تلون بحمرة خجلها، وتذكر ورقة الخروب التي تمسكت بثوبها، ورحلت معها، كل شيءٍ من حوله يذكره بها، رائحة المكان وزهر التوليب والساعة الفضية التي تزين الحائط، هذه تفاصيل ارتبطت بها وحرصت على اقتنائها ورحلت روحها برحيلها، فلا التوليب مزهرة ولا الساعة تدور عقاربها،

وغدت الحياة في منزله بلا حياة.

قضى تسعة أيام دونها، حاول جاهدًا مرافقتها والبقاء معها طوال الوقت إلا أن الأقدار كانت تقف له بالمرصاد، تُقيد خطواته، تمنعه بقوة، ظل متمسكًا بالأمل غير آبهٍ لكل ما سمعه عن سوء حالتها، لا يملك سوى الدعاء لها والبحث عنها في تفاصيل المكان، في منزلهما، يشم عبيرها في زوايا المنزل فيتيه في عينيها، ويشعر بروحها من حوله فتهدأ روحه.

كان ينتظر قدومها، ينتظر عودتها، ينتظر شيئًا ما يحدث، اشتد الظلام بداخله وتراكمت السحب السوداء، وأضاء البرق ودوَّى الرعد وهطلت أمطار من الدماء، وعادت إليه من جديد؛ عادت إليه جثة هامدة، بلا حراك ليودعها الوداع الأخير، كانت آخر لحظات لها في هذه الدنيا في ساحة بيت أبي الملاك، ذات الساحة التي شهدت تتويجًا لسنوات حبهما، ذات الساحة التي شهدت ضحكاتهما وحديثهما، ذات الساحة التي كتبت قصة حياتها ومرضها بمكيدةٍ مدبرة؛ وقد مضت عليها السنون، الساحة فارغة، مهجورة، بدت أرضيتها مهترئة وفي كل زاوية من زواياها ذكرى أليمة ومجرد خيالات لفرح وترح، رحل مع مَن رحلوا.

في ذات المكان قبل خمسة وأربعين عامًا كانت ترتدي فستان زفافها الأبيض، وتقف في هذه الساحة حيث زُفت إلى الملاك، لم تكن تعلم ما يخفيه لها البشر ولا القدر، فها هي الآن ترتدي الأبيض، وتتوسط نعشها، وقد أخفى الكفن ما فعلوه بها، وما زال يرافقها والدها ووالدتها ونجوى وحسين ملتفين حول النعش ليأخذوها إلى حيث رحلوا، أما الملاك فقد تسمَّر في مكانه أمام نعشها، لا يقوى على تحريك قدميه، ينظر إلى وجه أميرته النائمة إلى الأبد، نزل على ركبتيه أمامها، مسح بيده على وجهها وأجهش في البكاء، وظل هكذا قرابة عشر دقائق، اختلطت بداخله المشاعر والذكريات، فهذا البيت الذي ولد فيه وعاش به طفولته وشبابه وشهد بداية حياته الزوجية معها، اليوم يشهد انكسار قلبه ووحدته وفراقها.

لقد قتلوها وأوجدوا مبررات غير حقيقية لجريمتهم، نعم قتلوها وبرَّأوا أنفسهم من دمائها الطاهرة، قتلوها غدرًا وقهرًا بلا رحمة، تلك العبارة رددها مرارًا وتكرارًا والدموع تملأ وجهه، فمَن هو المسؤول عن موتها؟ «وداعًا يا حبيبة قلبي ورفيقة دربي، لقد استجاب الله دعاءكِ ورحلتِ قبلي، إلى لقاءٍ يجمعنا من جديد في جنة الخلد إن شاء الله»، قال هذا بصوتٍ ضعيفٍ وقلبٍ منكسر، وحمل نعشها وتوجَّه به نحو المقبرة في ذات الأرض التي تسببت بإيذاء مَن آذوها.

فهل يلوم السحر والشعوذة والعالم الآخر على أذيتها؟ أم يلوم مَن عهد لهم بجسدها من مجرمي

الإنس لتحريره من الألم فآذوها حد الموت؟ أم يلوم مَن أحبتها وكانت النجوى لروحها فأصرت على أن ترافقها إلى العالم الآخر؟

***

لم تكن ختام سوى إحدى بنات فلسطين، عاشت على أرضها، وارتوت من ينابيعها، وتذوقت تينها وزيتونها، شهدت النكسة والتهجير وهجمات المحتل، ولدت في قرية صور التي تقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة طولكرم، ولدت في أجمل فصول السنة، في شهر الأكاذيب والخداع، لتكون هي الحقيقة الأجمل، لم تكن ولادتها على أيدي فريق طبي مختص، ولم تولد في جناح خاص في أرقى المستشفيات، بل كانت ولادتها بطريقة بدائية جدًّا على يد إحدى سيدات العائلة ممَّن لديهن القليل من الخبرة، فلم تكن ولادتها خالية من الخوف والرعب، لاسيما وأنها ولدت في أرض محتلة، فقد كانت فلسطين وقت ولادتها تحت سيطرة عصابات صهيونية ارتكبت المجازر في العديد من المدن الفلسطينية، محاولة إكراه الشعب على النزوح من القرى والمدن، والداها فلاحان تميزا بالطيبة والحنو واختارا تسميتها ختام رغبة في أن تكون هي خاتمة ذريتهما، حيث كان لهما ثلاث بنات وولد يكبرهن، إلا أنها لم تكن الخاتمة كما ظنًّا، بل هي قدم خير وفاتحة لأربع شقيقات جئن بعدها واثنين من الصبية، فكبرت وترعرعت في كنف أسرة كبيرة.

كانت حياتهم في ذلك الوقت بسيطة جدًّا، كانت البئر مصدر الماء بالنسبة لهم والشموع تنير عتمة ليلهم، ومع هذا لم يكن للملل أو عدم الرضا وجود في حياتها، تستيقظ فجرًا على رائحة خبز الطابون وقد أعدته والدتها، تجتمع على المصطبة مع شقيقاتها وأشقائها لتناول الطعام، كان صباحها لا يحلو دون الاستماع إلى المذياع، كانت تفرح بالقليل ولو كان بسيطًا، وبرضاها وقناعتها منحها الله الكثير، اعتادت منذ نعومة أظافرها على صوت القنابل والصواريخ التي طالما استمرت لساعات طويلة متواصلة يومًا كاملًا.

كانت تبلغ من العمر أربع سنوات حين استيقظت من النوم فجرًا، فتحت عينيها لتجد والدتها تجمع ما استطاعت جمعه من ملابس وحاجيات، ثم أيقظت شقيقاتها الثلاث الكبريات، وطلبت منهن جميعًا أن يتبعنها ويحملن ما استطعن حمله، اقتربت من شقيقتها الكبرى فريدة وهي تمسك بدُميتها التي صنعتها لها شقيقتها خولة من بقايا ملابس قديمة، خرجن من باب الغرفة إلى ساحة المنزل، مشهد لم تنسَه أبدًا، حشودٌ من النساء والأطفال متوجهون خارج القرية، يتقدمهم والدها مرتديًا اللباس العربي (الحطة والعقال) سمعته يقول لوالدتها: «لا تقلقي على فريد سيكون معي بأمان»،

سألته أم فريد: «هل سنعود إلى بيتنا وأرضنا؟» فأجابها: «قولي إن شاء الله».

كانت تستمع لحديث والديها وهي تحتضن دُميتها معلنة حاجتها للأمان، كان الطقس باردًا جدًّا، فلم تكن الشمس قد أشرقت لتمنحها الدفء والأمان، انضمت والدتها وهُن معها إلى النساء والأطفال وكان من بينهم خالاتها وأبناء خالاتها وبناتهم وجدتها وجدها، لكن لا أحد يلتفت لأحد، الكل يسير بسرعة متوجهين خارج القرية، يحملون ما استطاعوا حمله، كانت ختام طوال الطريق ممسكة دُميتها بيدها اليمنى وفي يدها الأخرى تمسك بيد شقيقتها الكبرى فريدة، كانت تسمع والدتها تردد: «يا رب يا رب»، ولكنها لا تعي ما يجري من حولها. أشرقت شمس ذلك اليوم مع وصولهم إلى أرض شاسعة مزروعة بشجر الزيتون يُقال لها: «البيدر» وهي أرض تقع إلى الجنوب من قريتهم على مقربةٍ من قرية سفارين.

انتشر الجميع هنا وهناك تحت الشجر، أما هي فقد بقيت ملتصقة بشقيقتها فريدة، وقفت والدتهن عند إحدى شجرات الزيتون في البيدر، ووضعت ما تحمله على الأرض، وأشارت لهن بالجلوس، كُن أربع فتيات جلسن يترقبن ماذا يحدث، أما أم فريد، وبعد أن اطمأنت عليهن، أخذت تسير هنا وهناك بين الأشجار تبحث عن والدتها، وختام تراقبها حتى اختفت من أمامها للحظات شعرت خلالها ختام لأول مرة في حياتها بانعدام الأمان. شعور لم تستطع وصفه، إنه ألم الخروج، هذا الألم الذي شكل في ذهنها معاني واضحة للخروج والتضحية والكرامة، ومعنى الوطن، ما دفعها للالتصاق بشقيقاتها أكثر، حتى عادت ورأتها من جديد تقترب منهن ومعها جدتها واثنتان من خالاتها وأبنائهن.

أصوات أحاديثهم هنا وهناك، التفتت ختام من حولها لتجد تلك المرأة غريبة الأطوار التي تعرفها ولا تعرفها، إنها نفيسة، التي ما إن أرادت شقيقتها إخافتها حتى قالت لها ممازحة: «سأنادي نفيسة»، وكأن نفيسة تنتمي إلى مملكة الشياطين، شبح قريتهم المخيف، كان وجهها يخيف ختام كثيرًا، ظلت تحملق فيها وهي تجول أمامها هنا وهناك، تحدث نفسها تارة، مصدرة قهقهة مرعبة، وتارة شاردة لا شيء يثير انتباهها، إلا أنها أثارت انتباه تلك الطفلة الصغيرة فظلت تراقبها وهي ترتجف رعبًا، حتى مضت في طريقها مبتعدة بين أشجار الزيتون، أمسكت حينها ختام بقشة صغيرة وجدتها أسفل الشجرة ولا شعوريًّا أخذت تحفر بها الأرض وتنثر التراب من حولها، فلم تكن تعرف أن لعنة تلك المرأة ستلاحقها طوال حياتها، و لم تكن تعلم ما يدور من حولها.

لقد كانت القرية مُعرَّضة لخطرٍ شديدٍ من عصابات تخطط لتهاجمها وتسيطر عليها، ما دفع والدها ورجال القرية إلى إخلائها من النساء والأطفال للدفاع عن أرضهم رغم إدراكهم بانعدام

التكافؤ بينهم وبين تلك العصابات التي جاءت من كل حدب وصوب تحمل أسوأ الصفات البشرية، لتصب جام غضبها ورغبتها المريضة في الانتقام من لحظات الازدراء والكراهية التي تملأ عيون كل مَن يلتقيها، منذ زمن لا يعرف عن بدايته شيء، إلا أن أهل القرية لم يترددوا في الدفاع والمقاومة والثبات، وكان لهم ذلك، فلم تستطع تلك العصابات طردهم أو التمكن منهم وفروا هاربين، لتعود ختام من جديد مع والدتها وشقيقاتها إلى بيتهم وأرضهم، والهتافات والزغاريد تملأ المكان فرحًا بالنصر، إلا أن ما حُفر في ذاكرتها من ذلك الموقف هو ما رأته وسمعته حين عودتهم إلى القرية، فقد استُشهد أسعد، لقد استُشهد أسعد، الكل من حولها يردد هذه العبارة، لقد كان أسعد شابًّا في مقتبل العمر، قدم من القرى المجاورة لمواجهة العصابات والوقوف مع أهل صور، إلا أنه استُشهد برصاصة في رأسه. لقد أدركت ختام حينها أن الموت في سبيل الوطن ما هو إلا فرحة ونصر، فقد التفَّ الجميع حول جثمان أسعد الذي لُفَّ بالعلم الفلسطيني، وحملوه على أكتافهم وهم يُكبِّرون، والنساء من خلفهم يُطلقن الزغاريد.

كان ذلك في عام 1956 حين مارست العصابات أسلوب التهجير القاسي على القرى والمدن؛ لتضمها وتُحكم سيطرتها وهيمنتها عليها، وقد جمعهم والدهم في اليوم التالي وحدثهم عمَّا حصل بالتفصيل، لقد جعلت منها هذه التجربة طفلة واعية تدرك معنى الحرب والصمود، ومعنى الوطن.

(2)

كانت حياة ختام مليئة بالحيوية منذ صغرها، رائحة احتراق الحطب، وخبز الطابون، ونسمات الصباح، وصوت فيروز، أمور ارتبطت بها وفتحت في أعماقها آفاقًا نحو الحلم.

كان منزل عائلتها ريفيًّا بسيطًا جدًّا، تحيطه أشجار التين والخروب واللوز، ما يميزه هو انخفاض علوه عن الشارع الرئيسي للقرية فتسير بطريق طويل منحدر لتصل إليه، منزل بسيط من الحجر، وعلى اليسار منه مصطبة حجرية تتوسطها بئر قديمة، وخلف المنزل وادٍ مليء بالصخور التي صقلتها المياهُ الجارية على مدار آلاف السنين، وجعلت منها صخورًا مليئة بالترسبات الزيتية والأحافير الجزيئية، وحين تكون تلك الصخور رطبة تعطي لونًا بنيًّا، لطالما نقشت منه حروفًا على كفيها، وأرض ترقص تحت أشعة الشمس تشتمُّ منها في كل زاوية رائحة الزعتر البلدي بأنواعه، تتوسطها شجرة خروب عملاقة ضخمة عمرها أكثر من ألف عام مليئة بالحكايات، شهدت الكثير من الأحداث وتعاقبت عليها الأجيال، تلك الشجرة تحديدًا تمتلك قوة جذب روحية، ارتبطت بها وكبرت معها وأصبحت جزءًا من تفاصيل ولحظات حياتها، وإنذارًا بمماتها.

كان البيت مكونًا من غرفتين ضيقتين ومطبخ صغير وحمَّام يفصل بينهما ساحة حجرية بلا سقف، بها غرفة حجرية صغيرة يتوسطها موقد، سقفها منخفض ومدخلها ضيق تُسمى الطابون، لقد نشأت ختام في أسرة تُنتج خبزها وتحرث أرضها وتربي الماشية لتحصل على قوت يومها.

كانت طفلة جميلة وذكية مختلفة عن شقيقاتها ما أهَّلها لتسبقهن وتلتحق بالمدرسة، وقد أظهرت منذ سنوات عمرها الأولى تميزًا دفع بشقيقها فريد لتشجيع والده على تسجيل شقيقتها خولة التي تكبرها بعامين، لتذهب معها إلى المدرسة، واستمرت بتفوق ملحوظ حتى الثاني عشر، مرحلة الثانوية العامة، لتنتقل من المدرسة إلى الكلية وتتخرج فيها بدبلوم تربية رياضية.

لطالما كانت مميزة بين شقيقاتها، فهي سند الطمأنينة لوالدتها في بيتهم، هادئة وسط العواصف، سريعة التصرف بصمت وسكون، فالهلع والفزع والتسرع صفات لم تكن بطباعها وأسلوب حياتها، كانت شقيقتها الأكبر سنًّا تغار منها كثيرًا، فقد كانت أجمل منها وأوفر حظًّا، إلا أن ختام لم تسمح للكراهية يومًا أن تتسلل إليها، أو تتمكن منها، فأحسنت إليها وتقربت منها، ومنحتها الكثير من الثقة، فكانت الأقرب لها.

كان جمالها هادئًا، ملامح وجهها متناسقة ناعمة كتمثال نُحتت تفاصيله بدقة متناهية، عيناها

عسليتان تقرأ فيهما معاني كثيرة، بيضاء الوجه بشعر خروبي ناعم كثيف منسدل على كتفيها، قامتها أنثوية قصيرة بعض الشيء، أكثر ما يميزها هي ابتسامتها الناعمة التي تخطف القلوب وتبعث البهجة والسرور في النفوس، تمتلك حسًّا جماليًّا عاليًا، يظهر ذلك جليًّا في مظهرها وهندامها، عاشت طفولة بسيطة بريئة في زمن لا تكثر فيه الخيارات والمقارنات، بل زمن له رائحته ومذاقه وأصواته، كانت خالتها تقطن بالقرب منهم في القرية، وكان زوج خالتها ميسور الحال لديه أراضٍ شاسعة وأنعام، ومنزل كبير جدًّا، فاعتادت وشقيقاتها اللعب مع أبناء خالتها بشكلٍ يومي، وخاصة في مرحلة الطفولة، فكان اللقاء دائمًا تحت ظلال تلك الشجرة، شجرة الخروب الضخمة، هذه الشجرة شاهدة على لحظات الشقاوة والبراءة والمرح والكثير من الذكريات والأسرار التي ظلت عالقة في وجدانهم حتى مرت سنوات طفولتهم، أما ما تبعها من سنوات فكانت ذكرياتها مع شقيقاتها وأشقائها، حيث إن غيرة والدها الشديدة عليهن، دفعت به لاحقًا لمنع أبناء خالتها من الاقتراب من هذه الشجرة للعب مع بناته، وخاصة عندما نضجن وأصبحن في مرحلة المراهقة، فكان لقاؤهم بهن في الأعياد والمناسبات وفي اجتماع العائلات والأقارب.

(3)

الملاك هو ابن خالتها الأقرب لها منذ نعومة أظفارها، كان جميل الوجه، ذا عينين خضراوين مشربتين باللون العسلي، بهما لمعة ذكاء، تبدو جلية حين تنظر إليه، طويل القامة، هادئ الطبع، رزينًا، قليل الكلام، يحبه الجميع ودائمًا ما ينال سيلًا من المديح، كانت في صغرها تجد المتعة في اللعب معه وتتبعه أينما ذهب بفطرة وعفوية، كأنها طفلة صغيرة تتبع والدها، وحين يجتمع أشقاؤه وشقيقاته وبقية أطفال العائلة للعب كانت دائمًا ما تختار أن تكون زوجة له، وكثيرًا ما يقومون بتمثيل دور العروسين في اللعبة، فتقوم هي بجمع ما استطاعت جمعه من بقايا أسلاك رفيعة منثورة هنا وهناك لتصنع منها خاتمًا تقدمه له ليُلبسها إياه، كان عمرها ثماني سنوات حين اجتمع أطفال العائلة ذات مساءٍ في أحد الأعياد في بيت جدهم في صور، حينها قررت فريدة شقيقة ختام، وكانت أكبرهم سنًّا، أن يلعبوا لعبة «ناس وناس» وتوجهت نحو ختام وأمسكت بيدها ونادت الملاك قائلة له: «تعالَ خُذ عروسك، سنزفكما الآن». وببراءة الأطفال زينوا شعر ختام بزهور الجوري الحمراء ووضعوا على رأسها مفرشًا أبيض يُستعمل لتغطية خبز الطابون حتى لا ييبس، فبدا كأنه طرحة، فهي عروس للملاك، وأحضروا سلكًا صنعوا منه خاتمًا ليلبسه الملاك لها، والكل ملتف حولهما بعفوية، يطلقون الزغاريد ويباركون لهما زواجهما، كل ذلك ترك أثرًا بداخلها جعلها يومًا بعد يوم تتقرب منه وتهتم بسماع أخباره، والسؤال عنه دائمًا، وكانت تنسج في أحلامها من خيوط روايات الأميرات قصص عشق تجمعهما أميرًا وأميرة.

ذات يوم من أيام الشتاء البارد، وكما اعتادوا، اجتمعت عائلتهما في بيت جدهما، كانت هي واثنتان من شقيقاتها يجلسن بالقرب من المدفأة حين دخل هو وأمه وشقيقه الأصغر عامر وشقيقته ميس، كان عمر ختام حينها خمسة عشر عامًا، نظرت إليه نظرة إعجاب، فقد مر وقت طويل على آخر لقاء جمعهما منذ خمسة أعوام تقريبًا، كان خلالها منهمكًا في دراسته أغلب الوقت وهي كذلك، بالإضافة إلى مسؤوليته في الإشراف على إخوته حين غياب والدته عن البيت.

كان هذا اليوم فارقًا بالنسبة لهما، فقد التفت إليها أيضًا وشعر بنظراتها نحوه، أو كأن طاقة الجذب لديها كانت عالية جدًّا فجذبته نحوها، وأخذا يتبادلان أطراف الحديث، سألته بخجل واضح: «كيف كانت زيارتك إلى الكويت؟»

أجابها: «لقد كانت رحلة جميلة مليئة بالأحداث»، قطع حديثه لبرهة ثم أكمل: «لقد شاهدت

البحر وجلست على شاطئه»، واسترسل في حديثه حول رحلته تلك التي كانت بإجازته الصيفية، حيث رافق والده مدة شهر من الزمن، لقد سحرها جماله وحديثه، وولدت في تلك اللحظة أول شرارة حب حقيقية له في قلبها، كان هذا اليوم مميزًا جدًّا، فالكل مجتمع في غرفة واحدة بها بساط أرضي وأغطية متناثرة هنا وهناك وتدفئة مشتعلة بـ«الكاز»، التفَّ حولها الجميع وقد أخذوا يتبادلون بعض الأحاديث والأخبار العامة عن القرية، ورائحة شواء الكستناء على التدفئة تملأ المكان دفئًا وحبًّا، إلى أن حلَّ الظلام واستعد الجميع لمغادرة المكان سويًّا مشيًا على الأقدام إلى منزلهم، ولعل ما فجَّر الحب بداخلها هو ما يملكه من الحكمة والرجولة الحقة والانضباط الواعي والاتزان، فهو شاب ذكي ومسؤول بشهادة كل مَن عرفه، ولطالما ترددت هذه الصفات كثيرًا على مسمعها ممَّن حولها، وها هو يصر على السير معهن؛ ليوصلهن إلى بيتهن خوفًا عليهن من السير ليلًا دون رجل.

أدركت ختام بعد هذا اللقاء أنها وقعت في حبه، وظلت طوال تلك الليلة تفكر به، أما هو فعاد إلى بيته ولم يسترجع أي أحداث حصلت معه، بل نام على الفور.

كانت تطلعاته ناضجة، وآماله وأحلامه كبيرة، كان يكبرها بعامين وكان والده يعمل في الكويت ممَّا يضطره للغياب شهورًا عنهم، وكونه أكبر أبنائه جعله يتحمل أعباء المنزل، ويقوم بدور الأب في غيابه، فتحمل المسؤولية منذ صغره ما منحه وقارًا وهيبة في كبره، كان والده ووالدته يتصفان بالقسوة والشدة على عكس والديها، رغم صلة القرابة التي تربط والدتها بوالدته، إلا أن طبيعة حياة والدته وغياب زوجها عن البيت جعلت منها امرأة عصامية تدبر أمورها وأمور أولادها في غياب زوجها عدة أشهر عن المنزل بصبر وجلد، فربتهم وتحملت مسؤوليتهم وكانوا ثلاثة من الذكور وثلاثًا من الإناث، إلا أن ما يربط والدته بوالدتها كأختين هو أنهما كانتا لا تقرآن ولا تكتبان، تزوجتا في سن صغيرة جدًّا طبقًا للتقاليد، وقد كانتا على قدر كبير من الوعي والنضج بسبب طبيعة الحياة وظروفها القاسية في ذلك الوقت.

بعد ذلك اليوم حرصت ختام على التواجد في أي تجمع للعائلة في منزل جدها، فازدادت نار الحب تأججًا في قلبها، كانت تشعر بإحباط شديد حين غيابه، تبحث عنه وتسأل عن سبب عدم حضوره، تحرص على سماع أخباره والسؤال عنه، بل راحت لأكثر من هذا، فقد كان قلبها معمورًا بالحب له، فلم تتردد لحظة بالإفصاح عن مشاعرها تجاهه لشقيقاتها، كانت تحلم بأن تعيش معه قصة حب حقيقية وتشاركه أحلامه، أما هو فقد لفتت انتباهه بجمالها وعفويتها، وعلى الرغم من اهتمامها الواضح به إلا أن ذلك لم يكن كافيًا بالنسبة له للمُضيِّ قدمًا نحو مصارحتها بإعجابه

الشديد بها، وقد ظل فترة من الوقت ما بين الإقدام والإحجام حتى أقرَّ واعترف بحبه لها.

ذات يوم من أيام الربيع في القرية كانت الأرض قد اكتست باللون الأخضر والألوان الزاهية، الفلاحون والطلاب متوجهون نحو أعمالهم اليومية ومدارسهم منذ الصباح الباكر، كانت ختام في المرحلة الإعدادية ومدرستها تقع في إحدى القرى المجاورة التي تبعد عن قريتهم ربع ساعة تقريبًا، ذهبت كعادتها بصحبة شقيقتها خولة صباحًا إلى محطة حافلات القرية لتركبا الحافلة إلى المدرسة، أما الملاك فقد كان في المرحلة الثانوية، وكانت مدرسة البنين في مدينة طولكرم التي تبعد نصف ساعة عن القرية، إلا أنه أوفر حظًّا منها، فقد كان والده قد خصص له سيارة أجرة تأتيه عند باب بيتهم كل صباح تأخذه وشقيقه إلى المدرسة، وتعيدهما عند انتهاء اليوم الدراسي، في هذا اليوم وبعد انتهاء الحصص الدراسية نزلت ختام وشقيقتها خولة من الحافلة في محطة حافلات القرية، وأثناء سيرهما في الطريق إلى البيت، أخبرت ختام شقيقتها برغبتها في السلام على خالتها أم الملاك، فرافقتها إلى هناك، وحينما اقتربت من البيت وجدت خالتها تجلس أمام فرن الطابون المطل على الشارع من الجهة الشرقية، تعد الخبز، كان غداؤهم هو «المسخن» وهي أكلة من التراث الفلسطيني معدة من خبز الطابون والبصل وزيت الزيتون والسماق إلى جانب الدجاج المشوي، وكان هذا الطبق المفضل لدى ختام، وإن لم يكن فرغبتها برؤية الملاك والجلوس معه دفعتها إلى أن تطلب من خالتها مستأذنة:

- هل أستطيع أنا وخولة تناول الغداء معكم اليوم؟

ردَّت عليها بالإيجاب مبتسمة وعلامات الإرهاق بدت واضحة على وجهها وجبينها يتصبب عرقًا من حرارة فرن الطابون.

لم تكن ختام تفكر حينها سوى برؤية الملاك، الذي لم يعُد من المدرسة بعد، فجلست في ساحة البيت تنظر إلى كل زاوية من زواياه ورغبة جارفة تمتلكها في الدخول إلى غرفته وتفحص حاجياته، وإذا بميس ذات الخمسة أعوام شقيقة الملاك تقترب منها، سلمت عليها وسألتها ببراءة الأطفال:

- ماذا تفعلان هنا في بيتنا؟

ضحكت ختام واقتربت هي وخولة منها تداعبانها، وصوت ضحكاتهما يملأ المكان، كانت ساحة المنزل فارغة، فهي كممر واسع من الحجارة يؤدي إلى غرف متعددة جميعها مغلق الأبواب، وعلى اليمين من الساحة يوجد مطبخ كبير وحديقة صغيرة بها باب يؤدي إلى فرن الطابون، في

تلك اللحظة فتح هذا الباب، وإذا بالملاك مقبل منه بكل اتزان ورصانة وقد اندفعت ميس بسرعة نحوه واحتضنته قائلة:

- أمي في فرن الطابون تُعد لنا الخبز.

أجابها:

- نعم رأيتها وجلست معها.

ثم نظر إلى ختام وابتسم، كانت ترتدي الزي المدرسي وتقف مبتسمة له وهي تحتضن حقيبتها، فقال لها:

- أهلًا وسهلًا بكما، لقد أخبرتني أمي بأنكما ستتناولان الغداء معنا اليوم، سعيد بذلك.

ابتسمت له ختام ودقات قلبها يكاد يسمعها كل مَن حولها، وقالت دون أن تعي ما قالت:

- حقًّا يسعدك ذلك؟

أومأ لها برأسه بالقبول وهو مبتسم، وتوجَّه نحو أحد الأبواب حيث سيتناولون الغداء، وطلب منهما الجلوس فيها إلى أن تنتهي والدته من إعداد المسخن، هنا لم تتردد ختام لحظة في سؤاله عن أي شيءٍ لتتحدث معه، وقد شعر هو باهتمامها المبالغ به ما أشعل شرارة حب في قلبه تجاهها، فقد بدت له في غاية الجمال والبراءة والعفوية، وهي ترتدي الزي المدرسي أخضر اللون الذي عكس جمالًا ربيعيًّا بهيًّا على وجهها. وها هما بعد هذا اليوم يلتقيان عند أحد الأودية القريبة من شجرة الخروب الضخمة القابعة في الساحة خلف منزلها، أو في بيت جدهما، حيث كان بيتًا فسيحًا أمامه ساحة تتوسطها شجرة ليمون، كانا يلتقيان خفية يتحدثان عن كل شيءٍ وأي شيء، فهو يريد أن يسمعها وهي تتكلم، وهي تريد أن تراه وهو منصت لها باهتمام.

(4)

كان للملاك عمَّة اسمها نفيسة، تحبه كثيرًا ولطالما رغبت به زوجًا لابنتها الكبرى، فهو ابن شقيقها الوحيد، الذي يُشبه والده كثيرًا، ويصل رحمه باستمرار، وفي كل زيارة له لعمته تحرص كل الحرص على تواجد ابنتها، بل تحثها على الجلوس معه والتحدث إليه، والتقرب منه وكانت دائمًا تتباهى ببناتها، ولا تتوانى في الحديث عن محاسنهن أمامه وأمام والده تحديدًا، فقد حاكت قصصًا في خيالها ورغبت في تحقيقها واقعًا ملموسًا مهما كلفها ذلك من ثمن.

لقد كانت نفيسة شديدة الطباع، قاسية لدرجة أن قسوتها هذه تظهر في ملامح وجهها والحقد ظاهر في تقاسيمه، ولعل الملاك يعي ذلك منذ طفولته، فقد حدث وهو في سن الرابعة من عمره أن ذهب بصحبة أبناء عمته إلى سوق قريب من منزلهم في القرية، وكانت بحوزتهم بعض الدنانير، فاشترى جميعهم مزامير صغيرة بلاستيكية تصدر صوتًا عاليًا عند نفخ الهواء بها، أما هو فقد كان منذ طفولته مختلفًا عمَّن حوله من الأطفال، واعيًا هادئ الطباع، لم تلفت انتباهه مزامير، بل راح يبحث هنا وهناك، حتى وقع نظره على نظارة بلاستيكية فاشتراها، وساروا جميعًا باتجاه بيت عمتهم وصوت المزامير يعم المكان، حين دخلوا إلى بيتها كانت تجلس في الصالة، وكان في زيارتها عدد من الجارات، جلس الملاك في إحدى زوايا ساحة البيت وأبناء عمته من حوله يطلقون أصواتًا بمزاميرهم، أما هو فجلس يتفحص نظارته، تارة يضعها على عينيه، وتارة أخرى ينظر إليها، إلى أن قطع هذا صراخ عمته على ابنتها: «ما هذا الصوت؟ أعطني ما تمسكين به هيًّا». وأخذت تجري باتجاهها وهي تهرب منها هنا وهناك، ولسوء الحظ، كانت قد قدمت لضيفاتها الفاكهة، فأخذت تجري نحو ابنتها وهي تمسك سكينًا، وما هي إلا لحظات حتى وقفت ابنتها أمام الملاك الذي كان يجلس ببراءته ممسكًا نظارته، وما إن ألقت نفيسة السكين على ابنتها حتى ابتعدت ابنتها بلمح البصر عن المكان، ما جعل السكين تأخذ مكانها في شفتي الملاك الذي كان يرتدي حينها قميصًا أبيض قبل أن يصبح أحمر اللون من الدماء التي لطخته.

لقد حماه رب الكون من ضربة قاضية حقًّا، فقد جاءت السكين على فمه وسببت جرحًا في شفتيه، امتلأت الساحة بالدماء، وصرخات الأطفال في كل مكان، وقد التفَّت من حوله الجارات، وأخذن يحاولن إسعافه، أما عمته فاتجهت مسرعة نحو المطبخ، وأحضرت قطعة من الثلج وضعتها على فمه، وأخذت تحاول إيقاف النزيف، وهو متسمِّر في مكانه لا يستطيع أحد قراءة تعابير وجهه، فهو منذ طفولته يخفي وجهًا آخر لا يعلمه إلا خالقه، وحين حلَّ المساء اصطحبت نفيسة الملاك إلى

بيته، دخلت على والدته التي ما إن شاهدت منظر الدماء حتى وضعت يدها على قلبها وصرخت بها: «أجُننتِ؟ ماذا فعلتِ به؟» ثم نظرت إلى وجهه وهي تمسك بيده وسألته بفزع: «ماذا فعلت بك يا ملاك؟ إنها امرأة مجرمة»، في تلك اللحظة بالذات التزمت نفيسة الصمت ولم تنبس ببنت شفة، أما الملاك فقد ظلت كلمات أمه عالقة في ذهنه فترة من الزمن: «إنها امرأة مجرمة»، فأي إجرام هذا؟

لم يمر هذا الموقف بسلام، فقد علم والد الملاك بهذا وأعطاها نصيبها من الشتائم، وكذا جد الملاك الذي هددها بإبلاغ الشرطة عمَّا حدث، ولعل أثر السكين على شفتي الملاك ظلت تذكره بالحادثة، وتذكر والدته بحقد عمته أعوامًا وأعوامًا، ولم يكن هذا هو أثر عمته الوحيد على حياته، بل تبعه الكثير من الآثار المدمرة.

ومع هذا، وحيث إنه شاب مميز في خُلقه وخَلقه استمرت عمته في محاولة فرض ابنتها عليه بأي شكل من الأشكال، ولم تتوقف عن ذلك إلا عندما علمت من أحد أبنائها أن الملاك تقدم لخطبة ختام ابنة خالته، وفي واقع الحال فإن حدوث شيءٍ كهذا عكس مخططاتها جعلها تنتقم لاحقًا في كل الاتجاهات، لتؤذي مَن ليس له ذنب، فذنبه الوحيد هو صفاء قلبه.

نشأت العمة نفيسة في كنف أسرة صغيرة مكونة من اثنتين من الإناث وواحد من الذكور هو أبو الملاك، كانت عائلتها ميسورة الحال مقارنة بمَن حولهم، يملكون الكثير من الأراضي الزراعية، ولعل أبرزها أرض الحاووز، والتي يُقال: إنها كانت خلال الحكم العثماني مقبرة قبل أن تتحول إلى أرض جرداء مليئة بالصخور، فكانت تمضي وقتها في اللعب مع شقيقتها هناك رغم تحذير والدتها المستمر لها، ولطالما أخبروها بأن دهس قبور الموتى خطر، إلا أن شخصيتها العنيدة والمتمردة دفعتها كطفلة إلى أن تتعمد القيام بذلك لترى ماذا سيحدث.

ذات يوم، بينما كانت في التاسعة من عمرها عادت ليلًا من بيت جدتها، حيث أمضت الوقت باللعب مع أبناء خالتها، أخذت تجري في أرض الحاووز المحاذية لبيتهم حتى تعثرت قدمها بصخرة وسقطت على ظهرها وفقدت الوعي.

ظلت على هذا الحال مدة ثلاث ساعات، حتى انتصف الليل، وحين تأخرت في العودة إلى البيت بدأ الجميع يبحث عنها هنا وهناك، ولم يخطر ببال أحدهم أنها قد تكون مرَّت من أرض المقابر المخيفة، بحثوا عنها في كل مكان حتى وجدها والدها مستلقية على الأرض بين الصخور، تفتح عينيها باتساعٍ غريبٍ وكأنها ترى شيئًا غير طبيعي يفزعها، اقتربت منها والدتها وأمسكت بيدها

وأخذت تصرخ بها: «لماذا مررتِ من هنا؟ كم مرة أخبرتكِ بأن هذه الأرض مسكونة بالأشباح؟ ألا تخافين؟»

ثم نفضت ما علق بثوبها من تراب ونفيسة تقف ساكنة فاقدة للنطق مذعورة من أمرٍ ما.

ظلت نفيسة في تلك الليلة ترتعش وأصابتها رجفة شديدة، ولم تكن على ما يرام وجثمت على فراشها الأرضي يومين كاملين، دون حراكٍ ودون أن تغمض عينيها لحظة، ومع كل ما يحدث لها وتشعر به لم تكن والدتها على علمٍ بها، فقد كانت النساء في ذلك الوقت كادحات من أجل لقمة العيش، تغيب طوال النهار عن البيت ولا تعود إليه إلا في المساء، وقد صادف وجودها يومين كاملين خارج البيت لتعاون والدتها (جدة نفيسة) حيث تستعد للولادة.

منذ ذلك اليوم لم تعُد نفيسة كسابق عهدها، بل أصبحت مختلفة عن البقية ممَّن حولها، ولم يلحظ أحد من المحيطين بها أن قوة ما قد تلبستها وانصهرت بها وبدَّلت حالها، ولعلها الأشباح التي أخبرتها والدتها بها قد تركت أرض الحاووز وسكنت بداخلها.

كان ذلك اليوم فارقًا بالنسبة لنفيسة، فقد دخلت في دائرة التحول، وأخذت قوة غريبة تحركها كما تريد، كانت تخرج كثيرًا في الليل حين ينام الجميع وتتوجه نحو أرض الحاووز، تجلس هناك تدندن الأغاني وتطلق الضحكات وتجري هنا وهناك، بل أحيانًا تأخذ وقتًا في نبش الأرض كأنها تبحث عن جثث الموتى، وما إن تسمع صوت الأذان حتى ترتجف وتنزوي متكورة على نفسها إلى أن ينتهي، كان إن رآها أحد المارة ولَّى مدبرًا دون أن يتجرأ على الحديث معها أو إخبار أحد بما رأى، إلا أن الأمر انكشف لوالديها مع الوقت، فقد كانت تصيبها هلوسة وتتصرف تصرفات غير مفهومة حين تسمع كلام الله، ما دفع والدها لإحضار عددٍ من الشيوخ وأئمة مساجد القرى المجاورة ليقرأوا عليها آيات من القرآن، علهم يعرفون شيئًا عمَّا أصاب ابنتهم، إلا أن نفيسة بإصرار شديد كانت تمنعهم من إتمام ما حضروا لأجله، ولم تسمح لهم بتشخيص حالتها بالشكل اللازم، فكانوا مجمعين على أن أرواحًا شريرة متمكنة منها، ولولا تقبل روحها لهذا الشر لما تمكنوا منها، فهي تعارض أفعال مَن حضروا لخلاصها من الأئمة والشيوخ وتبطلها، فلا يستطيعون إتمام رقيتها، إنه الشر الذي ينبع من داخلها والذي سهل على أعوانها مهمتهم.

لم يمضِ وقت طويل حتى تزوجت نفيسة من ابن خالتها، الذي شكا في بادئ الأمر من تصرفاتها المريبة، وخاصة خروجها في ساعات متأخرة من الليل، ولكنه لم يفلح في إيقافها عن أفعالها، بل هي مَن أوقفته عن التدخل في شؤونها، وبدلت حاله، فأصبحت تجري في جسده قشعريرة غريبة

كلما أراد الحديث عنها فيعجز بالبوح لأحدٍ عمَّا يـراه من أفعالها المريبة، ولم يجد ما يحرره من قيودها، لقد سيطرت عليه بسحرها كما سيطرت عليها الأشباح، وكثيرًا ما شوهدت كتائهة في شوارع القرية، شاردة لا تنطق ولا تتكلم، وظلت على هذا الحال لا يستطيع أحد أن يذكر اسمها أو اسم أحد من أفراد عائلتها أو أن يجرؤ أحد على الحديث عنها بسوء، وكأن أشباحها أحاطتها بهالةٍ حجبت عنها السوء ممَّن حولها وألجمت ألسنتهم.

ولعل حقيقتها المروعة واستخدامها للدجل والشعوذة، والذي احترفته مع الوقت قد فضح لاحقًا.

مرت الأيام وكبر أبناؤها وقررت تزويج أكبرهم حازم، الذي لمح أمام والدته برغبته في الزواج من وداد التي تقطن في قرية مجاورة لقريتهم، ورغم رفضها لتلك الفتاة تحديدًا، لكنها انصاعت لرغبة ابنها وإصراره وزوجته وداد.

لم يتجاوز عمر وداد العشرين عامًا، كانت امرأة صالحة متدينة، وهذا ما كان يضايق نفيسة ولم يكن يعجبها، فقد حاولت السيطرة عليها بالسحر وإخضاعها لسلطتها دون جدوى، فقد كانت وداد قريبة جدًّا من الله حافظة لكتابه، فحفظها من شر أعمال والدة زوجها، ومع هذا فقد تسلل الهم والكدر إلى روحها شيئًا فشيئًا من ألاعيب نفيسة، التي لم تكفَّ هي وأعوانها عن محاولاتهم لإخضاعها، فتحول الأمر بالنسبة لهم إلى انتقام منها، لردعها عن ترديد الآيات القرآنية التي كانت تزعجهم، وتعرقل شرورهم.

حين بدأت وداد تلحظ أمورًا غريبة تصدر من والدة زوجها، كانت تردد في عينيها آيات من سورة البقرة، لتُفاجَأ بها تصرخ بغضب، وتتقلب عيناها فجأة، وتهذي بكلمات غير مفهومة، وتنتفض بذعر مغادرة المكان، وكثيرًا ما حاولت وداد إخبار زوجها بالأمر وضرورة أن يحضر شيخ ليرقي والدته، وهذا ما لم يحدث.

لم يستمر الأمر طويلًا، فسرعان ما خططت نفيسة للقضاء على وداد، فأعدت لها ذات يوم سحرًا أسود وضعته في فنجان قهوة وَدَعَتْها لاحتسائها، دخلت وداد إلى الغرفة حيث تجلس نفيسة، وقد وضعت أمامها فنجان القهوة بما يحتويه من سمومها وشرور أعمالها، وما إن أمسكت وداد به وأرادت أن تحتسيه حتى جاء من خلفها زوجها حازم وبلطفٍ أمسك يدها وقبَّلها، وتناول من يدها الأخرى الفنجان، وشرب ما به جرعة واحدة. كانت نفيسة تنظر إليهما وتراقب ما يحدث وعيناها مليئتان بالشر والسواد، لا تحرك ساكنًا، ظنًّا منها أن معاونيها سيُبطلون مفعول السحر وما أرادته لوداد، إلا أن ذلك لم يكن، فقد تمكن السحر من ولدها حازم وقضى عليه وتوفي متأثرًا بسموم أمه

وشر أعمالها.

أما وداد فقد لفَّت نفيسة الستار على روحها وسيطرت على ما تبقى فيها من حياة، لتُصاب وداد بورم خبيث في جسدها فتك بها وتمكن منها، وسرعان ما توفيت تاركة طفلين صغيرين وراءها عهدت بهما نفيسة لإحدى نساء القرية لتربيتهما، لقد أحكم الحزن قيوده وسيطر على جسد وداد، فتمكَّن منها أعوان نفيسة، حتى لحقت بزوجها.

ولم تتوقف أذية نفيسة هنا، بل استمرت بأعمال السحر والشعوذة، فكثيرًا ما شتَّتت أُسرًا وأحدثت خلافات عائلية، وتسببت بأمراض مستعصية وجنون وحياة مضطربة، فرضتها بسحرها على أناس ضعفاء، قلبت حياتهم رأسًا على عقب.

(5)

في أحد صباحات عيد الفطر، حينما كان الملاك في الثامنة عشرة من عمره قدم والده من الكويت ليقضي معهم إجازته، وأحضر له ولشقيقه عامر بدلتين رسميتين للعيد، كانت بدلة الملاك مميزة بلونها الأخضر الزيتوني، ارتدى قميصًا أبيض ذا ياقة أنيقة وربطة عنق منقوشة باللون الأخضر الداكن، استيقظ الملاك من نومه وعلى الفور لبس بدلته وفتح باب غرفته ليجد والده ووالدته يجلسان على المصطبة الموجودة في ساحة المنزل حيث ارتدى والده بدلة سوداء وجلس ينتظر استيقاظه هو وشقيقه عامر، كانت تجلس على الأرض أمامهما شقيقته ميس تمسك بلعبتها وتسرح شعرها، وما إن رأت ميس الملاك حتى ألقت لعبتها من يدها وركضت تفتح ذراعيها لتعانقه، فحملها وعانقها قائلًا لها: «صباح الخير». ثم أنزلها موجهًا نظره إلى والديه اللذين كانا ينظران إليه نظرة إعجاب بولدهما الأكثر نجابة من أشقائه، اقترب الملاك من والدته وقبَّل جبينها ويديها قائلًا: «كل عام وأنتِ بخير يا أمي»، ثم اتجه نحو والده وقبل أن يمسك يده أقبل عليه والده معانقًا إيَّاه مرددًا: «الله يرضى عليك الله يرضى عليك». وكم كانت تعني هذه الكلمات وهذا الرضا الكثير للملاك، وما إن أنهى دعوته حتى فتح باب غرفة الملاك وأطل منها عامر بملابس النوم ينظر لمَن حوله نظرة متثاقلة، ثم نظر إلى الملاك وقال: «ما بالك ترتدي البدلة؟ أين ستذهب؟»

أراد الملاك أن يجيبه إلا أن صوت والده سبقه حيث قال: «هيَّا يا ملاك لنذهب»، ونظر إلى عامر وقال له بنبرة سخرية واضحة جلية في صوته: «عُد إلى الغرفة وأكمل نومك. هيَّا يا ملاك».

وانطلقا نحو ساحة القرية حيث اجتمع المئات لأداء مراسم صلاة العيد، والتي دائمًا ما يذهب لأدائها مع جميع أفراد عائلته، إلا أن والدته كانت هذا العيد في شهور حملها الأخيرة، ما منعها من مرافقتهما، أما بيت خالته أم فريد فلم يذهب منهم سوى زوج خالته أبي فريد وابنه فريد، كانت المظاهر الدينية والاجتماعية في ذلك الوقت تظهر جليَّة في الأعياد والمناسبات الرسمية، فبعد أداء صلاة العيد يحرص أهالي القرية على تبادل الزيارات والتي تستمر حتى المساء.

حين انتهى الملاك ووالده من أداء الصلاة وتكبيرات العيد، والسلام على مَن حضروا الصلاة وتهنئتهم بالعيد، توجَّه الملاك مع والده إلى بيت عمته نفيسة لمعايدتها، كان الملاك جالسًا في غرفة الضيوف بجانب والده حين حضرت ابنة عمته متوجهة نحوه وهي تبتسم وقالت له: «كل عام

وأنت بخير ملاك، اشتقنا لرؤيتك»، دهش الملاك بادئ الأمر وبدا على ملامح وجهه الخجل، وأجابها قائلًا: «وأنتم جميعًا بخير»، ثم راحت باتجاه خالها وسلمت عليه، ثم عادت وجلست بالقرب من الملاك، كانت ابنة عمته عادية جدًّا، لم تلفت نظره يومًا، على الرغم من محاولات عمته فرضها عليه إلا أنه لم يكن يبالي لأمرها أبدًا حتى ولو لم يكن يخفي في قلبه مشاعر لابنة خالته ختام، إلا أن إصرار عمته على جلوس ابنتها بالقرب منه ونظراتها المستمرة لهما كانت تثير شكوكه وحيرته، بدا عليه القلق وهو ينتظر مرور الوقت ليأتي دور بيت خالته في الزيارات للمعايدة، علَّه يرى حبيبة قلبه، ظلت عمته نفيسة تحرض ابنتها على الاهتمام بالملاك وقت الضيافة فتدفع بها لتضيفه بالشاي والقهوة، وما إن تختلي بها في المطبخ حتى تمسكها من يدها وتوصيها بالحديث معه.

لقد كان بمقدور العمة نفيسة أن تؤذي الملاك لكن حبها الشديد له منعها من ذلك، ولعلها دائمًا حين تنظر في وجهه وترى أثر سكينها وجرمها على شفتيه تتذكر ما بدر منها تجاهه حين كان في الرابعة من عمره فينتابها شيء من الاستياء.

في الطرف الآخر كانت ختام هي الأخرى قد استيقظت باكرًا، وارتدت ملابس العيد التي اشترتها بعناية شديدة، علها تعجب الملاك، سرحت شعرها ورفعته وأسدلت خصلتين منه على جبينها، كانت ترتدي فستانًا أحمر يتسع عند الوسط قليلًا وينتهي بعد ركبتها مباشرة، زيَّنته بعقد فضي اللون لفَّته على رقبتها وبقدميها حذاء بلون الفستان. بدت بغاية الجمال تنتظر قدومه، انتصف النهار وجاء الجميع لزيارتهم ومعايدتهم ولم يأتِ الملاك، فقد لازم والده في جميع زياراته للمعايدة على عمَّاته، فبعد أن عايدا على عمته نفيسة توجَّه الملاك مع والده خارج القرية حيث تقطن عمته الأخرى في قرية سفارين، وهي قرية مجاورة لقريتهم، أما والدته وأشقاؤه فقد ذهبوا لمعايدة جده وجدته، ثم توجهوا نحو بيت خالته أم فريد لمعايدتها، بل تناولوا طعام الغداء معهم أيضًا. أما ختام فقد أرادت - دون أن تلفت نظر أحد - السؤال عن الملاك الذي لم يكن بصحبة أشقائه إلا أنها لم تجد أي وسيلة، ما دفعها للاقتراب نحو ميس وملاعبتها وطلبت منها القدوم إلى غرفتها، وما إن دلفت ميس من الباب ببطء، حتى أمسكت ختام بيدها وأغلقت باب الغرفة وجلست بجانبها على السرير تداعب خديها قائلة لها: «لماذا لم يأتِ الملاك معكم يا حلوة؟»

ابتسمت لها ميس قائلة: «ملاك سافر مع بابا».

تبدل لون ختام للوهلة الأولى، وأخذت تحدث نفسها بصوتٍ غير مسموع: «ماذا؟ سافر.. كيف؟»

ابتلعت ريقها وكست وجهها علامات الدهشة، لم تصدق ما سمعته من هذه الطفلة الصغيرة، وأخذت تفكر بالأمر، أيُعقل أن يسافر دون أن يخبرها؟ تبدلت ملامحها قبل أن تسمع صوت والدتها وهي تقول: «أهلًا أهلًا يا ملاك»، وللحظات كادت تُطلق ضحكة عالية ممزوجة بصرخة فرح، إلا أنها تمالكت نفسها حتى لا تدمر ثمار جهودها في احتلال قلبه، أمسكت بميس وعانقتها قائلة: «أتضحكين عليَّ يا شقية؟ ها هو الملاك في الخارج»، ركضت ميس وفتحت الباب بسرعة متوجهة إلى خارج الغرفة، وما إن فُتح الباب حتى لمحت ختام وجه الملاك يجلس في غرفة الضيوف المقابلة لغرفتها، أومأ برأسه تحية لها فابتسمت له، ثم توجهت على الفور نحوه. سلمت على الجميع ثم نظرت إلى والد الملاك وقالت له: «كل عام وأنت بخير عمو». فقال وهو ينظر إليها بإعجاب: «ما شاء الله، كل عام وأنتم جميعًا بخير»، ثم أكمل متسائلًا: «أهذه ختام؟»

فأجابه الملاك على الفور: «نعم نعم يا والدي، هذه هي ختام»، ثم نظر إلى مَن حوله وبدت علامات الخجل تظهر في حمرة خديه، فقد فضح حماسه ما يخفيه من مشاعر، وبنبرة تحمل شيئًا من الإعجاب في صوتها، قالت موجهة الكلمة لوالد الملاك: «أهلًا وسهلًا بكما. كيف حالك عمو؟ لم نلتقِ منذ سنوات»، كان قد مر وقت طويل على رؤية أبي الملاك لختام، كانت حينها لا تزال طفلة صغيرة، ولعل سنوات عمرها جعلتها تبدو صبية ناضجة مفعمة بالحياة، فاختلفت عليه كثيرًا.

جلست ختام على الأريكة المقابلة للملاك، كانت تنظر له بدقة وقد بدا بكامل أناقته وهي كذلك، مر الوقت بسرعة، لم يكن هناك أي حديث بينهما، فقط اكتفيا بالنظر لبعضهما البعض، قبل أن يصلهما صوت نفيسة تصرخ في الخارج قائلة: «أين أنتم يا أهل البيت؟» لتخرج شقيقة ختام على الفور لاستقبالها، دخلت نفيسة إلى الغرفة حيث يجلس أبو الملاك وأمه وخالته، أخذت تحدق في ختام وهي تسلم بعينيها على الجميع وتعايدهم دون أن تقترب من أحد، جلست بجانب ختام وأخذت تنظر إلى الملاك تارة وتراقب نظراته، ثم تنظر في عيني ختام الجالسة بجوارها وتراقبها دون أن تشارك بحديث مَن حولها، وكأن أعوانها أخبروها عن الحب الذي يجمع الملاك بختام، ظلت على حالها تراقبهما وأثارت جوًّا من القلق والتوتر بين الحبيبين، حتى جاءت شقيقة ختام الكبرى فريدة وقالت: «ختام اتبعيني».

وتوجهت بنظرها نحو الملاك وشقيقيه عامر وعاهد وقالت لهما: «تعالوا معنا نستمع إلى المذياع، ستُذاع الآن أغنية جديدة لأم كلثوم اسمها: هذه ليلتي».

كانت شقيقتها الكبرى بمثابة طوق نجاة لكليهما، فقد خافا أن تفضحهما نظراتهما خاصة مع وجود نفيسة التي تراقبهما بغرابة، قام الملاك مستأذنًا والده وعمته ومعه شقيقاه تتقدمهم ختام

وشقيقتها نحو غرفة المعيشة، ونظرات نفيسة تتبعهما.

كان المذياع الضخم قابعًا فوق طاولة خشبية أهداهم إياه أبو الملاك في إحدى زياراته السابقة، الغرفة بها فراش أرضي ويتوسطها دولاب ملابس كبير، وكان لهذه الغرفة باب يؤدي إلى حديقة البيت الخلفية حيث شجرة الخروب، بدأت أم كلثوم بالغناء: «هذه ليلتي وحلم حياتي»، وقف الملاك بجانب المذياع وتوزع الجميع من حوله، أما ختام فقد جلست مقابله ليختلسا النظرات ما بين وجهها ووجوه الموجودين من حولهما، كانت تشعر بارتباكٍ شديد، ضربات قلبها تتسارع مع كلمات الأغنية، ويتصبب من جبينها العرق، واحمرت وجنتاها معلنة فرحتها وتوترها، أما هو فقد ارتبك حتى أصبح لا يستطيع أن يقف أكثر، رفع صوت المذياع وتوجَّه نحو باب البيت وخرج نحو الشجرة، وما هي إلا دقائق حتى تبعه الجميع، فأدركا حينها أنها ليست ليلتهما أبدًا.

(6)

ذات يوم بينما كان الملاك يجلس في غرفته يذاكر ويستعد للامتحانات، كانت والدته في الغرفة المجاورة قد أدارت المذياع الذي وصل صوته إلى حيث يجلس الملاك، كانت إذاعة إسرائيل تبث خبرًا أن القوات الإسرائيلية ستتوجه لاحتلال القرى والمدن الفلسطينية، كان يقف عند باب غرفته يسترق السمع، شعر بفوضى غريبة وكأن أحدًا يفتح ويغلق الأدراج بسرعة كبيرة، خرج من غرفته وتوجَّه نحو غرفة والدته، وجدها قد وضعت قطعة قماش كبيرة على الأرض، وتسير هنا وهناك في غرفتها كأنها تبحث عن شيءٍ ما، وعلى الفور داهمها بالسؤال: «ما بالكِ يا أمي؟»

أجابته والخوف تمكن منها: «ستعود إسرائيل بجنودها وقواتها ويحتلوننا من جديد، سيتكرر ما حدث قبل عشرة أعوام»، وأتبعت: «إنهم يعدون ويجهزون لاقتحام القرية». كان الملاك يقف عند الباب مندهشًا لما سمعه، وسألها: «ومن أين أتيتِ بهذه الأخبار؟» أجابته: «لقد سمعتهم الآن يتحدثون عبر الإذاعة». قال لها معاتبًا: «لماذا يا أمي تديرين المذياع على إذاعة إسرائيل؟ كم مرة نهاكِ أبي عن هذا؟»

صرخت في وجهه: «هيَّا اذهب وأحضر شقيقاتك، وأخبر الجميع بأننا سنترك القرية، لن ننام اليوم هنا». لم يعجبه كلامها وبتردد ملحوظ توجَّه إلى خارج المنزل يبحث عن أشقائه، أما هي فقد أخذت تجمع ما خفَّ وزنه وغلا ثمنه وتضعه في قطعة القماش أمامها، أو كما يسمونها «الصُّرة» لتحملها معها.

في الطرف الآخر جد الملاك وجدته كانا يجمعان ما يقدران على جمعه، وكذلك أبو فريد وعائلته، كانت ختام تحمل شقيقتها الصغيرة بين ذراعيها والفوضى عمَّت أرجاء البيت لحظات، والجميع يحمل ما استطاع حمله ويقف أمام مطلع البيت ينتظرون باقي أفراد العائلة ليتوجهوا جميعًا إلى خارج القرية.

وهم يقفون على ناصية الشارع أطل عليهم الملاك وأشقاؤه يتقدمون والدته وجده وجدته، وانضم إليهم عمته نفيسة وأبناؤها، كان الوضع مربكًا بالنسبة لهم، لم يكن كأول مرة، فقد كانت المرة الأولى بتخطيط مسبق، أما الآن فالموضوع مفاجئ لم يخططوا له، وكانت الأوضاع العربية بشكل عام قد ساءت أكثر، فكان لا بد لهم من الرحيل عن القرية تاركين أرضهم وبيوتهم وزيتونهم وذكرياتهم أملًا في العودة.

الجميع يسير في مجموعات، جميع مَن في القرية خرجوا منها، فإسرائيل أصبحت قوة تسببت بخسائر بشرية ومادية كبيرة، ولم يكن الأهالي يملكون عتادًا عسكريًّا للمواجهة ففروا هاربين، الجميع يسير مع الجميع متوجهين نحو بلدة مجاورة لبلدتهم يُقال لها سفارين، كانت عمة الملاك تقطن بها، وقد قرروا المكوث فيها لمراقبة ماذا سيحدث، وصلوا بالقرب من القرية بعد مشوار طويل مشيًا على الأقدام قرابة خمس ساعات، وصلوا إلى أرض شاسعة يُقال لها البيادر، ووضعوا رحالهم وانتشروا بين الشجر، كان الجميع قد أنهكه التعب وسيطر عليه اليأس، كانت ختام تنظر في عيني الملاك وتخبره بالكثير: لماذا نحن؟ ولماذا أرضنا؟ وما مصيرنا؟ كانت تجلس تحت شجرة زيتون تمسك بشقيقتها الصغرى بين ذراعيها حين تقدم الملاك نحوها وابتسم لها رغم التعب الظاهر على وجهه، وقال لها متسائلًا: «أشعر بأنه لا بد لنا من المواجهة، لماذا انسحبنا بهذا الشكل؟»

قالت له مندهشة ممَّا سمعت: «كيف لكم المواجهة وأنتم
لا تملكون أسلحة وقوة كقوتهم؟» وأضافت: «فلننتظر ما سيحدث». لم يُبدِ أي تجاوب مع ما قالته، بل أطال النظر في عينيها الحزينتين وكأنه يخبرها بحبه وتعلقه بها، لتلحظ هذه النظرات عمته نفيسة التي كانت تقف أسفل شجرة تقع على يمينه، واشتعلت نيران الغضب في داخلها وتسمرت في مكانها تنظر إلى ختام التي تركها الملاك متجهًا نحو والدته؛ وما إن رأته والدته مقبلًا باتجاهها حتى قالت له: «اذهب يا ملاك إلى القرية واطرق باب عمتك وأخبرها بما حدث، وابحث لنا عن أي شيءٍ نأكله». لقد فرغت سلة الطعام التي أحضرتها معها، فقد كانت توزع منها لمَن حولها طوال الطريق.

كانت الشمس قد بدأت بالمغيب، الكل منتشر هنا وهناك، توجَّه الملاك ومعه شقيقه عامر نحو القرية التي تبعد خمس عشرة دقيقة عن البيادر، في تلك الأثناء، وبينما ختام في مكانها تحت شجرة زيتون وبين ذراعيها شقيقتها الصغرى سمعت أصواتًا قريبة منها تشبه فحيح ثعابين، نهضت فزعة من مكانها ونظرت حيث كانت تجلس وصرخت بأعلى صوتها: «ثعابين، ثعابين»، وهي تشير إلى مكانها، اقتربت منها والدتها وأخذت شقيقتها من يديها وأخذت تنظر حولها فلم تجد شيئًا، كان الجميع قد اقترب من ختام يهدئ من روعها، وينظرون حولها، لكن لا أثر لثعابين، اقتربت شقيقتها فريدة منها، وأعطتها فخارة الماء لتشرب وهي تقول لها: «لا تخافي، لا يوجد شيء»، نظرت ختام حولها، أخذت تشير إلى مكانها وتردد: «رأيت عددًا من الثعابين تخرج من الأرض، أنا رأيتها وسمعت صوتها»، ورفعت رأسها لتلمح عيني نفيسة التي بدت لها حمراء مخيفة جدًّا،

وكأنها تنذرها بشيءٍ ما ألجم لسان ختام عن الكلام، إلا أن الخوف ظل يطارد ختام، فهي على يقين من أنها سمعت فحيح ثعابين، فمن أين أتى ذلك الصوت؟ ولماذا لم يسمعه أحد ممَّن حولها؟ انقبض قلبها وضاقت الدنيا بعينيها، وشعرت بوخز في صدرها، ولم يكن أمامها سوى الاستسلام إلى أنه خُيل لها وجود الثعابين، فتوجهت حيث جدتها وجلست بجانبها وأسندت رأسها على كتفها، وأخذت جدتها تمسد بيدها على شعرها، وقالت لها: «رددي معي يا ختام: يا رفاعي يا رفاعي من أي شيءٍ ساعٍ»، وما إن أنهت كلامها حتى ضحكت ختام ونظرت في وجه جدتها المليء بالتجاعيد التي خلفتها حياة الشقاء وعانقتها وقبَّلت يدها قائلة: «أطال الله عمركِ يا جدتي»، ثم ضحكت مجددًا وتساءلت: «ولكن مَن هو رفاعي؟»، فقالت لها جدتها: «رفاعي يا بنتي هو ذلك الشيخ الذي تخاف منه الزواحف والثعابين»، ابتسمت ختام وهي مندهشة من بساطة جدتها التي سمعت فآمنت فرددت ببساطة وبلا تعقيدات ودون أن تفهم ما تُردد.

وصل الملاك وشقيقه إلى قرية سفارين، بدت القرية موحشة مهجورة فارغة من السكان، فالجميع اختبؤوا في بيوتهم، الدكاكين أغلقت وعربات الأطعمة فارغة، وتركت نصبات الخضار والفواكه في مكانها فارغة أيضًا، لا يوجد ما يُباع ولا شيء يؤكل، توجَّه الملاك نحو بيت عمته، طرق الباب مرارًا ولكن لا أحد يجيب، فقد كانت عمته وعائلتها قد تركوا البيت منذ خمسة أيام متوجهين نحو قرية يُقال لها حجة بالقرب من صور، اختبؤوا فيها من العصابات التي أُذيع أنها على مقربة منهم، ولم يعودوا بعدها ليعرفوا ما حلَّ بقريتهم التي لم تقترب منها العصابات، عاد الملاك وشقيقه عامر حيث البيادر، عادا بأفواهٍ جائعة، وأيدٍ فارغة، لا يملكان شيئًا سوى النوم هناك بين الشجر، الكل خائف يفكر بما ينتظره، أما ختام فكانت تتبع الملاك بنظرها، ولم تنَم تلك الليلة، وعندما أشرقت شمس صباح اليوم التالي كان الجميع مستلقيًا هنا وهناك بين الشجر، والوقت يمضي، ولا يملكون شيئًا يأكلونه، فلم يكن أمامهم سوى إرسال شباب القرية للاستطلاع ومعرفة ماذا يحدث، وهل تم احتلال قريتهم؟ وبالفعل انطلق الشباب، وكان عددهم عشرة متجهين نحو القرية، وقد سار معهم جميع الأهالي إلى نقطة محددة حسب الاتفاق الذي تم بينهم ليتقدموهم ويتأكدوا من خلو القرية من العصابات، قبل الدخول إليها والعودة إلى بيوتهم، وصل الجميع إلى بلدة قريبة من صور يُقال لها: الراس، تقع شمال صور وتبعد عنها بحوالي ثلاثة كيلو مترات تقريبًا، وهي بلدة تقع على تلة ترتفع حوالي 286 مترًا عن سطح البحر، اختبؤوا عند سفح قرية الراس باتجاه قريتهم، وتقدمهم الشباب متوجهين نحو صور، وزعوا أنفسهم فمنهم من دخل من بين البيادر، ومنهم من دخل من مدخل القرية، ومنهم من دخل من مخرجها، واتفقوا على التقصي كل

من مكانه والعودة مجددًا إلى نقطة لقاء محددة بينهم وهي مدخل القرية، ما إن وصل الملاك إلى أول القرية من مدخلها وبصحبته شقيقه عامر وابن عمته حتى لمحوا دبابات العصابات تجول في أنحاء القرية، فعادوا مسرعين واختبؤوا بين الشجر بانتظار الآخرين.

اكتمل عدد الشباب مختبئين خلف أحد الأسوار ينتظرون خروج الدبابات، فقد بدا لهم أن القوات الإسرائيلية تستعد للخروج من القرية، مرت ساعة قبل أن يشاهدوا دبابات المحتل مغادرة للقرية، فشعروا بسعادةٍ بالغة، وما إن اختفت عن أنظارهم حتى أخذوا يلوحون لأهاليهم للرجوع إلى القرية.

كانت فترة عصيبة جدًّا، الكل خائف مذعور حائر لا يعرف مصيره، وما إن دخلوا إلى القرية حتى بدأت تعلو أصوات التكبير وتوجهوا نحو بيوتهم، التي كانت القوات الإسرائيلية قد دخلتها وعاثت الدمار فيها، ولكن لا بأس، فالجميع الآن في بيته تحت سقف غرفته لم تنتزع إسرائيل أرضه، وكانت تلك آخر مرة يغادرون فيها بيوتهم وأرضهم، فقد ضمَّت إسرائيل القدس والجولان لحدودها، واستمرت باحتلال الضفة الغربية ونشر مستوطناتها هنا وهناك، أما القرى فلم تقترب منها.

(7)

في نفس العام، بعد ذلك الحدث وتحديدًا مع بداية شهر يونيو، استيقظت ختام من نومها مبكرًا كعادتها كل يوم جمعة، وقد انتهت أمس امتحانات السنة الدراسية، كانت شقيقتها خولة تقف أمام المرآة المعلقة على الدولاب الذي يتوسط الغرفة، بينما تجلس شقيقتها الصغرى أمام أخرى تسرح لها شعرها، رائحة خبز الطابون تفوح في كل مكان، فقد استيقظت والدتها وشقيقتها الكبرى منذ الفجر ليعدا طعام الإفطار، نهضت ختام من سريرها ونظرت إلى خولة قائلة لها: «سنخرج بإذن الله بعد تناول الإفطار»، وما إن أكملت حديثها حتى هرعت نحوها شقيقتها الصغرى نجوى وهي تردد: «خذيني معك، خذيني معك».

ابتسمت لها ختام وقالت: «سآخذك معي يومًا ما ولكن ليس هذا اليوم»، بالتأكيد، فهذا اليوم ستتجول لأول مرة مع الملاك في المدينة حيث اتفقا سرًّا أن يلتقيا عند محطة الحافلات لقضاء الوقت في المدينة، والتنزه سويًّا قبل أن ينخرط الملاك في الدراسة، فهو يستعد للسنة النهائية، وكانت الثانوية العامة في ذلك الوقت بمثابة رعب للأهالي والطلاب، فهي مرحلة مصيرية تحدد مستقبلهم ومهنتهم في الحياة، استعدت ختام لهذا المشوار وكان لا بد لها أن تصطحب شقيقتها خولة معها، حتى يبدو الأمر طبيعيًّا أمام والديها، فقد أخبرتهما بأنها ستذهب بصحبة خولة إلى إحدى صديقاتها للمذاكرة معًا والاستعداد للامتحانات.

تناولت ختام طعام الإفطار وشاركت شقيقاتها بتنظيف البيت وارتدت ملابسها واستعدت للقاء الملاك.

كانت تجلس على مقعد الانتظار في محطة الحافلة وبجانبها تجلس خولة حين أقبل الملاك من الطريق المقابل للمحطة، أخذت دقات قلبها تتسارع وتنبض بشدة من فرحة اللقاء، وهي تبتسم له من بعيد، وما إن وصل حتى جاءت الحافلة التي ستأخذهم إلى المدينة، وقد جلست ختام بالقرب من شقيقتها خولة، أما الملاك فجلس خلفهما.

وبينما هم يسيرون في شوارع المدينة يتبادلون الحديث ويتناولون بوظة عصر الفضاء الشهيرة في طولكرم بمذاقها المميز، كانت محطات المذياع في كل المحال قد أُديرت والتفَّ الجميع حولها، ما يعني أنها ستُذيع نبأً هامًّا، كان المشهد أمامهم يتكرر، إذاعة صوت العرب، الكل يدير المذياع وينصت لها، يجري الجميع هنا وهناك رغبة بالوقوف والاستماع للإذاعة، ما لفت نظر الملاك،

فسأل أحد المارة:

- ماذا هناك؟

- سيُذاع خطاب للرئيس جمال عبد الناصر بعد قليل.

أجابه ورحل على الفور.

نظر الملاك نحو ختام وشقيقتها وردد باندهاش بدا واضحًا على ملامح وجهه: «سيُذاع الآن خطاب للرئيس جمال عبد الناصر، يا الله، لعله خير».

تبدلت ملامح وجه ختام، وشعرت باستياء، فكم انتظرت هذا اليوم لتلتقي به خارج القرية، إلا أنها سرعان ما استجمعت قواها وأخذت تركز بما يجري من حولها.

كان الجميع في ذلك الوقت ونظرًا لطبيعة الحياة لديه اهتمامات سياسية ووعي سياسي بما يجري من حولهم رغم قلة الإمكانات، ولكن بطبيعة الأحوال فالراديو والصحف اليومية كفيلة بتوعيتهم بما يجري من حولهم، ولعل انتماءهم لأرض محتلة زاد لديهم الإحساس بالمسؤولية والوعي تجاه الوطن.

أما الملاك فكان متحمسًا جدًّا لمعرفة ما سيقوله الرئيس جمال عبد الناصر، فابتعد عنهما قليلًا، واقترب أكثر من أحد المقاهي التي تدير المذياع حيث أراد أن يسترق السمع علَّه يعرف ما سيقوله الرئيس جمال عبد الناصر، وما هي إلا لحظات حتى عمَّت المدينة هتافات ومظاهرات قادمة باتجاههم من أعلى ناصية الشارع، والكل من حولهم يهتفون باسم الرئيس جمال عبد الناصر، حيث ألقى حينها خطاب التنحي عن الرئاسة لزكريا محيي الدين، فصاح الموجودون وأخذت النساء تبكي وكان الجميع حزينين معلنين رفضهم لما سمعوا، في تلك الأثناء انفجرت عينا ختام بالدموع، فقد كان جمال عبد الناصر رمزًا للكرامة والوحدة العربية، ولم يقتصر الرفض الشعبي لتنحيه على مصر وحدها، بل عمَّ البلاد العربية والجميع خرجوا بمظاهرات تطالبه بالرجوع عن قراره حتى إن الجاليات العربية في المهجر تظاهرت رفضًا لقرار تنحيه.

بعد مضي أقل من ربع ساعة على خطاب التنحي كان الملاك وختام وشقيقتها قد انضموا إلى المتظاهرين يهتفون باسم جمال عبد الناصر، وكل الأعين تتساءل وتطلب من الزعيم العدول والبقاء في الحكم، وأخذت الحناجر تهتف وتهتف رافضة ما سمعته، حتى عمَّت الفوضى المكان، وانتشرت قوات الأمن لفض المظاهرات، أخذ الجميع يجري ويختبئ في زقاق المدينة، لقد كانت هذه المرة الأولى لكليهما يشاركان في مظاهرة سياسية أملًا في إحداث تغيير إيجابي في وطنهما

المحتل، ولعله بعد هذا انخرط في دراسته، أما ختام فقد أدركت بعد هذا اليوم أنها لا بد من أن تقدم شيئًا لوطنها، ما دفعها لاحقًا للمشاركة كمتطوعة لدى إحدى الجمعيات الخيرية لتوزيع المؤن والمساعدات على أهالي المخيمات الفلسطينية النازحين من قراهم ومدنهم، ولعل هذه التجربة صقلت شخصيتها وأنضجتها فكريًا، فغدا الملاك يتلمس ذلك في أحاديثها بدلالات واضحة تحمل حسًّا وطنيًّا كبيرًا ظل موسومًا في ذاكرتها طوال حياتها، وكلما سمعا أم كلثوم تشدو لجمال عبد الناصر: «ابقَ فأنت حبيب الشعب»، تذكرا تفاصيل ذلك اليوم الذي تحول من مشوار ترفيهي رومانسي إلى مشوار وطني سياسي.

(8)

كبرت ختام وأصبحت صبية ناضجة جميلة مفعمة بالحيوية، وكبرت معها الأحلام وقبل أن ينهي الملاك مرحلة الثانوية العامة ويستعد للسفر، ليكمل دراسته الجامعية في الخارج، تواعدا والتقى بها عند شجرة الخروب خلف بيتها، ارتدت حينها فستانًا أبيض بزهور حمراء صغيرة، وأسدلت شعرها الخروبي على كتفيها واتجهت نحو شجرة الخروب لتلتقي به، كانت مشاعرها متخبطة بين حزن وفرح، نظرت إليه مبتسمة بخجل وقالت: «كيف حالك؟ جئت لتودعني؟»

قال لها مبتسمًا: «لم آتِ لأودعكِ وأكتب سطور النهاية، بل جئت لنضع أنا وأنتِ سطور البداية، فلا تقلقي، سأعود لنكون معًا إلى الأبد».

لم تكن ختام تنظر في عيني الملاك الذي كان يقف أمامها ممسكًا بيدها، بل راحت بنظراتها نحو وجه نفيسة الذي ارتسم أمامها على غفلة وعاد ولجم لسانها عن الكلام، ثم عادت تسمع حفيف ثعابين من حولها، فأخذت تبحث بنظرها هنا وهناك، شعر الملاك بأنها ليست على ما يرام فسألها: «هل أنتِ بخير؟»

لم تحرك رأسها، ولم تُبدِ أي تجاوب مع ما قاله، ما أدهش الملاك وأخذ ينظر خلفه ويسألها: «مَن هناك؟ ما بالك؟» إلا أن ختام لم تُجبه وكانت يداها ترتعشان.

ظن الملاك أنها حزينة على فراقه، فاقترب منها وأمسك بيدها ثم اقترب منها أكثر وشعر برعشة جسدها فعانقها، لم يكن لدى ختام أدنى شك في صدقه، بل كانت على ثقة تامة بأنه سيعود لها لتكون شريكة حياته ورفيقة مشواره، كان يستمع إليها، يعلمها، وينصحها بل ويشجعها دائمًا فانتظرته بشغف، إلا أن فحيح الثعابين ووجه نفيسة كشيطان رجيم ظل يلاحقها فترة طويلة من الزمن.

كان الملاك خلال السنوات الأربع التي قضاها في الكويت يأتي شهرًا واحدًا في السنة، يلتقيان سويًّا ويتبادلان الحديث، وشرارة حبهما تشتعل أكثر فأكثر، ولعل غيابه الطويل عنها أكد له أنه يحبها حقًّا، فكان حريصًا على السؤال عنها باستمرار، وكانت أول هدية يقدمها الملاك لختام ساعة يد فضية، وكانت في ذلك الوقت ساعات اليد شحيحة ودليلًا على الرقي، وقد اشتراها لختام من الكويت وألبسها إياها في معصمها اليسار، وقد كانت أول مَن يلبس ساعة يد من نساء القرية في ذلك الوقت.

كان الملاك شابًّا مكافحًا يعمل في الكويت في ذات الشركة التي يعمل بها والده، وكانت الكويت في ذلك الوقت محط أنظار العرب، فقد كانت في أوج ازدهارها، وقد انتسب إلى إحدى الجامعات اللبنانية في العاصمة بيروت، فيسافر إليها قبل نهاية الفصل الدراسي ليؤدي الامتحانات ويعود إلى عمله في الكويت، أما هي فبعد عامين التحقت بكلية رام الله للبنات وأكملت دراستها هناك.

وما إن أنهى الملاك دراسته الجامعية حتى كانت هي الأخرى قد تخرجت في كلية رام الله للبنات، وحصلت على دبلوم تربية رياضية.

مرت الأيام بسرعة وها هي فريدة شقيقتها الكبرى قد تزوجت، وانتقلت مع زوجها إلى الكويت، والأخرى أم محمد تزوجت أيضًا وسكنت في محافظة الزرقاء بالأردن، أما فريد فقد تزوج أيضًا وسكن في الكويت، ولم يبقَ في البيت سوى شقيقتها خولة الأكبر منها بعامين، وشقيقتها الصغرى، ولشدة جمال ختام فقد تقدم لخطبتها الكثير، ابن عمها وابن خالتها والكثير من النساء طلبنها لأبنائهن، لكنها كانت ترفض باستمرار ما أثار شك والدتها ووالدها.

ذات يوم، وبعد أن فرغ الجميع من تناول الغداء، أرادت ختام أن تساعد شقيقاتها في تنظيف طاولة الطعام الأرضية حيث تناولوا غداءهم، إلا أن والدها وقف وأمسك بيدها وقال لها: «اتبعيني يا ختام».

ترك يدها وسار أمامها متوجهًا نحو شجرة الخروب حيث افترش الأرض تحتها ببساط أرضي من القش. جلس والدها ينتظرها، كانت ختام تعي تمامًا حب والدها الشديد لها ولشقيقاتها وتدرك طيبة قلبه وحنيته، فهو لم يقسُ على إحداهن يومًا، بل كان يردد على مسامعهن دائمًا: «أنتن المؤنسات الغاليات».

أنهت ما بيدها وتوجهت نحو شجرة الخروب، حيث يجلس والدها وجلست بجانبه، أخذ يحدثها عن شقيقتيها أم راشد وأم محمد وكيف أنهما تزوجتا وأسستا أسرتين، وسألها: «لماذا ترفضين الزواج؟» نظرت ختام إلى وجهه، وقد امتزجت تعابير وجهها بالخوف والارتباك، رغم علمها بأن والدها لم يعنفهن أبدًا، ولم يسبق أن أجبرهن على شيءٍ يومًا، إلا أنها بالتأكيد لن تستطيع مصارحته بالسبب الحقيقي وراء رفضها الزواج ممَّن تقدموا لها، فلمعت في بالها فكرة لم تتردد لحظة في قولها لتكون المنجية لها، قالت له وقد احمرت وجنتاها خجلًا: «أبي، أعلم جيدًا أن مصير البنت لبيت زوجها، ولم أرفض لسبب معين، بل رغبة مني بأن تتزوج خولة أولًا كونها الأكبر سنًّا، فالدور دورها الآن وليس دوري»، سرح والدها للحظة بكلامها وأدرك أنها على حق، كيف له أن

ينسى ابنته خولة وهي الأكبر سنًّا، وضع يده على كتفها وقال لها: «بارك الله فيكِ يا بنتي»، فاقتربت منه وقبَّلته على جبينه وقالت: «سأحضر لك الشاي»، في تلك الأثناء كانت تشعر بأن الأرض لم تعُد تحملها، بل كأنها تطير في السماء فرحًا بنجاتها، ولعلها حقًّا كانت تفكر بأمر خولة التي دائمًا ما كانت منسية بالنسبة لوالدها ووالدتها بسبب طبعها الهادئ وصمتها المستمر على العكس من ختام بحيويتها وطاقتها الإيجابية التي تنشرها في كل مكان، على أي حال فقد سبقتها ختام بالزواج، وتزوجت خولة بعدها بأربعة أعوام.

بعد حديثها مع والدها انطلقت ختام بسعادة بالغة متوجهة نحو البيت ليتبدل حالها بلحظة، فقد عاد فحيح الثعابين يسيطر على مسامعها ما جعلها تقف متسمرة في مكانها، تبحث عن مصدر الصوت دون أن تجد أثرًا للثعابين، إلا أن تكرار سماعها للفحيح دفعها إلى التفكير مليًّا بإخبار خولة شقيقتها بالأمر، علها تؤكد لها ما تسمع، دخلت البيت وتوجهت على الفور إلى غرفتها حيث كانت خولة تجلس على سريرها، فجلست ختام بجانبها، سألتها خولة: «ماذا كان يريد أبي منك؟» نظرت ختام في وجه خولة ورأت في عينيها خليطًا من الحزن والحيرة، اقتربت ختام منها أكثر ووضعت رأسها على كتف خولة اليمنى، وقالت لها: «خولة، أود أن أخبركِ بأمرٍ ما»، كان صوت نفَس خولة عاليًا جدًّا كأنها تترقب أن تخبرها ختام بأمر سيزعجها، فقد كانت خولة على علم بأن الملاك سيتقدم لخطبتها، فكان كل ما يقلقها هو أن يفوتها قطار الزواج، أمسكت خولة بكتف ختام وأبعدتها وهي تنظر إليها، وتنتظر منها أن تكمل كلامها، عاد صوت الفحيح يغزو مسامع ختام من جديد، ومن شدته وضعت يدها على أذنها ما لفت انتباه خولة، فأمسكت بيدها وهي تصرخ بها: «ما بالك؟ ماذا يحدث معك؟» فقالت لها ختام وهي تصرخ بذعر: «هناك ثعبان في الغرفة وتحت الشجرة وتحت السرير، وفي كل أرجاء البيت، إنه يعيش معي في كل مكان أسمعه، هناك ثعبان، أنا أسمع فحيحه منذ فترة طويلة ألا تسمعونه؟» ثم أخذت تجهش في البكاء واضعة رأسها على كتف خولة مجددًا.

أصابت خولة حيرة شديدة وأخذت تنظر بعينيها هنا وهناك في أرجاء الغرفة، وهي تمسد كتف ختام وعانقتها قائلة: «لقد تكرر هذا الأمر كثيرًا، لا بد من أن تذهبي لأحد الشيوخ لرقيتك، علَّه يخبركِ بأمر هذه الثعابين»، هزَّت ختام رأسها بالقبول فأكملت خولة قائلة: «إذن سنذهب غدًا صباحًا أنا وأنتِ لقرية سفارين، لقد أخبرتني صديقتي وجدان بأن هناك داية تقرأ القرآن، وتجلب الحظ السعيد به إلى البنات، علَّها تعرف بالقرآن ما يجري معك».

في اليوم التالي، وبعد أن أنهت ختام ما طُلب منها من أعمال في البيت دخلت غرفتها، وأشارت

لخولة للاستعداد للذهاب إلى الداية، ارتدت ملابسها ووقفت تسرح شعرها أمام المرآة، بادئ الأمر كانت تنظر إلى وجهها حتى لفت انتباهها شيء ما أسفل السرير بانعكاسه على المرآة، ألقت المشط من يدها وعلى الفور نزلت على ركبتها أمام السرير تنظر تحته، ثم أخذت تصرخ وتنتفض: «ثعبان، ثعبان»، ركضت خولة باتجاهها، اقتربت منها ورفعتها عن الأرض، وقالت لها: «اهدئي سأتابع الأمر»، وقفت ختام على مقربة من خولة التي كانت تجلس على ركبتيها أمام السرير، وقد أمسكت بعصا صغيرة بيدها تحاول البحث عمَّا رأته ختام التي كانت تقف وصوت نفسها يعلو أكثر فأكثر، نهضت خولة وهي ممسكة بالعصا بيدها، واقتربت من ختام وأمسكت كفها اليمنى وضربتها بالعصا ممازحة إياها قائلة: «أين هو الثعبان؟ لم أرَ شيئًا، هيَّا استعدي سنذهب الآن ونعرف حقيقة الأمر».

توجهت ختام وخولة إلى محطة حافلات القرية ومنها إلى سفارين، وما إن وصلتا إلى هناك حتى أخذت خولة تسأل المارة عن بيت الداية التي تقرأ القرآن، وقد أشاروا لها إلى مكان بيتها، لم تنطق ختام بكلمة واحدة منذ أن رأت الثعبان صباحًا، بل كانت تتبع شقيقتها فقط.

تقدمت خولة أمام ختام وطرقت الباب، لتفتح لها امرأة كبيرة في السن ترتدي ثوبًا أخضر اللون منقوشًا بورد أبيض يسطع وجهها نورًا، فكانت في جمالها أشبه بالملائكة منها بالبشر، إلا أن ختام لم ترَ ما رأته خولة من حُسن هذه الداية، لقد رأت وجه نفيسة فارتسمت على وجهها علامات رعب، كانت خولة مندهشة من تصرفات ختام، فهي تسحبها من يدها كطفلة صغيرة، بدا عليها الخوف والذعر، أخبرت الداية بما ترى ختام وتسمع، فأمسكت بيدها وسألتها مرارًا وتكرارًا عن أمر ما ترى إلا أن ختام لم تكن على ما يرام، كل ما في الأمر أنها ترى نفيسة، وجه نفيسة، إنها تقف أمامها متمثلة بهذه الداية، أجلستها بالقرب منها ووضعت يدها اليمنى على كتفها، وهي تنظر إلى وجهها، أما ختام فكانت تحدق بها مذعورة، بدأت الداية بقراءة القرآن.. آيات مختارة، وشيئًا فشيئًا بدأت تتلاشى صورة نفيسة من أمامها، ورأت وجه الداية مبتسمة لها تتلو الآيات بصوت عذب، فانحدرت الدموع على وجه ختام، وأخذت تشعر براحة تتسلل شيئًا فشيئًا إلى جسدها، إلا أن الأمر انعكس بالسلب على الداية التي أخذت تشعر بثقل غريب في يدها، فأنزلتها عن كتف ختام، وبدأت تتثاءب بشكل متكرر فأوقفت القراءة، وابتسمت لختام قائلة لها: «أنتِ بخير يا بنتي، حفظكِ الله من شر حاسدٍ إذا حسد».

كانت خولة تجلس في الخارج تنتظرهما، حين خرجت الداية من الغرفة، اختلفت ملامح وجهها وبدا لونها مخطوفًا ما أدهش خولة، اقتربت خولة منهما، كانت الداية تمشي بتثاقل ممسكة بيد ختام

التي أصبحت أحسن حالًا ممَّا كانت عليه، فتنهدت خولة فرحًا بسلامة شقيقتها، وقد أخبرتهما الداية بأن ما تمر به ختام ما هو إلا عين وحسد، وظلت ختام مدة ثلاثة أيام بعدها لا ترى أو تسمع شيئًا، لكن ما أدهشهما هو ما أخبرتهما به وجدان أن المرأة فارقت الحياة قبل يوم واحد، أي بعد زيارتهما لها بيوم، تيبست ملامحهما وأخذت كلٌّ منهما تنظر للأخرى نظرة رعب، ولم تنطقا من فرط فزعهما، وفي تلك الليلة تسلل الثعبان مجددًا نحو ختام وبعث الذعر من جديد في داخلها، إلا أنها حاولت جاهدة أن تنكر الأمر والتفَّت بملاءتها محاولة تجاهل الفحيح.

حين أنهى الملاك دراسته الجامعية قرر والده على أثر ذلك أن يتقاعد من العمل ويستقر في القرية، وقد جلس مع الملاك على المصطبة في ساحة منزلهم، حيث كان ذلك في بداية شهر إبريل، وقد كانت ساحة منزلهم آنذاك بلا سقف، فبدت السماء من فوقهما صافية تتوسطها الشمس بأشعتها التي تبعث النور والدفء، كانت والدته تُعد طعام الغداء، فقد فرغوا للتو من الفطور، بدأ والده حديثه موضحًا رغبته بأن يستثمر أتعابه من نهاية خدمته في الكويت، فقال له: «أود أن أحول أحد مخازن بيتنا إلى دكان لبيع بعض المستلزمات المنزلية لأهالي القرية»، فقد كان يملك مخيلة تجارية واسعة وأسلوبًا وقورًا محببًا، دفعه للتفكير في أمر الدكان بتشجيع ممَّن حوله من أصدقائه، وأتبع: «وأريد أيضًا تزويجك يا ملاك».

في تلك الأثناء شعر الملاك بسعادة بالغة ظهرت واضحة في لمعة عينيه إلا أنه قال: «فكرة جيدة يا أبي، وإن وقع اختيارك على المخزن الرئيسي المطل على الشارع، فمن المتوقع أن تحقق أرباحًا كثيرة»، ثم سكت لبرهة وأتبع قائلًا: «سأساعدك يا أبي ليكون لك مشروعك الخاص». نظر إليه والده نظرة تعجب ثم قال: «وما رأيك بفكرة الزواج؟» عادت السعادة تقفز في قلب الملاك من جديد وقال: «كما تريد يا أبي».

قطع حديثهما قدوم والدته، وقد أحضرت الشاي الذي أعدته بأوراق الزعتر البري الذي يسمونه «زعتر البلاط» والذي كانت رائحته تفوح في كل مكان، وضعته على طاولة صغيرة أمام المصطبة فقال لها زوجها: «اجلسي وشاركينا الحديث». فما كان منها إلا أن سكبت الشاي في الأكواب وقدمته لهما، وجلست على بساط أرضي مقابل المصطبة.

قال الملاك ممازحًا والدته: «أخيرًا والدي قرر أن يزوجني»، ثم صمت الجميع لوهلة، فاختلق هو ابتسامة خجولة، ورسمها على شفتيه، عمَّ الصمت المكان وكأن الجميع يفكر بالمجهول الآتي، حتى نظر إليه والده نظرة حازمة قائلًا له: «ما رأيك بابنة عمتك نفيسة؟» تلعثم الملاك وبدت على وجهه الدهشة، وقبل أن يجيب جاء صوت والدته بغضب: «إلا هذه، أنا لا أحبها ولا أحب

والدتها».

«ولكن البنت لا ذنب لها ونحن نعرفها ونعرف أخلاقها جيدًا»، قال والده هذه الجملة واكتفى بالتحديق في عيني الملاك الذي لم ينتظر طويلًا قبل أن يفصح عمًّا في قلبه، وقد بدا عليه الانزعاج، ثم أردف قائلًا: «ختام يا أبي، أريد ختام أن تكون زوجتي»، عمَّ السكون والسلام وجه والديه ما أظهر القبول والرضا، فقد كان كلاهما يحب ختام، وعلى الفور قال والده: «ونعم الاختيار»، ونظر نحو زوجته وأتبع: «إذن حددي موعدًا مع أختك لنطلب منهم يد ختام»، في تلك الأثناء تجلت فرحة مجنونة في عيني الملاك، قفز ببراءة لم يتوقعها والداه، حيث توجَّه نحو غرفته ليبدل ثيابه، وعاد حيث يجلس والده وقال له: «هيَّا بنا نخطط لمشروعك». خرج الملاك مع والده، أما والدته فقد توجهت نحو المطبخ فزعة، فقد سمعت صوت شيءٍ يتكسر في المطبخ، أخذت تبحث حولها لكنها لم تجد شيئًا.

لم يمر الموضوع مرور الكرام، فقد وصل إلى مسامع نفيسة عمة الملاك أن أخاها يبحث لابنه الملاك عن عروس، وأنه عرض عليه الزواج من ابنتها، وهذا ما تحلم به نفيسة إلا أنه لم يكن، فقد علمت أن الملاك يرغب في الزواج من ابنة خالته، ما أشعل نيران غضبها، وبدأت تخطط لإفساد ما تستطيع إفساده. أما والدة الملاك فقد أنهت طعام الغداء وتوجهت نحو بيت شقيقتها أم فريد، كانت تشعر بفرح لا يضاهيه فرح، فابنها الأكبر والأغلى على قلبها سيتزوج ويصبح أبًا وتصبح هي جدة، أخذت تفكر بلهفة وسعادة طوال الطريق إلى بيت شقيقتها، وقبل أن تصل إلى بيت أم فريد بأميال قليلة تسمرت بمكانها فجأة، فقد رأت نفيسة عمة الملاك مقبلة باتجاهها والشر يلمع في عينيها، وبدا واضحًا على ملامح وجهها وعقدت جبينها، رمقت أم الملاك بنظرة حقد دفين بدت خلالها عيناها بلون الدم، اقتربت منها وهمست في أذنها قائلة: «لن يمر هذا الأمر بسلام».

تسمرت أم الملاك في مكانها ترتجف من الخوف، فقد بدا لها وجه نفيسة كوجه وحش أسود قبيح، نظرت إلى الخلف لتتأكد من صحة ما رأت وما سمعت، فلم ترَ أحدًا في الخلف، ظلت بلا حراك قرابة خمس دقائق، فقدت خلالها الشعور بحواسها وقدمها، وأحست فجأة بدوار مفاجئ، وأخذت تفكر هل كانت تحلم أم إنها رأت نفيسة حقًّا؟ وإن رأتها حقًّا فماذا قصدت بكلامها؟ سحبت نفسًا عميقًا من الهواء وأكملت طريقها إلى بيت أم فريد حيث أرادت أن تخبر شقيقتها برغبة الملاك في الزواج من ابنتها، وليحددا معًا موعدًا لزيارتهم وطلبها رسميًّا، لم تكن علاقة أم الملاك بنفيسة جيدة منذ أن تزوجت أخاها، فقد كانت دائمًا تجلب المشاكل لها، وكثيرًا ما تسببت بشجارات مستمرة بينها وبين زوجها.

كان الخوف قد سيطر على أم الملاك، شعور بعدم الراحة، فكلمات نفيسة تتكرر في عقلها دون توقف، في تلك الأثناء كانت ختام تجلس في ساحة بيتهم مع صديقتها، وقد لمحت نفيسة قبل دقائق من رؤيتها لأم الملاك أعلى المنحدر الذي يؤدي إلى بيتهم، وما إن رأتها حتى ابتسمت ختام لها، ومع رؤية أم الملاك لابتسامة ختام العذبة نفضت غبار الخوف الذي سيطر عليها مذ رأت نفيسة، نزلت من الطريق المنحدرة المؤدية للبيت حيث تقف ختام، كان لونها مخطوفًا وخطواتها غير متزنة، كان كل ما يشغل بال ختام هو الحال الذي بدت عليه أم الملاك، فلم تكن على طبيعتها وكأن شيئًا ما أفزعها، فأخذت تحادث نفسها: «لا بد من أن خالتي التقت بنفيسة في الطريق»، اقتربت أم الملاك من ختام وعانقتها بحرارة استغربتها ختام، فلم يحدث أن لقيت منها مثل هذا العناق ومثل هذه اللهفة، فقد عُرف عنها جفاؤها، أما أم الملاك فقد ظلت مشاعر الخوف تسيطر عليها، ولم تخبر أحدًا بما رأت وسمعت.

***

بعد أن تقدم الملاك لخطبة ختام، وتم الاتفاق بين والديهما على ترتيبات الزواج، جاء يوم عقد قرانهما، استيقظ الملاك باكرًا وتوجَّه نحو مدينة طولكرم ليحضر الشيخ (المأذون)، أما والده ووالدته فقد سبقاه إلى بيت أم فريد، كانت ختام ما زالت على سريرها توهم شقيقاتها أنها نائمة إلا أن كابوسًا مزعجًا حال دون صفو يومها، طلبت والدتها من خولة إيقاظها فاتجهت خولة نحوها وجلست على طرف السرير، وقالت لها: «أعلم أنكِ مستيقظة». ردت ختام: «نعم أنا مستيقظة»، فقالت لها: «إذن لماذا لم تنهضي وتساعديني قبل مجيء الملاك والشيخ؟» قالت لها وقد بدا على وجهها الشحوب والاصفرار: «لقد رأيت حلمًا مزعجًا يا خولة»، لم تكن خولة سعيدة بزواج ختام، فهي الأقرب لها وكانت تؤذيها فكرة أن تسبقها بالزواج كونها الأكبر سنًّا، إلا أنها لا شك تحبها جدًّا، نظرت إلى وجهها وقالت لها: «ما بالكِ أنتِ لا تبدين على ما يرام؟» عانقتها وأخذت ختام بالبكاء، سألتها خولة: «ماذا رأيتِ في المنام؟» أرادت ختام أن تخبرها برؤيتها لثعابين سوداء، تلتف من حولها في غرفة مظلمة وهي تحاول الفرار منها، لكنها لم تقُل شيئًا، فقد عادت لترى وجه نفيسة يرتسم أمامها مسببًا لها الذعر، ممسكًا لسانها ليمنعها من النطق، قطع حديث خولة صوت أم فريد تنادي: «ختام، ختام، هل انتهيتِ من تجهيز نفسك؟» فنهضت خولة ممسكة بيد ختام وأخذت تساعدها في تجهيز نفسها.

بعد نصف ساعة، توجهت ختام تتقدمها خولة نحو غرفة الضيوف حيث حضر الملاك ومعه

الشيخ، كانت ترتدي حينها ثوبًا أزرق سماويًّا طويلًا، جلست بجانب والدها وبدأ الشيخ بالحديث، ظلت علامات الاضطراب والقلق بادية على وجه ختام، ما جعل الملاك يظنها مرتبكة من الموقف وتريد إتمام عقد القران بسلام، لكن وجه نفيسة ظل يرافقها طوال هذا اليوم، فشعرت كأنها وحش يريد أذيتها، وظلت تستعيذ بالله منها، بدأ الشيخ بإجراءات عقد القران وطرح الأسئلة عليهما وعلى والديهما، وجاءت اللحظة التي سيضع الملاك كفه اليمنى بكف والدها: «زوجني ابنتك ختام على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى الصداق المسمى بيننا». وما إن أنهى الملاك كلماته حتى أخذت ختام تصرخ في مكانها مذعورة، وكأنها ترى حريقًا في غرفتها حيث صرخت قائلة: «حريق حريق، غرفتنا تحترق»، فهرع الجميع نحو غرفتها، لكن لا أثر لحريق، أخذت أم الملاك ختام إلى الصالة وبدأت تقرأ عليها القرآن، أما الملاك فقد أصابه الخوف جراء ما بدا من ختام، وأوقف الشيخ إجراءات عقد الزواج إلى حين عودة ختام.

أخذت أم الملاك تحاول جاهدة مع ختام لمعرفة ما بها إلا أنها لم تنطق أبدًا، ظلت تردد آيات قرآنية علها تخفف من الفزع الذي بدا على ملامح وجهها، وطلبت منها أن تتوضأ وتصلي ركعتين لله تعالى.

مضى وقت طويل قبل إتمام إجراءات عقد القران، بارك الجميع لهما وغادر والدا الملاك بيت أبي فريد، أما الملاك فقد توجَّه إلى مدينة طولكرم ليُعيد الشيخ من حيث أحضره، وقد ظل طوال الوقت قلقًا على ختام يفكر بأمرها، وما إن عاد إلى القرية حتى توجَّه على الفور نحو بيتها، لكن خولة أخبرته بأنها نامت، فعاد إلى بيته ينتظر الصباح لرؤيتها.

ظلت ختام تلك الليلة مستيقظة خائفة من النوم، أحسَّت بأن شيئًا ما يربط لسانها، أخذت تفكر بالحريق الذي بدا لها واضحًا واشتمت رائحته، ماذا عساه أن يكون؟ وتذكرت الثعابين التي رأتها في منامها، أخذت تردد الأدعية التي أخبرتها بها أم الملاك، توضأت وأخذت تصلي وتناجي الله أن يخفف عنها ما تشعر به، ويكشف عنها هذا الضيق، مر هذا اليوم وأجمل ما حمله هو ارتباطها به وتتويج حبهما، وفي اليوم التالي جلسا سويًّا واتفقا على موعد الزواج، وأبلغ الملاك والديه بذلك واتفقوا معًا على تفاصيل حفلة الزواج.

كان زواج الملاك وختام في فصل الصيف، تحديدًا في الأول من شهر أغسطس عام 1974، كان الجو شديد الحرارة في ذلك اليوم، وقد مرت كافة التجهيزات لحفلة الزواج على أكمل وجه إلا أن الجميع كان يجهل ما تقوم به نفيسة أثناء حفل الزواج، حيث استغلت انشغال الجميع وخرجت من ساحة بيت أبي الملاك حيث تُقام مراسم الحفل، وتوجهت نحو حديقة البيت، غابت هناك مدة

ربع ساعة وعادت مرة أخرى بين الحضور تطلق الزغاريد وتشارك النسوة بالرقص، وتدندن معهن الأغاني التراثية، وبدت في غاية السعادة ما أثار مخاوف أم الملاك التي عادت وتذكرت ما حدث، وأخذت الكلمات التي نطقت بها تتردد في ذهنها، ولم تكن مطمئنة لوجودها، بل كانت طوال الوقت تتوجَّه بالدعاء لرب العالمين بأن يرد كيدها في نحرها وتمر الأمور على ما يرام.

كانت ختام في هذا اليوم قلقة متوترة جدًّا، فكل ما يشغل بالها هو شقيقتها خولة التي أثارت ضجة في هذا اليوم، وكأنها تحاول لفت النظر إليها، لقد كانت خولة حزينة على فراق ختام، فقد اعتادت أن تكون معها وترافقها في كل شيء، فهي توأم روحها، اعتادت على رفقتها وحديثها الذي كان بالنسبة لها الارتياح والرضا، وما زاد من حزنها أنها الأكبر سنًّا، فقلقت من أن يفوتها قطار الزواج.

في هذا اليوم، يوم زفاف ختام، رافقها فحيح الثعابين بلا توقف، ما اضطرها إلى تكرار السؤال لمَن حولها، عمَّا إذا كانوا يسمعون شيئًا، فكان الجميع يجيبون بالنفي، ولعل صراخ شقيقتها نجوى في هذا اليوم لرؤيتها أفعى كبيرة كان بالنسبة لها كجرس إنذار ينبهها إلى أن هناك كارثة على وشك الوقوع، إضافة إلى وجود نفيسة عمة الملاك الذي كان وجودها يخيفها، ولم تكن تعلم سبب ذلك الخوف الذي كان يعتريها حين تنظر إليها، فعلى الرغم من أن نفيسة كانت تصفق مع النساء وترقص وتدندن معهن، إلا أن قسوة ملامح وجهها كانت ترعب ختام كثيرًا، وظلت تحاول طوال العرس تجنب النظر إليها، كان الملاك في قمة سعادته، فاليوم تتحقق أمنيته في الزواج من حبيبته، لم يكن مهتمًّا بأمر أحد ولا يعلم شيئًا عمَّا يدور من حوله.

انتهى حفل الزواج وعاد الجميع إلى منازلهم، وقد بدأت ختام مشوار حياتها مع الملاك، ولم تكن تعلم أن نفيسة ستظل تلاحقها وسيسكن أتباعها طيات حياتها ويتحكمون بها.

في بداية حياتهما الزوجية، عاش الملاك وختام في بيت عائلة الملاك في غرفة صغيرة تطل نافذتها على حديقة واسعة محاطة بأشجار سرو بطول عشرة أمتار تقريبًا، تغطي واجهة كاملة من أسوار الحديقة، وشجرة تين مثمرة على مدار العام، ثمارها باللون الأرجواني ومذاقها لذيذ، وبها بئر قديمة تقع خلف غرفة نوم الملاك أسفل النافذة، وكانوا يستخدمون مياهها لصنع الشاي.

في أول ليلة لهما سويًّا، دخلا غرفتهما في بيت أبي الملاك، كانت متمسكة بذراعه بقوة، فسحب يدها وقبلها، وهو ينظر لوجهها الذي اكتسى بالحمرة، وأخذ يردد: «أخيرًا أصبحتِ زوجتي وملكي وملكتي»، ثم عانقها وهو يمرر أصابعه في خصلات شعرها ليدب الهدوء والطمأنينة في قلبها

مؤقتًا، كان يدرك جيدًا أنها منهكة من التعب، فساعدها في تبديل ملابسها وإزالة المكياج عن وجهها، واستعدا للنوم، فقد كان هو الآخر يشعر بتعب شديد، استلقيا على سريرهما يتحدثان وهي واضعة رأسها على كتفه إلى أن تمكن منه النعاس، وغط في نوم عميق، أما ختام فظلت مستيقظة لا تستطيع النوم، فقد عادت تسمع فحيح الثعابين، إلا أن الصوت بدا لها أقرب من ذي قبل، وكأن الثعبان قابع تحت السرير، ولكن شدة التعب وجسدها المنهك منعها من البحث عن مصدر الصوت، فظلت في مكانها، ولوهلة هدأ الصوت، ليحل محله صوت ارتطام زجاج، زجاج النوافذ والمرايا في الغرفة يتهشم على الأرض، نهضت من سريرها، وضعت قدمها على الأرض، ونظرت إلى الأسفل لتجد أرضية الغرفة مليئة بقطع الزجاج، وثعابين سوداء من فوقها، صرخت بأعلى صوتها قبل أن يضع الملاك يده على كتفها وتستيقظ مفزوعة، وقد قدَّم لها الملاك كأسًا من الماء وقال لها: «استعيذي بالله، أعتقد أنكِ متعبة جدًّا»، لم تسمع ما قاله بل نظرت يمينها على الفور باتجاه الأرض، ثم نظرت أمامها باتجاه المرآة، ومن ثمَّ نظرت خلفها على النافذة، كل شيءٍ في مكانه، لا المرآة مهشمة ولا الأرض امتلأت بفتات الزجاج ولا أثر للثعابين، إذن هو كابوس، أخذت تحدث نفسها قائلة: «يا له من كابوس مزعج!» أخذت نفسًا عميقًا ونظرت نحو الملاك الذي لا يكاد يرى أمامه أو يسمع شيئًا ممَّا قالته من شدة التعب، فعاد للنوم.

في اليوم التالي من حفل زواجهما كان الملاك قد أعد لختام مفاجأة، حيث سيأخذها لقضاء شهر العسل في مدينة بيروت، كانت المرة الأولى التي تغادر بها ختام فلسطين، كانت مشاعر الفرح واللهفة تملأ قلبها، وقبل مغادرتها القرية ذهبت إلى بيت أهلها، وكان هو برفقتها، وما إن وصلت إلى أعلى الطريق المنحدرة لبيتهم حتى رأت والدتها تجلس على المصطبة قرب البئر، وحين لمحتها وقفت بلهفة لمعانقتها وهي تردد: «ختام حبيبتي غَدَا البيت مظلمًا بعد رحيلكِ عنه»، عانقتها وانهمرت الدموع، وأقبلت جميع شقيقاتها من داخل البيت، والتففن من حولها والملاك يقف بالخلف منهن، لم تكن ختام كائنًا عابرًا في هذه الحياة، بل كانت ذات أثر جميل، فأينما تكون تحل البهجة والفرحة، أحضرت شقيقة ختام الصغرى المقاعد الخشبية من الداخل ووضعتها أمام المصطبة للجلوس، جلس الجميع ملتفًّا حول ختام، يسألنها سؤالًا تلو الآخر، وأخذن يحدثنها عن جمالها يوم عرسها، وكيف بدت في غاية الروعة، ختام تستمع لهن وهي تجلس على المصطبة بالقرب من والدتها، وقد أمسكت بيديها، أما الملاك فقد تركهن ودخل إلى البيت متوجهًا نحو شجرة الخروب، وما هي إلا دقائق حتى داهمها شعور مباغت مرافق لوقوع نظرها على شقيقاتها، وكأنها تذكرت أمرًا ما، نهضت من مكانها وتوجهت نحو غرفتها، وما إن فتحت باب الغرفة حتى وجدت شقيقتها

خولة تقف أمام النافذة المفتوحة، وما إن سمعت صوت الباب يُفتح حتى التفتت إلى الخلف لتجد ختام تقف مبتسمة، فأقبلت عليها تعانقها بحفاوة، وجلسا يتحدثان سويًّا بعض الوقت إلى أن جاء صوت والدها ينادي عليها: «ختام ابنتي حبيبتي، أين أنت؟» فتحركت على الفور متوجهة نحو والدها لمعانقته، وقد انهمرت دموع والدها، وليس بالأمر الجديد عليه، فقد كان أبو فريد كلما زوَّج واحدة من بناته تنتابه حالة حزن شديدة على فراقها، قضت هذا اليوم مع عائلتها تودعهم قبل مغادرتها للقرية وفلسطين.

كانت الشمس قد بدأت بالغروب، والظلام خيم تمامًا على القرية، كانت شقيقتها خولة وشقيقها حسين بصحبتها متوجهين بها إلى بيت أبي الملاك حيث تقيم، الكل يسير في صمتٍ قطعه صراخ ختام، حيث أبصرت ثعبانًا أسود ضخمًا، قفزت على أثره قفزة قوية وأخذت تصرخ بأعلى صوتها: «ثعبان، ثعبان»، لقد زحف من أمامهم على بُعد أميال قليلة متوجهًا من يمين الطريق إلى يساره وقد شاهده مَن معها، وقفت خولة وحسين وأمسكوا بيد ختام التي توقفت فجأة، وظلت تنظر حيث اختبأ الثعبان، أخذت نفسًا عميقًا مسموعًا تبعته تنهيدة قوية وهي تهز رأسها، ثم قالت: «يا ألله كم هو مخيف؟! ما زلت أسمع صوته».

أكملوا طريقهم وأثناء سيرهم سألتها خولة: «ماذا بكِ يا ختام؟ لماذا صرختِ بهذا الشكل؟ إنه بعيد جدًّا».

لم تُجب ختام عن سؤالها، بل ظلت واقفة تحدق بها، فاقتربت منها خولة وسحبت يدها المرتعشة لتُكملا سيرهما، وسألتها: «ما بالكِ؟ هل أنتِ بخير؟» فأجابتها ختام: «أنا بخير، لا تقلقي، فقط ارتعبت من الثعبان لا أكثر».

وظلت طوال الطريق تحدث نفسها، يعتريها الخوف والقلق وتتبادر إلى ذهنها العديد من الأسئلة.

في صباح اليوم التالي ودَّع الملاك وختام الجميع قبل أن تنطلق بهما السيارة متوجهة نحو لبنان حيث سيقضيان أسبوعين من الزمن فيها، لم تكن بيروت غريبة على الملاك، فقد كان يتردد عليها مدة أربع سنوات متتالية خلال فترة دراسته الجامعية، حين وصلا إلى مكان إقامتهما في فندق وسط العاصمة بيروت، وبعد أن أمضى الملاك وقتًا في إتمام إجراءات المبيت أسبوعين، صعدا إلى غرفتهما، كانت شرفتها تُطل على البحر، أقفل باب الغرفة ووضع الحقائب على الأرض، أما هي فتوجهت نحو الشرفة تقف أمامها، سحبت شهيقًا مسموعًا وهتفت بلهجة لاهثة: «يا له من منظر يسحر القلوب ويخلب الأفئدة»، ثم جلست على حافة السرير، أخذت تجول ببصرها في أرجاء

الغرفة، ثم نظرت إلى الملاك وهو يقف أمامها ممسكًا ببعض الأوراق الخاصة بالفندق ويتأكد من استلامه لكافة أوراقه، نظر إليها مبتسمًا، كان يحاول جاهدًا طمأنتها، فقد بدا له أنها خائفة ومرتبكة، كان كل ما يقلقها هو غياب صوت فحيح الثعابين حتى اللحظة، فكانت تحاول جاهدة البحث عنه بعد أن اعتادت عليه، إلا أن كل ما تسمعه هو نبضات الملاك وأنفاسه، نظرت إليه، إنه هو الملاك، أخذت تتفحص ملامحه وتتذكر كيف كانت تراه شخصًا آخر كلما اقترب منها، بدا لها رجلًا أسود بلا ملامح، إلا أنها الآن تراه فعلًا، إنه هو، رغبت في عناقه خاصة بعد أن تأكدت أنه لا أثر للثعابين ولا لصوتها، وما إن مرت هذه الأفكار برأسها حتى شعرت بثقل بقدميها، حاولت تجاهل الأمر ونهضت من مكانها فاقترب منها وهو يضحك مطوقًا كتفها بيديه، نظر بعينيها وقال لها ضاحكًا: «ما بالكِ تتصرفين كطالبة مدرسة في المرحلة الإعدادية»، لم تجبه بل كانت تنظر لعينيه تبحث عن الأمان، خفق قلبها بجنون، لم تستطع عيناها أن تقاوم جمال عينيه، أخذ كلاهما يتأمل الآخر وبكل رقة أخذ وجهها بين كفيه وهو يهمس لها: «أنتِ جميلة، جميلة جدًّا»، ثم عانقها بدفء.

بعد أن أنهيا استحمامهما كان هو قد سبقها وجلس في شرفة الغرفة ينتظرها وقد طلب لها كأسًا من الشاي، حين خرجت من الحمَّام كانت تشعر بخجلٍ شديدٍ ممَّا جرى بينهما رغم سعادتها به، وعلى الفور سألها: «هل أنتِ بخير؟» نظرت إليه نظرة خاطفة وابتسمت للتخفيف من الاضطراب والخجل الذي بدا عليها، فأكمل قائلًا: «تعالي اجلسي بجانبي واشربي الشاي».

***

رغم أن الشمس كانت ملتهبة في نهار بيروت، إلا أن الجو كان لطيفًا خاصة في المساء، وقد كان الملاك يعرف طرق وأزقة شوارعها كلها، بل يحفظها غيبًا، ويختار طرقًا قريبة ومجاورة للسوق المركزي لا تبعد كثيرًا عن مكان إقامتهما، كانت بيروت في ذلك الوقت مدينة الثقافة والفن وواحة للجمال والمتعة، وكان لها مكان خاص في قلبه، أخذها إلى جامعته وسار معها في شوارع بيروت وشاهدت صخرة الروشة ومغارة جعيتا، واستمتعت بمنظر البحر الذي كانت تراه أمامها لأول مرة في حياتها.

انقضى أول أسبوع لهما في بيروت، كانت ختام في تلك الفترة قد استعادت نفسها من جديد، فلم تسمع طوال هذا الأسبوع فحيح الثعابين، ولم تشاهد الكوابيس، بل كانت في أحسن حال، وقبل أن يجددا إقامتهما في الفندق ليومٍ آخر، حدث أمر دفعه للعودة إلى القرية، ففي مساء أحد الأيام وبعد

أن عاد إلى الفندق هو وختام أراد أن يطمئن على أهله ويُطمئنهم على أحواله، وكذلك الحال مع أهلها، لم تكن في ذلك الوقت الهواتف متوفرة لدى الجميع، بل كان في القرية أحد السكان الذين يمتلكون هاتفًا بالأجرة، فاتصل عليه الملاك في الصباح وحدَّد معه وقتًا ليُخبر والده للقدوم ومحادثته، واتصل الملاك في الوقت المحدد فجاء صوت والده على الطرف الآخر:

- مرحبًا الملاك، كيف حالك؟

- مساء الخير يا أبي، كيف حالك؟ كيف حال أمي وأشقائي وشقيقاتي؟

- نحن جميعنا بخير، الحمد لله، كيف حالك؟ وكيف حال ختام؟ هل أنتما مستمتعان في بيروت؟

- نعم الحمد لله.

وأخذ يُعدِّد له الأماكن التي زارها هو وختام، ثم سكت لبرهة، فقد أحسَّ بأن صوت والده ليس على ما يرام، فسأله:

- كيف حال والدتي؟ وكيف حال خالتي أم فريد وعمي أبي فريد؟

- الجميع بخير لا تقلق، استمتعا بإقامتكما في بيروت، ونحن ننتظر قدومكما بفارغ الصبر.

أغلق الملاك الهاتف، ولكنه شعر بعدم ارتياح، فهو يعلم والده جيدًا ويركز عادة في أجوبته وصوته الذي بدا أنه يخفي أمرًا ما، ومنذ تلك اللحظة ظل باله مشغولًا وقرر العودة إلى القرية دون أن يتحدث إلى ختام في الأمر، والتي أحسَّت بأن شيئًا ما يحدث، وسألته وكررت السؤال ولكن كان جوابه في كل مرة: «لا شيء، الأمور تسير على ما يرام».

في اليوم التالي استيقظ الملاك باكرًا، وكانت هي لا تزال نائمة، جهز الحقائب ووضعها أمام باب الغرفة بعد أن أنهى حجزهما ودفع مستحقات إقامتهما، وصعد إلى الغرفة وجلس بجانبها ينظر إليها، إلى أن أحسَّت به، فتحت عينيها لتجده يقف أمام المرآة وقد ارتدى ملابس الخروج، فسألته في دهشة: «إلى أين تود الذهاب يا حبيبي؟»

اقترب الملاك منها وأمسك يدها وابتسم لها قائلًا: «سنعود إلى القرية الآن، والسيارة التي ستوصلنا إلى هناك تنتظرنا في الخارج».

قال هذا وقد وقف مستعدًّا للخروج، نهضت هي من السرير وقد بدت عليها علامات الارتباك، وقالت له: «إذن أنت تخفي عني أمرًا ما، لقد سألتك مرارًا: ماذا حدث؟ ماذا بك؟ هل حدث مكروه لأحد في القرية؟»

قاطعها قائلًا: «لا تخافي، الجميع بخير، سأنتظركِ في قاعة الاستقبال الرئيسية». قال هذا وأغلق الباب خلفه، أما هي فبدأت بالبكاء، فهي لا تعلم لماذا يتصرف معها بهذا الشكل، ولم تُدرك ذلك إلا مع العشرة وبعد مرور سنوات وسنوات، فهو بطبعه قليل الكلام كتوم، ولعله لا يفضل أن يخبر أيًّا كان ما يفكر به أو ما ينوي فعله.

ارتدت ملابس الخروج، وعلى الفور لحقت به وركبا السيارة التي كانت تنتظرهما في الخارج، وتوجها نحو القرية.

كان الطريق من مدينة بيروت إلى القرية يستغرق ست ساعات، مرَّا خلالها بالحدود اللبنانية والحدود السورية والحدود الأردنية وصولًا إلى جسر الملك حسين، ثم أريحا إحدى مدن فلسطين ومنها إلى القرية، وصلت السيارة التي تقلهما إلى باب بيت أبي الملاك حيث سيقيمان مؤقتًا، فقد كانا يخططان منذ خطبتهما لأن يعملا خارج القرية، بحثًا عن فرصة عمل ومستوى معيشي أفضل، وكأي شاب كان لديه طموحات وأحلام كبيرة.

لم يكن في البيت أحد، أخذ ينادي بأسماء أشقائه الواحد تلو الآخر وما من مجيب، ما زاد قلق الملاك، فأوصل الحقائب إلى الغرفة تتبعه ختام، نظر إليها وقد بدا على غير عادته، وقال لها: «سأذهب إلى مركز القرية بعض الوقت وأعود». ظلت تنظر إليه مندهشة من تصرفاته، فقد ظل طوال طريق عودتهما صامتًا رغم إلحاحها بالسؤال عمَّا حدث، ولعله كان محقًّا في صمته، فهي مجرد أحاسيس تكونت لديه بعد حديثه مع والده، فلم يكن يعلم ما جرى.

جلست ختام على مقربةٍ من السرير، لم تكن على ما يرام، فقد انزعجت منه منذ الصباح، فلم يعجبها سكوته وتصرفاته الغامضة.

خرج الملاك يبحث عن شيءٍ ما، لا يعلم ما هو، لكنه يدرك أن أمرًا ما قد حدث، كان الجو غائمًا والسكون عمَّ المكان، توجَّه من بيتهم باتجاه الغرب حيث منزل أبي فريد، الشوارع خالية من المارة، وساعة يده تشير إلى الرابعة عصرًا، ما إن وصل إلى مسجد القرية الذي يقع على يمين الطريق حتى رأى جموعًا من المشيعين يحملون نعشًا يتقدمهم والده وزوج عمته وأشقاؤه وأبناء عمته فأسرع نحوهم، وقد فقد السيطرة على أعصابه، ما دفع بعامر أن يتقدمه فزعًا ويسحبه خارج السرب، وقفا على ناصية الطريق والجموع تسير من أمامهم متجهة إلى المقابر التي تقع على الطرف الآخر من الطريق، القلق والخوف بدا واضحًا على وجه الملاك، وهو يرى الجموع قد فتحوا باب المقبرة، أدرك عامر قلق الملاك وسرعان ما وقف أمامه ليُجيب عن التساؤلات التي

بدت واضحة في عينيه، وأثارت حالة من الدهشة على تعابير وجهه: «لقد مات ابن عمتك حازم أمس، وقد فجعنا بالخبر وهم الآن متوجهون لدفنه». وقع الخبر كان قاسيًا على الملاك الذي قال على الفور: «ماذا؟ حازم.. كيف؟ لا حول ولا قوة إلا بالله، كيف لشاب لم يتجاوز عمره الثلاثين عامًا أن يموت هكذا؟ ما السبب؟ وكيف حال عمتي؟ ما وضعها؟» أخذ يطرح سؤالًا تلو الآخر على عامر الذي أجابه قائلًا: «سأخبرك لاحقًا، هيًّا اتبعني».

أمسك عامر بيد الملاك للحاق بجموع المشيعين الذين يحملون النعش ويسيرون داخل أرض المقبرة، متوجهين لدفنه، وعلامات الحزن قد بدت على وجه الجميع من حولهم.

أكملوا مراسم الدفن، وتوجهوا لخيمة العزاء، وهناك أعاد الملاك السؤال على عامر، الذي كان يجلس بالقرب منه، قال له: «ما سبب الوفاة؟ كيف توفي؟ لقد كان يوم حفل زواجي على ما يرام، ماذا حدث؟ ما سبب الوفاة؟»

سكت عامر لبرهة قبل أن يجيبه قائلًا: «لقد انقلب السحر على الساحر»، ثم سكت عن الكلام ونظر إلى الملاك الذي كرر سؤاله بنبرةٍ حازمة: «ماذا حدث؟ ما سبب الوفاة؟»

أجابه عامر بصوتٍ منخفض: «أرادت عمتك أن تتخلص من زوجة حازم، فأعدت لها سحرًا في مشروب، حدث أن احتساه حازم، وسبَّب له مضاعفات أُدخل على أثرها إلى المستشفى، وتوفي على الفور».

ابتسم الملاك ابتسامة ساخرة، وهو ينظر في وجه عامر، وقال له: «ماذا تقول؟ أي سحر هذا؟ وكيف لعمتي أن تفعل هذا بابنها؟ هذا هراء».

أكمل عامر كلامه قائلًا: «هذا ما قاله أبناؤها، وردَّدته زوجة حازم، وأكده الطبيب، الذي أعلن وفاته، لقد تسمَّم حازم والسبب عمتك».

لم يقتنع الملاك بما حدثه به عامر، كيف لأم أن تقتل ولدها؟! وللحظة عاد بذاكرته إلى اليوم الذي ألقت به عمته السكين على شفتيه، وتذكر جملة والدته حين قالت له: «عمتك مجرمة»، أخذ يفكر فيما حدثه عامر، وكيف لعمته أن تكون بهذا الإجرام، قفز بخياله بعيدًا، أي عمل إجرامي هذا الذي يقود أمًّا لإيذاء ولدها، أو إيذاء أحد أيًّا كان لحد القتل؟ هل انعدمت الإنسانية بداخلها إلى هذا الحد؟ أسئلة كثيرة شغلت تفكيره طوال مراسم العزاء.

وما إن حلَّ الليل وانتهت المراسم لليوم الأول، حتى عاد مع والده وشقيقيه إلى البيت، حيث ظل صامتًا طوال الطريق يتبع والده وبجانبه عامر، وشقيقهم عاهد الأصغر منهما يسير خلفهم، وصلوا

إلى البيت، كان الظلام حالكًا، والسكون يعم ساحة البيت، توجَّه والده على الفور نحو المصطبة، وجلس هناك، اقترب منه الملاك وجلس إلى جانبه، وعلى الفور سأله متوسلًا وعلامات الحزن واضحة في عينيه: «أبي أرجوك أخبرني، ماذا حدث؟ كيف توفي حازم؟»

رفع والده رأسه فجأة ونظر إلى أعلى كأنه يخاطب نفسه: «الأعمار بيدِ الله، انتهى أجله رحمه الله وثبته عند السؤال»، ثم نظر إلى الملاك الجالس بجانبه وقال له: «لا أريد الخوض في هذا الحديث».

وقف الملاك، وعلامات الحزن الممزوجة بالدهشة والاستغراب بدت واضحة على وجهه، وقال: «تصبح على خير».

وتوجَّه نحو غرفته حيث كانت ختام لا تزال مستيقظة تنتظره.

كان والد الملاك يعي تمامًا أن شقيقته لها بأعمال وممارسات السحر والشعوذة، لكنه لم يكن ليصدق أن ألاعيبها وشعوذتها قد تمكنت منها بهذا الشكل، وجعلتها تؤذي أقرب الناس لها.

دخل الملاك إلى غرفته حزينًا مطأطئًا رأسه، وجلس على سريره واضعًا يديه فوق رأسه، لم ينظر إليها، إلا أنها كانت على علم بما حدث، اقتربت منه وقبَّلت رأسه قائلة: «رحمه الله، انتهى أجله»، ثم جلست بجانبه وأردفت قائلة: «أصحيح أن عمتك هي مَن تسببت في موته؟» وما إن أكملت جملتها هذه حتى نظر إليها بدهشة متسائلًا: «كيف لأم أن تقتل ولدها؟ كيف لعمتي أن يكون لها علم بالسحر والشعوذة؟ ما هذه الخرافات التي ترددونها؟» وأضاف: «ختام، لا أريد الحديث عمَّا حدث، رحم الله حازم وألهم عمتي وزوجها الصبر على فراقه».

في تلك الليلة نام الجميع، إلا ختام لم يغمض لها جفن، فمنذ دخولها هذه الغرفة وهي تسمع فحيح ثعابين تزحف باتجاهها، وهي قريبة منها جدًّا دون أن تلمح لها أثرًا، ولم تخبر أحدًا بأمر ما تسمع حتى الملاك، ولم يغب وجه نفيسة عن عينيها، تراها كأنها ترى شبحًا مخيفًا يجعلها تستعيذ بالله من شر ما رأت.

حين أشرقت الشمس كانت ختام لا تزال مستيقظة حيث أمضت الليلة تستعيذ بالله، وتقرأ ما تحفظ من آيات قرآنية، واستمر صوت فحيح الثعابين يقلقها، فتح الملاك عينيه، نظر إليها متسائلًا: «أما زلتِ مستيقظة؟»

هزَّت رأسها بالإيجاب، وأردفت: «لم أستطع النوم، أعتقد أنني لم أعتد بعد على المكان».

نهض الملاك متوجهًا إلى خارج الغرفة، أما هي فقد قامت على الفور وفتحت النافذة التي تقع

فوق سريرها، وأخذت تنظر من حولها وظلت لبرهة تنظر إلى البئر القابعة أسفل النافذة، علها تعرف مصدر الصوت أو ترى ثعبانًا، واستمر الصوت يعلو ويعلو، حتى إنها من شدته وضعت يديها على أذنيها وأدارت رأسها باتجاه الباب، وهي تغمض عينيها، فإذا بالملاك يقف أمامها، اقترب منها ووضع يده على كتفها، فألقت رأسها على كتفه وعانقته.

قال لها متسائلًا: «هل أنتِ بخير؟»

كان صوت فحيح الثعابين يعلو ويعلو، ما زاد انزعاجها، وقالت له: «ألا تسمع شيئًا؟»

أجابها بدهشة: «نعم، أسمع صوت بكاء سهى»، وضحك.

ثم أردف: «هيَّا، لقد أعدت أمي طعام الإفطار، والجميع ينتظرنا في الخارج».

تنهدت تنهيدة أخرجت بها كل الخوف والهلع الذي أصابها ليلة أمس وقالت له: «اذهب أنت وسأبدل ملابسي وألحق بك».

انقضى هذا اليوم وما بعده، ولم يختفِ صوت الفحيح من أذني ختام، وكان الصوت يزداد كلما أرادت أن تخلد إلى النوم مسببًا لها الكثير من القلق والخوف، وما إن تتملكها الرغبة في البحث عن مصدر الصوت حتى يزداد علوًّا، فتتجاهله وتتعايش معه.

أما الملاك فقد أثَّر عليه موت حازم فترة من الزمن، ولعله تأثر كثيرًا بعمته التي ظل يزورها بشكل يومي تقريبًا، ظنًّا منه أنه يخفف عنها مصابها، إلا أنها كانت كلما رأته تتذكر أنه لم يعُد من نصيب ابنتها فتزداد قهرًا وغيظًا وحبًّا وتعلقًا به، وكرهًا وحقدًا على ختام التي اختطفته من ابنتها.

(9)

كانت أم الملاك امرأة شديدة الطبع، قاسية، ولعل أغلب النساء في القرية في ذلك الوقت كُنَّ ذات الطباع، التي فرضتها قسوة الظروف المحيطة بهن، لم تكن في البداية تعامل ختام معاملة حسنة على الرغم من أنها كانت فرحة باختيار الملاك لها كونها ابنة شقيقتها، إلا أن حبها وتعلقها الشديد بابنها الملاك أكبر أبنائها حرك بداخلها مشاعر الغيرة، فكانت تقسو عليها كثيرًا، فيبدو ذلك بتجاهلها لها ونظراتها التي لا تخلو من العتب على العكس من والده، فقد كان يحبها كثيرًا ويعتبرها واحدة من بناته، ولكن مع مرور الوقت تغير كل هذا، وأصبحت ختام الأقرب إلى قلب خالتها، بل إن حسنها وطيبتها دفعا أم الملاك إلى طلب نجوى شقيقة ختام التي تصغرها لابنها عامر، وفي المقابل فإن حب والدي ختام لملاك وتعلقهما به وبأخلاقه النبيلة دفعهما إلى القبول وتم زواج البدل، إلا أن حدسهم قد خانهم، فلم تكن طباع عامر تُشبه طباع الملاك أبدًا، وكأنهما لم يأتيا إلى هذه الدنيا من ذات الرحم، فقد كان عامر وسيمًا أيضًا إلا أنه يُشبه والديه من حيث قسوة الطباع، فعانت نجوى معه في حياته دون تقدير.

كان الملاك يساعد والده في تجهيز مشروعه بعد أن قرر الاستقرار في القرية، وقد اختار مخزنًا من مخازن بيتهم المطل على الشارع كما أشار عليه الملاك، فكان الملاك كل صباح يذهب إلى المدينة ولا يعود إلا في المساء، يحضر معه البضائع لبيعها في الدكان، وساعد والده في ترتيب البضائع في الدكان وتسعيرها، ووجَّه شقيقه عامر للوقوف مع والده ومساعدته في الدكان خاصة في غيابه، أما ختام فكانت في ذلك الوقت تخرج في الصباح الباكر إلى إحدى مدارس القرى المجاورة، بكامل أناقتها تنهي عملها وتعود لغرفتها، وقد ظل صوت الفحيح يطاردها من نافذة غرفتها ويقلق نومها، كانت حين تعود من عملها لا تتردد لحظة في الوقوف إلى جانب والدة زوجها ومساعدتها في إعداد الغداء وتنظيف المنزل، وكلما سمحت الظروف ووجدت وقتًا، تذهب لتطمئن على والدها ووالدتها وأشقائها، إلا أن هذا الحال لم يدُم طويلًا، فقد أخذا قرارًا بالانتقال للعيش في الأردن، وتقدما للعمل في إحدى مدارس محافظة الزرقاء حيث تعيش شقيقتها وزوجها وأبناؤها، وقررا أن يتركا القرية، فقد اختارا الغربة.

جاءت أصعب اللحظات، وداع والدها ووالدتها وأشقائها، وداع كل مَن تحب؛ أصدقاء الطفولة، جدها وجدتها، لتحمل معها أطراف حديثهم وابتسامتهم ومخزونًا من الذكريات في قلبها، وافترقت عن أهلها وقريتها والدموع لا تفارق عينيها والوطن لا يفارقها وإن فارقته، لتبدأ غربتها. لم يكن

يوم الوداع سهلًا عليها، قضت آخر يوم لها في القرية بغرفتها مع شقيقاتها ووالدتها تشتم رائحة سريرها، رائحة والدتها والحنين يسري في قلبها، والخوف من المجهول يسيطر عليها، فما أصعب البعد عن الأهل والأحباب!

أما هو فقد قضى آخر يوم له قبل السفر مع والده، يرتب أموره ويوجِّه شقيقيه، وتأكد أن أمور الدكان تسير على ما يرام إلا أن علاقة شقيقيه مع بعضهما البعض التي يشوبها الكثير من الاضطراب كانت تقلقه كثيرًا، وخاصة حدة النقاش المستمر بينهما أمام والديه، والتي سرعان ما تشتعل نيرانها لتتحول إلى عراك بالأيدي، فقد كان عامر ذا طبعٍ حادٍّ جدًّا، أما عاهد فكان يتسم بقسوة القلب وطيش من الجنون والتهور، إلا أن وجود الملاك كان يخفف دائمًا من حدة الخلاف بينهما بحكمته واتزانه، كل ذلك كان يشغل تفكيره، وما زاد على هذا هو ما حدث بينهما قبل سفره بيومين، فقد وقع شجار عنيف بينهما حول قطة صغيرة كان عامر على الدوام يقدم لها الطعام ويعتني بها، وكان هذا يزعج عاهد كثيرًا، حيث كان يتلذذ بتعذيب القطط، فتراه يغلق الباب على ذيلها أو يمسكها من قدمها ويعلقها بحبل على شجرة، وقد عمد إلى الإمساك بقطة عامر وحبسها في أحد المخازن يومًا كاملًا، وحين بحث عنها عامر ولم يجدها سأل عاهد عنها، والذي بدوره أخبره باستهزاء بأنه قتلها، فتعاركا معًا عراكًا بالأيدي، وعلا صوتهما، ما دفع بوالدتهما للصراخ ومحاولة إيقافهما عن أذية بعضهما البعض دون جدوى، فأخذت بالبكاء، وقد صادف ذلك قدوم الملاك من الخارج، وعلى الفور توجَّه مسرعًا نحو والدته وعانقها وصرخ بهما: «كُفَّا عن ذلك فورًا، والدتكما تبكي، تبًّا لكما». وعلى الفور توقفا ونظرا إلى والدتهما وأعاد الملاك كلامه غاضبًا: «هيَّا غادرا فورًا. غادرا المكان»، وكل يهدد الآخر ويتوعد له، وظل هذا المشهد عالقًا في ذهنه ما دفعه لاحقًا بتشجيع عاهد على السفر إلى العراق لاستكمال دراسته عله يعقل ويهدأ ويخفف من ثورته، إلا أن سفره إلى العراق ما زادهم إلا همًّا وتسبب باضطراب علاقة عاهد مع والده وغضبه منه.

وصلت ختام إلى أول محطة من محطات رحلتها في غربة هذه الحياة، وكانت في محافظة الزرقاء، حيث نزلت في ضيافة شقيقتها فترة من الزمن، قبل أن يصبح لها بيت مستقل، لطالما تذكرت تلك الأيام التي قضتها فيه حيث أنجبت فيها اثنين من الذكور قبل أن تغادرها.

كانت لشقيقتها أم محمد أربعة أبناء أكبرهم في سن السابعة، وأصغرهم لم يُكمل عامه الأول، كانت تسكن في بيت شعبي صغير جدًّا وذي طراز معماري قديم، به ثلاث غرف هي غرف لاستقبال الضيوف، وفي الوقت نفسه للجلوس وللنوم، إضافة إلى دورة مياه واحدة، إذ كان زوجها

ابن عمها ميسور الحال، فكانت إقامة ختام في بيت شقيقتها قاسية عليها ومقيدة لها ولزوجها، ما دفعه إلى البحث سريعًا عن منزل مستقل لهما.

كانت تدرك جيدًا أن وجودها في محافظة الزرقاء مؤقت، كل شيءٍ مؤقت، البيت مؤقت، والأثاث مؤقت، بل وإقامتهما في الزرقاء مؤقتة مرهونة بعقد عمل أو بوقت طال أو قصر، فقد اختارا هي والملاك الغربة، ولا شيء في الغربة دائم، فكله مؤقت بوقت معلوم عند رب الكون.

بعد فترة قصيرة من مكوثهما في بيت أم محمد، لاحظت ختام أنها لم تعُد تسمع فحيح الثعابين الذي كان يطاردها طوال الوقت في القرية وتحديدًا في بيت أبي الملاك، وقد حدثت أم محمد عن أمر هذا الصوت ورؤيتها المستمرة للثعابين، إلا أنها لم تأخذ الأمر على محمل الجد، بل قالت لها: «قريتنا مليئة بالثعابين»، وأخذت تحدثها عن ذكريات طفولتها وكم مرة رأت ثعابين هنا وهناك، أما ختام فظل اختفاء الصوت يقلقها فترة من الزمن قبل أن تنساه تمامًا، وكل ما يسعدها أنها أصبحت تنام نومة هانئة وردية خالية من الكوابيس.

أخذ الملاك يبحث عن سكن له ولزوجته، فبطبعه لا يحب أن يكون عبئًا على أحد حتى أقرب المقربين إليه، وكان في أعماقه يشعر بالذنب تجاهها لأنه أبعدها عن أهلها، واضطرها للإقامة لدى شقيقتها بشكل غير مريح ويفتقد للخصوصية، فدفعه إصراره على إسعادها إلى أن يبحث ويبحث حتى وجد غرفة صغيرة بجانب منزل شقيقتها، قام باستئجارها شهريًّا، علها تمنحهما نوعًا من الراحة والخصوصية.

مرت الأيام الماضية عليه ثقيلة جدًّا، غربة ووحشة وافتقاد للخصوصية، أما هي فكانت أفضل حالًا منه، فهي في منزل شقيقتها ولم تعُد ترى أو تسمع فحيح الثعابين، وقد أصبحت تنام بصورةٍ أفضل عن السابق.

وما هي إلا أيام وأصبحا معًا لهما خصوصيتهما في بيت مستقل، كان عبارة عن غرفة صغيرة، قسمها الملاك إلى غرفة نوم وغرفة جلوس، ولم تكن تحوي من المرافق سوى دورة مياه ومطبخ صغير جدًّا، لا يهم، فهو على يقين بأن الأحوال ستتحسن يومًا ما، كانت الغرفة في بناية قريبة من بيت أم محمد، لا يفصل بينهما سوى شارع، ممَّا جعل حياتها أكثر سلاسة بقربها من شقيقتها، فكانت تقضي معظم الوقت بعد عودتها من المدرسة عند أم محمد، تساعدها على أبنائها ويجلسان يتسامران إلى أن يحل المساء لتعود إلى بيتها، لتقضي وقتًا بالحديث مع الملاك قبل أن تخلد إلى النوم، أما هو فيقضي الوقت بعد عمله في شوارع الزرقاء، يتجول هنا وهناك ويجلس في أحد

المقاهي الشعبية، يحتسي الشاي مع بعض الأصدقاء ويعود بعدها إلى البيت.

كان هذا الوضع مؤقتًا، فما إن انقضت خمسة أشهر حتى انقلب الحال، فقد خسر الملاك عمله كمدرس في قسم البنين في ذات المدرسة التي تعمل هي بها مدرسة أيضًا.

منذ بدأ الملاك عمله في المدرسة أظهر مهارة وبراعة في تدريس اللغة العربية، فقد كان يحبها حقًّا وكان يملك خطًّا جميلًا منذ صغره مكَّنه من الإبداع في تنفيذ الوسائل التعليمية المميزة لتدريس المناهج لطلاب فصله، فأصبح طلاب شُعَبه متفوقين عن بقية الشُّعب، ما أشعل نيران الغيرة بينه وبين زملائه، ولعل أبرزهم كان المدرس عدنان الذي أظهر عداءً شديدًا له، خاصة مع سيل المديح الذي يتلقاه الملاك يوميًّا من أولياء الأمور والهيئة الإدارية في المدرسة، فلم يُعطِ مجالًا للتنافس الشريف بينهما، واستمر في خلق المشاكل له، حتى نشب خلاف بينهما تطور مع الأيام إلى شجار حاد، دفع بمدير المدرسة إلى تسليمهما إنذارًا خطيًّا، كان بمثابة إنذار للملاك أن يترك العمل، فلم يكن بمقدوره تحمُّل ذلك، وهو الذي ما بدر منه أي تقصير تجاه عمله يومًا؛ لذا فضَّل تقديم استقالته دون الحديث عنها مع إدارة المدرسة، وغادر على الفور.

وكعادته لم يخبر الملاك أحدًا بالأمر، بل استمر كل صباح بالاستيقاظ مع ختام باكرًا، يتوجهان نحو المدرسة، يوصلها إلى البوابة الرئيسية التي تؤدي إلى قسم البنات، ويغادر هو باحثًا عن عمل ويعود في المساء يلتقي معها في البيت يتحدثان، وكأن الأمور تسير في مسارها الطبيعي، إلا أن الموضوع لم يبقَ سرًّا فترة طويلة، فقد علمت ختام من إحدى زميلاتها في المدرسة بأنه قدَّم استقالته، وأن المدرسة تبحث عنه وترغب في عودته.

وقع هذا الخبر كان قاسيًا عليها، وظلت طوال الوقت تفكر في الأمر، كيف له أن يخفي عنها أمرًا كهذا، وأخذت تتذكر الأحداث السابقة وكيف أنه دائمًا يكتم ما في داخله، ولا يحدثها عن أمره شيئًا، وما إن انتهى دوامها الرسمي حتى انطلقت متوجهة نحو بيتها لا بيت شقيقتها، فتحت باب البيت لتجده نائمًا على السرير.

اندفعت نحو السرير حيث ينام ووقفت أمامه منزعجة قائلة: «لماذا لم تخبرني؟ ألست زوجتك والأقرب لك؟»

حاولت أن تمسك دموعها التي تغرغرت في عينيها. فتح عينيه ونظر إليها قائلًا: «لم أرغب بإزعاجك. لا تقلقي الأمور تسير على ما يرام»، قال ذلك وهو مستلقٍ وغطَّى وجهه بغطاء السرير ليوحي لها بأنه نائم.

جلست مدة ساعة من الزمن على الأريكة تفكر بأمره، ولماذا أخفى عنها مثل هذا الأمر، ولعلها ستُدرك لاحقًا أن هذه هي طباعه لم تتغير مع مرور الزمن، فهو بطبعه كتوم غامض جدًّا، ولا أحد يعلم ما يدور في رأسه سوى خالقه، إلا أنه دائمًا ما يرى الأمور بشكلٍ أوضح منها، فهي تُغرق نفسها في المشكلة، فتحجب عن بصيرتها الرؤية، أما هو فيعمل بصمت ليُنقذ ما يستطيع إنقاذه.

مرت الأيام وجاء خبر حملها مفاجأة بالنسبة له، ولم يستطع إخفاء فرحته التي اختلطت بشيءٍ من الخوف، فما زال بلا عمل، ما دفعه للخروج إلى الشارع، يسير هنا وهناك يفكر بالمصير المجهول لهذا الطفل، وسرعان ما قطع تفكيره صوت المؤذن، وهو ينادي: «الله أكبر... حيَّ على الفلاح.. قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة... لا إله إلا الله». توجَّه نحو الصوت إلى المسجد وصلى صلاة العصر، وجلس متكئًا على أحد الأعمدة، نظر أمامه فوجد مكتبة تحوي عددًا من المصاحف، أخذ مصحفًا وعاد إلى مكانه وبدأ يقرأ القرآن، ولم يقطع خشوعه سوى صوت المؤذن ينادي لصلاة المغرب، واستمر على هذا الحال مدة سنتين، يمضي وقته في المسجد والبحث عن عمل، يقابل هنا وهناك، يعمل أي شيءٍ بأجرة يومية ليحصل على بعض الدنانير يصرف منها على زوجته، بل صادف أن التقيا يومًا في أحد شوارع الزرقاء، كان هو يرتدي ملابس مغبرة مبقعة من جراء حمل البضائع على ظهر حمار لأحد المحال لنقلها من مكان إلى مكان آخر معلوم، مقابل بعض الدنانير، أما هي فكانت ترتدي ملابس أنيقة وتحمل حقيبتها بيدها ممسكة ببعض الأوراق، ومعها اثنتان من زميلاتها في المدرسة، تثاقلت خطواتها بادئ الأمر حين رأته مقبلًا من أعلى ذات الشارع الذي تسير فيه، وما إن رآها حتى تسمَّر في مكانه، ينظر إلى ملابسه الرثة وقد شعر باستياء، أخذ ينظر نحوها، يسحب شهيقًا عميقًا وقد سيطر الأسى على ملامح وجهه، أخذت المشاعر في داخله تتخبط، فتارة فكر في إخفاء وجهه، وتارة فكر في أن يعود إلى الوراء، إلا أنه ظل ساكنًا لا يقوى على الحراك، لقد شعر بأنه أخجلها أمام زميلاتها اللاتي كُنَّ يعرفنه بحكم عمله سابقًا في المدرسة معهن في قسم البنين، أما هي فظلت تنظر إليه وتسير نحوه، فقد أشفقت عليه وعلى حاله إلا أن حبها له وثقتها به دفعتها للإسراع نحوه، وهي تحدث نفسها بصوتٍ عالٍ: «ها هو الملاك زوجي وكل حياتي».

لم تخجل منه يومًا، بل على العكس كانت تفتخر به، فهو يكد ليكسب رزقه، ودائمًا كانت تردد أمام زميلاتها أنها تحسد نفسها عليه، ومنذ ذلك اليوم قرر الملاك الكد في البحث عن عمل، يتوافق مع دراسته الجامعية، كان جُل اهتمامه هو أن تكون ختام دائمًا سعيدة وفخورة به.

مرت الأيام وأنجبت ختام أول أبنائها، وقد اختارا تسميته شادي، فهذا الاسم يذكرها بصوت

فيروز، وأغاني فيروز حين تشدو: «أنا وشادي غنينا سوا.. لعبنا على الثلج ركضنا بالهوا».

أغنيات فيروز التي لطالما استمتعت بقهوتها الصباحية، وهي تستمع عبر المذياع لأغنياتها وتدندنها. وبعد عامين رُزقت بمولودها الثاني، وقد اختارا تسميته إبراهيم على اسم والد زوجها.

كانت هي لا تزال على رأس عملها، مدرسة أنشطة رياضية في قسم البنات، وقد أثبتت نفسها باجتهادها، فاستحقت أن تنال ترفيعًا إلى درجة موجهة تعليمية، وكانت في ذلك الوقت أصغر موجهة، فزاد راتبها الشهري، أما الملاك فلم يفقد الأمل، بل ظل مفعمًا بالإيجابية والتفاؤل يقرأ الصحف صباح كل يوم، ولم يكف عن البحث عن فرصة عمل، إلى أن جاءت هذه الفرصة التي بدَّلت الحال إلى أحسن الأحوال.

في صبيحة هذا اليوم استيقظت من نومها، فتحت عينيها، ظنًّا منها أنها سترى وجه الملاك، ولكنها لم تجده بجانبها، بل وجدت ملابس نومه على السرير، بحثت عنه في أرجاء البيت وهي تنادي: «أين أنت يا ملاكي؟» دون جدوى، فارتدت ملابسها، وحملت ولديها، وتوجهت بهما إلى منزل شقيقتها أم محمد، حيث تتركهما هناك في رعاية شقيقتها، إلى أن تنتهي من عملها، في طريقها إلى العمل، تذكرت الليلة الماضية بينما كانت في بيت أم محمد تجلس معها في المطبخ مشغولتين بالعجين وصنع الكعك، وكانتا تتبادلان الحديث والضحك حين دخل الملاك، ووقف عند باب المطبخ يستمع إلى حديثهما بصمت، وقد بدت عليه الحيرة ما دفع أم محمد لسؤاله: «كيف حالك اليوم؟» ابتسم لها وغيَّر الحديث فورًا وهو يمازحها: «لقد شممت رائحة الكعك على بُعد مائة متر من البيت، وقُلت في نفسي: يا له من سعيد الحظ مَن تُعِدُّ له زوجته الآن كعكًا!» فابتسمتا له وقالت أم محمد: «إذن فأنت هو سعيد الحظ»، فأجابها فورًا ودون تردد وهو ينظر إلى وجه ختام: «نعم.. أنا هو سعيد الحظ».

لم يكن الملاك على طبيعته في تلك الليلة، وقد حاول جاهدًا أن يخفي قلقه واستمر على هذا الحال إلى أن انتصف الليل، وهما في غرفة النوم حيث سألته ختام: «ماذا بك؟ هل حدث شيء؟» نظر إليها وابتسم واكتفى بعناقها.

تلك الأحداث عادت بذاكرتها رغبة في معرفة أين عساه أن يكون؟ إلى أن وصلت إلى المدرسة وبدأت عملها وتجاهلت الأمر مؤقتًا، وسرعان ما خرجت من العمل متجهة نحو منزل شقيقتها التي كانت تُعد الطعام في المطبخ، أرادت أن تخبرها بأنها لا تعرف شيئًا عن الملاك منذ الصباح إلا أن صوت جرس الهاتف قطع حبل أفكارها، وتوجهت نحو الهاتف وأمسكت بالسماعة ليأتي صوت

الملاك، اطمأن على حالها وعلى أبنائه وقال لها: «لقد غادرت الأردن صباحًا وأنا الآن في الإمارات».

لقد تلقى منذ يومين خطاب عمل من إحدى الشركات في جزيرة بدولة الإمارات، ولم يخبر أحدًا عن الأمر حتى ختام، التي ما إن سمعت ما قاله حتى اغرورقت عيناها بالدموع وأخذت تخفيها، إلى أن أغلقت الهاتف وانفجرت بالبكاء.

لقد كان قبل ثلاثة أشهر يجلس في أحد المقاهي أمام بيته مساءً يحتسي الشاي، بينما قدم إليه عامل المقهى ووضع أمامه صحف اليوم، فقد اعتاد أن يقرأها كل صباح، إلا أن هذا الصباح كان لديه عمل لدى أحد الأشخاص ساعده في حمل البضائع مقابل بعض الدنانير، فلم يتمكن من تصفحها، وحين رآه العامل أحضرها إليه مبتسمًا قائلًا له: «هذه هي صحف اليوم، أعرف أنك جئت تبحث عنها، تفضل»، ابتسم الملاك قائلًا له: «حقًّا جئت لقراءتها ككل يوم، علّني أجد نفسي بين طياتها، شكرًا لك». ابتسم له العامل وبدت على وجهه علامات استفهام، فما الذي قصده الملاك بنفسه بين أوراق صحفٍ منسية؟

قلب الملاك صفحات الصحف باهتمام ولم يترك عمودًا من أعمدتها إلا وقد مر عليه إلى أن صادفته إحدى الصفحات التي نُشر بها إعلان توظيف يُشير إلى أن شركة حديثة قيد التطوير تبحث عن موظفين أردنيين للعمل بها في دولة الإمارات، ولم تكن هذه المرة الأولى التي يجد فيها الملاك إعلان توظيف كهذا، بل سبق وأن راسل الكثير منها ولكن لا جواب، ولا يأس، اقتصَّ الخبر الذي يحوي عنوان الشركة وصندوق بريدها ووضعه في جيبه ليُرسل لهم في اليوم التالي السيرة الذاتية الخاصة به.

استمر الحال على ما هو عليه فترة من الزمن، حتى جاء رد الشركة بعد شهرين من إرساله السيرة الذاتية، حيث وصلته عبر البريد رسالة خطية توضح رغبة الهيئة الإدارية في الشركة إجراء اتصال هاتفي للحديث معه؛ مقابلة توظيف، وهذا ما حدث فعلًا، فقد اتصل بهم وتحدث أحد الأشخاص معه وأكدوا له رغبتهم في أن ينضم إليهم في القريب العاجل، ووعدوه بإرسال صورة من تأشيرة زيارة له، مع تذكرة سفر، موضحين كل الامتيازات الأخرى من راتب شهري، وبدلات سيستحقها، وحددوا له موعدًا تقريبيًّا ليكون في إمارة أبوظبي.

أغلق الهاتف وأخذ يفكر بالأمر، لم يكن لديه أي تردد بقبول هذا العرض، فقد اعتبرها فرصة لاحت له في الأفق؛ إذ إن دولة الإمارات في ذلك الوقت من سبعينيات القرن العشرين كانت في

المهد، معلنة بداية رحلة البناء والتطور والعمران، ولقد كان يملك من الخبرة في سنوات عمله في الكويت ما يمكنه من العمل في هذه الشركة ذات الاختصاص، فلم لا يجرب حظه؟! لقد كان كثيرًا ما يردد: «إنَّ مع العُسر يسرًا، وما اشتدت حلقاتها إلا فُرجت»، يقينًا بالله وقد جاء فرج الله حقًّا.

في يوم السفر قضى وقتًا طويلًا في الخارج، قبل أن يذهب إلى بيت أم محمد حيث زوجته وأبناؤه يمضون وقتهم معها، تجول هنا وهناك مودعًا الجميع دون أن يخبر أحدًا بأمره.

عاد وختام وأبناؤه ليلًا إلى بيتهم، أيقظ أبناءه مستغلًّا وجودها في دورة المياه، وأخذ يعانق شادي وإبراهيم ويقبلهما، وما إن غط الجميع في نوم عميق حتى نهض وبدل ثيابه دون أن يحمل معه سوى جواز سفره، وبعض الأوراق الرسمية خاصته، نظر إليهم قائلًا في نفسه: «أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه»، وأغلق باب البيت جيدًا وانتظر في الخارج، عله يجد سيارة أجرة توصله إلى المطار، ما زال أمامه متسع من الوقت، وصل إلى المطار قبل موعد الرحلة بثلاث ساعات، لم تكن المرة الأولى التي يسافر فيها عبر هذا المطار، فقد اعتاد السفر منه إلى الكويت، وفي المطار وبعد أن ختم جواز سفره، وأنهى كافة الإجراءات المطلوبة منه، وقبل الصعود إلى الطائرة، نظر إلى الساعة، كانت حينها تشير إلى السادسة صباحًا، أي وقت صلاة الفجر ما يعني أن والده مستيقظ، توجَّه نحو «كابينة» هاتف عمومي واتصل بوالده، الذي كان قد اشترى هاتفًا أرضيًّا وضعه في الدكان، وقد كان والده مستيقظًا فعلًا، يستعد للذهاب إلى المسجد لأداء صلاة الفجر، وما إن مر بجانب الدكان حتى سمع صوت الهاتف، مرددًا: «لعله خير، لعله خير»، فتح باب الدكان، واقترب من الهاتف ورفع سماعته قائلًا:

- آلو، السلام عليكم، مَن المتحدث؟

- وعليكم السلام يا أبي، كيف حالك؟ أنا الملاك.

للوهلة الأولى، شعر والده بالخوف، فما بال ابنه يتصل في هذا الوقت.

«ما بالك يا ملاك؟ أحدث شيء لك أو لأبنائك أو...»

قاطعه الملاك على الفور بالنفي، مؤكدًا له أن الجميع بخير، وأردف قائلًا: «أنا أحدثك من مطار الملكة علياء الدولي، لقد حصلت على عقد عمل في دولة الإمارات، وتحديدًا في إمارة أبوظبي»، وأخذ يخبره بكافة التفاصيل التي أسعدت قلب والده، ولم يُغلق الملاك الهاتف إلا عندما سمعه يقول :«الله يرضى عليك يا ملاك ويسعدك، بالتوفيق يا بني».

انطلق بعدها الملاك بكل رضا وراحة، وصعد إلى الطائرة، وجلس على مقعده، وبعد أن أقلعت

الطائرة وفرغ من دعاء السفر، وأصبح معلقًا بين السماء والأرض، انتابه شعور غريب ممزوج بين فرح وخوف، شعور مضطرب، خوف من الغربة والمجهول، وفي المقابل فرح بفرج الله، إنها أحاسيس الغربة، فهو يبحث عن فرصة أفضل لم يجدها في وطنه، إلا أن تعلقه بوطنه وهواء أرضه المنعش، جعله يردد في نفسه: «سأعود يومًا ما، سأعود لوطني وأرضي، سأعود يومًا ما بحالٍ أفضل إن شاء الله».

أما ختام كعادتها، تقبلت الأمر، فماذا عساها أن تفعل سوى تقبُّل ذلك؟ كان عليها تحمُّل مسؤولية كبيرة في غيابه، فهي الأم والأب لابنيها ولعل وجود شقيقتها أم محمد، خفف عليها كثيرًا من العبء، وهون عليها غيابه.

على أي حال، لم يمضِ وقت طويل، وأرسل لها تأشيرة زيارة وتذاكر سفر لتلحق به، ويستقرَّا سويًّا في هذا البلد الذي أصبح فيما بعد وطنًا لهما، لتسرقهما الغربة من نفسهما وتسرق عمرهما، حتى وصلت ختام مع هذه الغربة إلى نقطة اللا عودة.

(10)

كانت ختام تربطها علاقة قوية بأشقائها وشقيقاتها، إلا أن شقيقها فريد كان بالنسبة لها الأب، فهو يكبرها بأعوام، إلا أن قسوة ظروفهم المادية وظروف التهجير التي فرضها الاحتلال الصهيوني على القرية، جعلته يتحمل المسؤولية صغيرًا، فكان ناضجًا قبل الأوان بشكل فظيع، يميل إلى الوحدة عن اللعب مع أقرانه، حين ولد فريد كانت والدته في سن الثالثة عشرة من عمرها، ففي ذلك الوقت كان الأهل يزوجون بناتهم في سن صغيرة بمجرد بلوغهن، وقد جاءها المخاض بين الأشجار حين كانت تساعد والدتها في قطف ثمار الزيتون في موسم حصاده، كانت ولادته صعبة جدًّا، حتى إن والدته رأت الموت يقترب منها، ولكنها بمساعدة نساء القرية نجت وظفرت بوليدها فريد، الذي لم تكن تعلم بجنسه طوال حملها، بل حين علمت بحملها كانت قد تجاوزت شهورًا من الإعياء، ففي ذلك الوقت لم تكن الخدمات الطبية قد وصلت إلى القرى بعد، بل كانت الداية أو القابلة هي مَن تولِّد النساء في القرى، وفي قريتهم كانت الداية أم محمود هي مَن تتولى تقديم خدمات الرعاية بالنساء والمواليد، فحين جاءها المخاض أخذ النساء من حولها يساعدنها للوصول إلى بيتها، إلا أن وليدها لم ينتظر مجيء أم محمود الداية، فكان أن رأى النور بين أشجار الزيتون، فنمت أغصانها في أعماقه وتأصل به السلام الروحي، وسرعان ما جاءت الداية وقامت بواجبها على أكمل وجه.

ونظرًا إلى طبيعة الحياة وقسوتها تتجلى هنا صلابة ومقدرة الفلاحة الفلسطينية التي ما إن مر يوم واحد على ولادتها حتى كانت تحمل وليدها بين ذراعيها، وتعاون والدتها في قطف ثمار الزيتون، واستكمال الحصاد، فهو مصدر رزقهم، وليس هذا فحسب، بل تجهز الطعام وتخبز الخبز، وتُرضع وليدها، وتربيه رغم صغر سنها، دون أن تشتكي ألمًا، بل سعادة ورضا تملأ قلبها الذي اكتسى بملامح الأمومة.

كبر فريد عامًا بعد عام، وكل عام كانت تنجب به والدته شقيقة له، فما إن بلغ فريد من العمر خمسة أعوام، حتى أصبح رجلًا وجب عليه تحمُّل مسؤولية أكبر من عمره جعلته ينضج قبل أوانه، ومع مرور الأعوام كبرت هذه المسؤولية لتصبح أمرًا ومسؤولية ملزمة منه، التحق بالدراسة في عمر كبير وتابع المراحل الدراسية إلى جانب وقوفه الدائم مع والده، كان يخرج إلى المدرسة من مطلع الصبح ولا يعود إلى البيت، بل ينضم إلى والده للعمل في أرضهم وحصادها إلى منتهى النهار، كانت عيناه تحملان قوة وثقة مطلقة، وكان يحمل ملامح وجه أمه كثيرًا، فترى الهدوء

والسكينة وطيبة القلب بادية بوضوح على ملامحه، بل زادت على مر السنين.

حين بلغ من العمر عشر سنوات، كانت فلسطين تشهد تخطيطًا صهيونيًّا لإقامة وطن بديل لليهود، فبدأ الأهالي في مدن فلسطين وقراها التأهب والاستعداد للحرب، وكذلك في بلدتهم، رغم أوضاعهم المتردية، إلا أن أهالي بلدتهم والقرى المجاورة لهم، تعاونوا وكثفوا اجتماعاتهم لوضع خطط للصمود في وجه الكيان الصهيوني، وكان في ذلك الوقت أبو فريد يحرص على حضور هذه الاجتماعات والمشاركة معهم، ودائمًا ما يصطحب فريد معه، وكان يستمع لحديث الرجال بشغف، زاد من مشاعر المسؤولية والتضحية تجاه عائلته وأرضه ووطنه.

وجاء اليوم المشؤوم، بدأت العصابات بالزحف نحو القرى المحيطة بمدينة طولكرم، رغبة في ترحيل سكانها وتحويلها إلى مستوطنات يهودية، وبدأ رجال القرية تنفيذ المخطط المتفق عليه، والقائم على إبعاد النساء والأطفال وإخراجهم من القرى والتصدي للقوات الصهيونية بين الطرق الوعرة المؤدية لقراهم، كفاح مرير من أجل البقاء والتمسك بالأرض، وكانت تلك الفترة قد شهدت هزيمة ساحقة للجيوش العربية التي حاولت الدفاع عن فلسطين، وقد هُجِّر أكثر من نصف العرب الفلسطينيين تاركين منازلهم وأراضيهم، وفروا هربًا بأرواحهم، إلا أن أهالي قرية صور فضلوا البقاء والصمود في وجه المحتل وظلوا متماسكين.

كان فريد ذو السنوات العشر يراقب كلَّ ما يحدث من حوله، بل يحمل «بارودة» استعدادًا للقتال، فكانت أعدادهم الكبيرة تصد العصابات قليلة العدد عن التقدم لقريتهم والقرى المجاورة دون الحاجة لاستخدام البارود، هكذا نشأ فريد قوي العزيمة والإرادة، يعي معنى الصمود ومعنى الوطن.

وقد كان كفاحهم على مرِّ الأعوام سببًا في بقائهم في أرضهم والحفاظ عليها رغم أن عددًا كبيرًا من القرى الأخرى انتُزعت من سكانها وهربوا فزعين، وصودرت أراضيهم ومنعوا من العودة إلى قراهم.

ولعل ما صقل شخصية فريد، هو تقلبه بين الفقر والشقاء وهو صغير ومن ثم جده وكفاحه وهو شاب، فقد قهر فريد المستحيل، فالظروف الصعبة التي واجهته في صغره، لم تثنه عن التعليم، فكان يحرص على تعليم القراءة والكتابة لشقيقاته اللواتي لم يلتحقن بالمدرسة، وكانت ختام في ذلك الوقت أكثرهن تجاوبًا على الرغم من صغر سنها، ما دفعه كي يصر على التحاقها بالمدرسة حين أصبحت في السابعة من عمرها.

بعد أن أنهى فريد السنة الدراسية الأخيرة له في المدرسة سُمح له لإصراره الشديد بمرافقة أبي

الملاك زوج خالته إلى الكويت، للعمل هناك، وقد استطاع أبو الملاك أن يجد له عملًا في الشركة نفسها التي يعمل بها، وقد كان لنجاح فريد السريع بالغ الأثر في تغيير نمط حياة والده، وعائلته بأكملها، بل وتخفيف الحمل عنهم.

ولقد كان لختام والملاك دور بارز في حياة فريد، فقد كانت ختام ذات رأي سديد يأخذون مشورتها ويعملون بها، ولم تخيب ظن أحد بها يومًا، بل كانت دائمًا مشورتها صائبة وبشرى خير، فحين أراد فريد الزواج، أشارت عليه بإحدى صديقاتها في الدراسة، حيث كانت تقطن في مدينة طولكرم، وكانت ختام تعرفها وتعرف عائلتها جيدًا، وتم الزواج، فكانت زوجة فريد امرأة صالحة جلبت معها الخير له ولعائلته، وقد عاشا فترة من الزمن في الكويت وأنجبا ثلاثة من أبنائهم فيها، قبل أن ينتقلا للعيش في المدينة الفاضلة، وقد كان للملاك دور في انتقال فريد من الكويت إلى الإمارات، فبعد أن أثبت الملاك نفسه في الشركة، وقبل قدوم ختام وأبنائه، كان قد تواصل مع أحد رؤسائه لتقديم أوراق فريد للعمل في الشركة، وقد حدث أن أرسلوا له تأشيرة عمل على الفور، وانتقل على أثرها للعمل في فرع الشركة في المدينة الفاضلة، وكان فريد في ذلك الوقت قد امتلك خبرة مهنية عالية، اكتسبها من سنوات عمله في الكويت، أهَّلته ليشغل منصبًا مرموقًا في الشركة، وبدخلٍ شهري عالٍ، ولم يبخل يومًا على والديه وأشقائه، بل دائمًا كان السند والمعين لهم.

(11)

يوم سفرها للقاء الملاك، كان يومًا مختلفًا بالنسبة لها، فهي المرة الأولى التي تسافر بالطائرة، حين وصلت سيارة الأجرة إلى المطار، خفق قلبها، نزلت من السيارة وقد وضع السائق الحقائب على العربة التي أسرعت ممسكة بها، وسارت باتجاه بوابة المطار، عن يمينها إبراهيم، وعن شمالها شادي، وما إن عبرت البوابة حتى وجدت صالة واسعة احتشد بها مئات المسافرين، وقفت حائرة لا تعرف في أي اتجاه تسير، تنظر هنا وهناك حتى وقع نظرها على رجل يقف بالقرب من بوابة كُتب عليها: المغادرون، كان يرتدي بدلة رسمية زرقاء اللون، اقتربت منه وسألته: «لو سمحت أريد السفر إلى أبوظبي، هل تدلني إلى أين أتوجه؟» قال لها: «أهذه المرة الأولى التي تسافرين بها؟» فهزت ختام رأسها بالإيجاب، فطلب منها جواز سفرها، والتذاكر، وعلى الفور فتحت حقيبة يدها والتقطت كافة الأوراق وأعطته إيَّاها، فقال لها: «اتبعيني».

ظل هذا الرجل يرافقها إلى أن أنهت الإجراءات كافة، وأوصلها إلى بوابة الطائرة، فشكرته قائلة له: «يا أخي والله لا أعرف كيف أشكرك حقًّا»، قال لها: «أمنياتي لكِ بالوصول سالمة، واجبي يا سيدتي». فقالت له مرة أخرى: «شكرًا وجزاك الله خيرًا». تنفست الصعداء بسعادة ملأت قلبها ويقينًا بأن الله يحبها حقًّا ويسخر لها دومًا جنودًا من السماء تعينها.

كان صوت الطائرات الصاعدة والهابطة يقلقها ويزيد قلقها، مكبر الصوت الذي يحمل التعليمات للمسافرين والعائدين، دخلت من باب الطائرة ممسكة بابنيها، وقد قامت مضيفة الطيران بإرشادها إلى مقعدها حيث ستجلس في الوسط بينهما، إبراهيم جلس بجانب النافذة وعلى الطرف الآخر منها جلس شادي، أغلقت الطائرة أبوابها، أخذت تنظر من النافذة وتشاهد العاصمة عمَّان، وهي تتلاشى من أمام عينيها، كلما صعدت الطائرة أكثر إلى الأعلى تقرأ ما تحفظ من القرآن، وما إن استقر وضع الطائرة حتى أخذت تتحدث إلى ابنيها قبل أن يغطَّا في النوم، أسندت رأسها على المقعد وأخذت تفكر وانهمرت الدموع على خديها، فقد تذكرت كلمات والدتها ووجه والدها، كانت حائرة خائفة، وكل ما ترغب به هو رؤية الملاك ومعانقته، فهو الأب، والأم، والسند لها.

حين هبطت الطائرة، شعرت بالفرح، فهي على بعد خطوات قليلة من الملاك الذي يقف في صالة انتظار القادمين لاستقبالها وابنيه شادي وإبراهيم، وكان اللقاء، عانقته وأخذت تجهش في البكاء وهو بسعادة بالغة يغمرها ويمسك بابنيه من حولها، ويحمد الله على رؤيتهم سالمين.

كانت درجات الحرارة في الإمارات تتصف بالارتفاع على مدار العام، وخاصة في فصل الصيف، ما جعل ختام تأخذ فترة من الزمن لتعتاد على هذا الطقس، فهي ابنة بلاد الشام، البلاد التي تحظى بطقسٍ لطيفٍ في فصل الصيف.

خلال توجهها مع زوجها من المطار إلى البناية حيث يسكن الملاك، كانت تنظر من نافذة السيارة التي تقلهم باندهاش، مرت بطريق صحراوي طويل غير معبد، رأت أبنية من الحجارة والطين مبعثرة هنا وهناك، حتى وصلت إلى جزيرة يحيطها بحر تتلألأ مياهه بأشعة الشمس مكونة لوحة فنية بديعة تبهج الأبصار وتشرح الصدور، لم يكن يقلقها شيء، بل كانت على ثقة بأن الملاك هو الأمان والراحة بالنسبة لها، فكانت هذه بداية حياتها، وكأنها ولدت في هذا اليوم، مليئة بالآمال لأسرتها وزوجها.

بساطة الحياة في ذلك الوقت، وطبيعة شخصيتها، جعلتها تعتاد هذه الحياة الجديدة في وقت قصير، فأصبح لديها العديد من الجارات والصديقات، تقضي معهن وقتًا ممتعًا، لم تكن إقامتها في الجزيرة لفترة زمنية طويلة، إلا أن الأحداث التي وقعت فيها، والوقت الذي قضته فيها أثَّر عليها، وترك في قلبها لهن ذكرى جميلة، فهن سبقنها إلى الجزيرة ويعرفنها أكثر منها، فكن يصحبنها معهن إلى الحدائق يقضين وقتًا ممتعًا، كل واحدة منهن تجلب معها ألذَّ الأطباق، ويجلسن يتسامرن، وسرعان ما وضعت مولودتها التي أسمتها شيرين، فأصبح لديها ثلاثة أطفال.

مرت الأيام وزادت رغبة ختام بالعودة للعمل، فطرحت الفكرة على الملاك الذي رفض عملها رفضًا قاطعًا، معللًا ذلك برغبته في أن تبقى معززة مكرمة في بيتها تعتني بأبنائها، وكان هذا ما حصل.

كان منزلهما في الجزيرة فسيحًا جدًّا، مكونًا من غرفتي نوم، وصالة واسعة، ذات أثاث مريح وبسيط، وتحتوي على مكيف الهواء، ليخفف عنهم حرارة الطقس، كانت شقة في بناية في منطقة يُقال لها أم النار، قبل أن تنتقل إلى العيش في فيلا مستقلة بالمدينة الفاضلة.

قضت ختام في هذه الجزيرة عامين، تعرفت خلالهما على صديقتها وجارتها نعمة (أم حسين) التي كانت تسبقها بعامين في الجزيرة، وكانت فلسطينية الجنسية من بلدة في نابلس تُدعى سلفيت، لديها اثنان من الذكور وثلاث من الإناث، وقد أصبحت مع الوقت الأقرب لها بل شقيقتها، وانتقلت معها فيما بعد إلى المدينة الفاضلة، لقد مرت ختام معها في الجزيرة بأحداث لا تُنسى، كان لها وقع خاص في قلبهما، وقد جمعتهما المصادفة، فذات يوم انقطع التيار الكهربائي عن البناية بأكملها،

وكان لختام ثلاثة أيام فقط في الجزيرة، كان الملاك في عمله بينما هي في شقتها لا تعلم ما عساها تفعل، وقد مر على انقطاعها ساعة من الزمن، شعرت خلالها بحرٍّ شديد، فالطقس في الخارج حار جدًّا، ودرجة الحرارة تصل إلى الأربعين، فالجزيرة في فصل الصيف وتحديدًا وقت الظهيرة، لا تحتمل حرارتها دون مكيفات تبريد، كان ابناها شادي وإبراهيم يجلسان في غرفة المعيشة يلعبان أمامها، بدأ العرق يتصبب من جبينها، توجهت نحو النوافذ، فتحتها وفتحت باب الشقة علَّ الهواء يدخل منه، وقد كان باب الشقة المقابلة مفتوحًا أيضًا، كان عمر شادي في ذلك الوقت ثلاث سنوات، وإبراهيم يصغره بعام واحد، توجهت نحو المطبخ تتفقد الثلاجة، فقد أصابها قلق من استمرار انقطاع التيار الكهربائي وعواقبه في إفساد الطعام، وقفت أمام النافذة في المطبخ، تحاول التقاط الهواء، فقد شعرت بضيق من الحرارة، أخذت تنظر إلى الشارع حيث خلا من المارة إلا من بعض السيارات، أرض صحراوية على الطرف الآخر من الشارع، بها مستودع من الزينكو وجرافات هنا وهناك، السماء صافية والشمس ملتهبة، وهي غارقة في التأمل، تذكرت صوت فحيح الثعابين، وأخذت تشكر الله على أنها لم تعُد تسمعه مجددًا، قطع تأملها صوت طرقات على الباب لتهرع إلى هناك فتجد صبية لم تتجاوز عشر سنوات ممتلئة الجسد، بشعر أسود قصير ووجه أبيض ممتلئ، نظرت إليها ختام مبتسمة ووجهت سؤالها إلى إبراهيم موبخة إياه: «لماذا خرجت من البيت؟ لماذا لا تسمع كلامي يا برهوم»، ثم نظرت إلى الصبية وشكرتها وأخذت من بين يديها إبراهيم، وقالت لها: «هل دخل شقتكم؟» فأجابتها بلا تردد: «نعم، لقد كان في بيتنا»؛ ليقطع الحديث صوت امرأة أقبلت من باب الشقة المقابلة لشقتها، كانت تربط وشاحًا ملونًا على رأسها وتبتسم لختام مرحبة بها: «أهلًا، أهلًا جارتنا الجديدة في البناية، سعيدة برؤيتك»، اقتربت منها ومدت يدها لمصافحتها قائلة لها: «أنا أم حسين وهذه ابنتي عُلا»، فرحبت بها ختام أيضًا، وأتبعت أم حسين: «نحن نسكن هنا منذ أكثر من عام، ما رأيكِ أن تأتي لزيارتنا ونتحدث أكثر؟ هيَّا»، ودَعَتْها إلى شقتها لقضاء الوقت، لحين عودة الكهرباء، ولم تمانع ختام، بل على الفور توجهت نحو شادي، أمسكت بيده وإبراهيم يتقدمها، وما إن دخلت شقة أم حسين حتى عاد النور يملأ المكان، وعادت مكيفات التبريد تطلق الهواء البارد في المكان، فضحكت أم حسين قائلة لها: «إنها ليست صدفة، بل وجهكِ الجميل يحمل البشرى السارة والخير الكثير، تفضلي يا ختام اجلسي»، وقد جلستا وقتًا طويلًا تتحدثان وتتنقلان في البيت هنا وهناك، تارة إلى المطبخ، وتارة إلى غرفة الجلوس، هذه تحكي لها عن والدها ووالدتها، وهذه تحدثها عن شقيقاتها حتى مر الوقت سريعًا، وأدركت ختام أنه لا بد لها أن تعود إلى شقتها، فقد اقترب موعد قدوم الملاك، ولا بد من تجهيز الغداء له، ومنذ ذلك اليوم

أصبحتا صديقتين، بل أختين لم يفرقهما عن بعضهما البعض سوى الموت.

لم تكن النساء في ذلك الوقت من سبعينيات القرن العشرين وتحديدًا في القرى الفلسطينية يرتدين الحجاب، بل كانت الثقافة الشعبية المنتشرة آنذاك أن النساء ممَّن يكبرن بالسن هن مَن يتوجب عليهن ارتداؤه، ولعله ارتبط فترة من الزمن بالعادات والتقاليد، فلم يكن هناك وعي ديني كافٍ لدى الأغلبية، وعلى الأرجح، فإن والدي ختام كونهما فلاحين بسيطين لم يُدركا يومًا تفاصيل متعلقة بالدِّين، بل بعفوية يقومون بتأدية الفروض التي اعتادوا تأديتها أو بعض الآداب من منطلق هذا ما وجدنا عليه آباءنا وأجدادنا. ومع هذا فهناك في القرية مَن اخترن ارتداء الحجاب عن معرفة وقناعة بالدِّين والفروض، كشقيقات الملاك، اللاتي ارتدينه بمجرد بلوغهن، بعد حديث مطول مع والدهن المثقف الواعي بأمور الدِّين.

ومع هذا فلم تكن ختام وشقيقاتها يرتدين ثيابًا تكشف أجسادهن، فقد كان والدهن دائمًا يردد أمامهن مصطلح «العيب»، فكُنَّ ملتزمات محافظات لسن بمحجبات.

ولعل نساء القرية في ذلك الوقت ممَّن هُن في سن كبيرة كُن يرتدين ثوبًا طويلًا محتشمًا ويضعن شالًا أبيض يشف ما تحته، وكان ملازمًا لهن يكشف عن شعرهن في مقدمة الرأس، ولم يكُن في العرف أو السائد الحجاب الذي يغطي الشعر بأكمله إلا عند القليل من نساء القرية.

لقد كان الملاك منذ فترة طويلة يريد الحديث مع ختام حول الحجاب، ولكنه لا يرغب بفرضه عليها دون اقتناعها به، ولعله منذ زواجهما كان كثيرًا ما ينتقد لباسها إن كان يصف شيئًا من جسدها، ويطلب منها على الفور تغييره، ولعل الفكرة لاحت في الأفق، حين تعرفت ختام على جارتها أم حسين، التي كانت ترتدي الحجاب، ما دفع الملاك في ذلك اليوم إلى الحديث مع ختام حول الأمر.

كان الوقت مساءً وقد عاد للتو من عمله، ختام تقف في المطبخ تغسل الأواني بعد انتهائهما من الغداء، وأبناؤهما في غرفة المعيشة، توجَّه الملاك إلى المطبخ ودون تردد قال لها: «لديَّ طلب فهل ستنفذينه؟»

أغلقت صنبور المياه وأخذت منديلًا جففت به يديها، وظلت ممسكة به موجهة نظرها نحو الملاك وعلامات الدهشة بدت واضحة على ملامحها وهي تقول له: «بالتأكيد حبيبي، ما هو؟» أخذ يحدق في عينيها واقترب منها وأمسك بخصلات شعرها، فابتسمت له وكررت سؤالها: «ما هو هذا الطلب؟ ألن تخبرني؟»

أفلت خصلات شعرها وعاد خطوة إلى الوراء وهو ينظر في عينيها، وقال لها: «الحجاب، أريد أن ترتدي الحجاب»، وأردف: «لا أريد أن يرى جمالكِ إلا أنا، وهذا حقي شرعًا، أريد حجابًا يحجب جمالكِ عن جميع الرجال».

من صدمتها ممَّا قاله، وقع المنديل من يديها فأحنت ظهرها لتلتقطه وهي تفكر بما قاله، وقد أصابها ارتباك وقلق، نظرت إليه، وقد بدت علامات الدهشة واضحة على ملامح وجهها، وقالت له: «إن شاء الله»، ثم أدارت وجهها عنه وفتحت صنبور المياه وعادت تغسل الأواني، وتكمل عملها مليئة بالأفكار وهي تحدث نفسها: «الحجاب! لماذا الآن؟ وكيف سيبدو هذا الحجاب على وجهي؟»

أما هو فعاد إلى غرفة المعيشة، والحيرة تملأ قلبه، فهو لا يحب إجبارها على أمرٍ ما، وفي ذات الوقت فإنه يعي تمامًا أن الحجاب يجب أن يكون عن حب واقتناع.

في اليوم التالي، وبعد أن ذهب الملاك إلى عمله، وبعد أن أنهت ختام أعمالها المنزلية اليومية، توجهت نحو غرفة نومها، فتحت دولاب ملابسها، وأخذت تلقي نظرة هنا وهناك وتبحث بين ثيابها، فقد تذكرت أن لديها شالًا قد اشترته لها شقيقتها خولة منذ عامين، وقد أحضرته معها، أخذت تبحث وتبحث حتى وجدته، أمسكت به تعاينه ثم وضعته على رأسها، كان شالًا صغيرًا جدًّا، لم يكن ليغطي الرأس بأكمله، أخذت تحاول تعديله بالشكل الذي يغطي شعرها، وبينما هي كذلك، رن جرس الباب، وقد كانت أم حسين جاءت لزيارتها واحتساء القهوة معها، جلستا في غرفة المعيشة وأبناؤها من حولها يلعبون، وأخذت تحدث أم حسين عمَّا جرى أمس، وقد تحمست أم حسين كثيرًا للفكرة، وأخذت تقنعها بأنها عفة وإيمان وقرب من الله، وتوجهت إلى شقتها وأحضرت عددًا لا بأس به من الحُجُب الملونة، أمسكت بواحد وضعته على رأس ختام وهي تجلس مقابلها وتعدل به، وتخفي خصلات شعرها وقد عقدته من الأمام، أبعدت رأسها قليلًا، وكأنها تحاول أن تمعن النظر بشكل ختام الجديد بالحجاب، ثم نهضت من مكانها، وقالت لها: «ما شاء الله، أنتِ جميلة به وبدونه». أمسكت ختام الحجاب من مكان العقدة وتوجهت نحو المرآة تتفحص شكلها، وما إن نظرت إلى المرآة حتى ابتسمت ورددت على مسامع أم حسين: «إذن أنا من هذه اللحظة امرأة محجبة»، وما إن أكملت حديثها حتى راحت أم حسين باتجاهها وعانقتها قائلة: «مبارك يا أم شادي».

لقد كانت أم حسين تخفف عنها كثيرًا في رحلة غربتها، لا تتردد في استشارتها في أمور حياتها، فقد كانت تكبرها بسبع سنوات وأكثر خبرة منها، كما أنها هي الأخرى لا تتردد في تقديم المشورة

لها، بل دائمًا كانت لها العون والمعين، ومنذ ذلك اليوم أخذت ختام عهدًا على نفسها ألا تخرج من البيت دون حجابها، فكانت ترتدي فساتين فضفاضة تصل إلى قدمها، وتغطي شعرها بالحجاب، وقد خلا وجهها دائمًا من الزينة، لقد شعر الملاك بسعادة بالغة حقًّا حين أخبرته بقرارها، وما أسعده أكثر، كونها لم تأخذ وقتًا طويلًا كما كان يظن.

وقد أخبرتها أم حسين في ذلك اليوم عن السوق المتنقل، أو كما يُعرف باللهجة العامية بـ «الليلام»، وأنه حين يحضر ستستطيع ختام شراء ما تريد منه، أو كما قالتها: «سوق النساء».

وقد حدث بعد أيام، أن كانت في منزلها وفي ضيافتها أم حسين حين طرق «الليلام» الباب، ترددت بادئ الأمر في أن تفتح له، إلا أن كلام أم حسين عنه، ووجودها بحد ذاته، شجعها لفتح الباب له، كان رجلًا أسيويًّا، ما إن فتحت له الباب حتى جلس على الأرض، وفتح الصُّرة وبدأ يعرض ما لديه من ملابس ومكياج وعطور، كانت تجربة جديدة وممتعة بالنسبة لختام، فهي ابنة الريف، التي اعتادت النزول إلى المدينة فقط قبل كل عيد مصطحبة شقيقاتها معها لشراء ملابس جديدة، واحتياجات أخرى، والتي تبعد عن منزلهم كثيرًا، فكُن يتوجهن إلى محطة الحافلات في القرية لتوصلهن إلى المدينة، أي ما يعني احتياجهن لقضاء ساعات خارج المنزل، اليوم تجد السوق قد قدم إليها لتشتري ما اشتهت نفسها.

بعد مضي عامين، انتقلت ختام وزوجها وأبناؤها للعيش في المدينة الفاضلة التي لطالما رددت أنها مدينة أفلاطون، فقد تميزت بشوارعها النظيفة ومساكنها المتشابهة ذات الطابع الحديث، فهي كالحلم الذي تتمنى تحقيقه على أرض الواقع، مجمع سكني قائم على فكرة تحالف الشعوب معًا في مكان واحد، تجمعهم مبادئ الفضيلة، حيث تتحقق السعادة لكل سكانها، فالاختلاف فيها ليس اختلافًا في مظهرها العمراني والمستوى الحضاري والسكاني والأداء الخدمي بأرقى مستوياته فحسب، بل الاختلاف في لغات وثقافات وديانات مَن يقطنونها.

ومع هذا كان كل سكان المدينة الفاضلة أفراد عائلة واحدة، فها هي تجلس مع جاراتها يتبادلن الأحاديث وأطفالهن يلعبون بالقرب منهن بكل أمان، فلا خوف ولا هلع، وها هو يقف في ساحة المسجد مع زملائه وترتسم البسمة على وجوههم جميعًا، فكل واحد منهم من قُطر مختلف، فتجد الباكستاني والهندي والصومالي والمصري والمغربي ومن كل أقطار العالم، جميعهم تركوا أوطانهم متجهين إلى هذه المدينة الفاضلة سعيًا لحياةٍ أفضل، جميعهم مغتربون؛ لذا لجأت ختام إلى تكوين العديد من الصداقات ليُهونَّ عليها وتهون عليهن غربتهن.

هذه هي حالها في هذه المدينة، مغتربة بعيدة عن وطنها، حيث تركت أهلها وذكرياتها فيها، فباتت لها هذه المدينة وطنًا جديدًا.

لطالما أحبَّت هذه المدينة، ليس لاختلافها فحسب، بل لأنها قضت فيها فترة طويلة من حياتها، ولعلها كانت أكثر من نصف عمرها، لم تكن تملك رصيدًا في البنك، ولم تكن لديها سيارتها الخاصة، أو حتى خادمة تساعدها في أعمال المنزل، بل كانت امرأة بسيطة، تحب الحياة وكل ما هو جميل، وتحب أبناءها وزوجها، امرأة مفعمة بالأمومة.

هنا في المدينة الفاضلة، كبر أبناؤها وترعرعوا، وكبرت هي معهم؛ درسوا، لعبوا، وتزوجوا وأنجبوا وصارت هي جدة، شغبهم أيام الدراسة، ألعابهم الطفولية التي لا تستقر على حال، شجاراتهم التي لا تكاد تنتهي، وشاية أحدهم بالآخر كان بالنسبة لها كل شيء، لم تحرم نفسها منهم ولم تنشغل عنهم إلا بهم، كانوا شغلها ومسؤوليتها والتزامها وذاتها، هم ثمانية: أربعة ذكور وأربع من الإناث، توالوا على حياتها، حتى صاروا كل حياتها، لقد ركزت جُل اهتماماتها على زوجها وأبنائها، وقد علمتها الحياة الأساليب التي ساعدتها في التغلب على مشاق الحياة، لقد تركت مهنة التدريس التي كانت تحبها جدًّا ملبية رغبة زوجها، وتقبلت الواقع بأن الحياة أخذتها إلى مكان آخر، وجعلتها ربة منزل مجدة تعتني بأبنائها وزوجها وتشرف على مسؤوليات منزلية لا نهاية لها.

لم تكن امرأة عادية، بل كانت آلة دقيقة، كانت المديرة البارعة التي تحسن إدارة كافة أعمالها اليومية بدقة ومهارة عالية، فهي الزوجة والأم والأخت والصديقة والجارة الودود.

ولم يكن هذا مزعجًا بالنسبة لها، بل كانت حريصة على إتمام أدوارها على أكمل وجه، فكانت لزوجها الزوجة الصالحة المطيعة، ولأبنائها الحب والحنان والقلب الدافئ، ولإخوتها المعين والملجأ، ولجاراتها الصديقة المحبة، التي لا تتردد في تقديم العون والمساعدة لهن وقت احتياجهن، خفيفة الحضور عذبة اللسان، تفرح بأبسط الأمور، كانت ذات وجه ملائكي، ولسان عذب، بطيبة قلبها وبساطتها، تجعل كل مَن حولها يرغب في التعرف عليها، وما إن يحدث ذلك حتى يقتربن منها أكثر فأكثر، لدرجة أن كل سكان المدينة تقريبًا يعرفنها ويتحدثن عنها، فلم يزدها العمر إلا جمالًا ونضجًا، فكانت نموذجًا للمرأة المتعلمة المثقفة المحافظة على بيتها وزوجها وأبنائها.

في بداية حياتهما الزوجية في الجزيرة، وكونها كانت أكثر استقرارًا عن سابقها، بدأت تتكشف أدوارهما الزوجية، فكان لا بد من توزيع عادل بينهما للمسؤولية، خاصة أنها كانت حاملًا، ولديها ثلاثة أطفال في سن متقاربة، فبدأت المشاكل بينهما تطفو على السطح رويدًا رويدًا، فهو شخصية

منظمة جدًّا، أما هي فلم تكن تملك من الوقت ما يكفيها لتنظيم كافة أمور المنزل كما يحب هو، ولم تعتد عليه سريع الغضب والانفعال، ولعل المسؤوليات والغربة هي مَن أظهرت هذا الشخص العصبي القابع بداخله، فكان لا يتردد بتكسير أي شيءٍ يراه أمامه حين يغضب ويبدأ بالصراخ، في بادئ الأمر لم تتقبل عصبيته وغضبه، فكانت تجهش بالبكاء، قبل أن تدرك كامرأة ذكية كيفية التصرف معه، فأصبحت حين يثور غضبًا تنسحب من أمامه إلى أن يهدأ، وبعد مضي الوقت، تحاوره بلطف، وتستخدم معه أرق الكلمات، فتخفف من ثورته بتعابير وجهها السمحة، ونبرات صوتها الودودة، وسرعان ما تحرك بداخله فيضًا من الأحاسيس الثرية الدافئة تجاهها، فكانت له كل النساء، تحتويه وترعاه وتتحمله، وأحيانًا توجهه بذكاء، ولم تكن وسائل الاتصال في ذلك الوقت كما يومنا هذا متاحًا بينها وبين والدتها وشقيقاتها، فلم تكن تشكو همها سوى لصديقتها الأقرب نعمة.

(12)

حين انتقلت للعيش في المدينة الفاضلة كان السكون يحتل قلبها، ولم يطرق فحيح الثعابين مسامعها، سكنت في فيلا ضمن فلل المجموعة (F) حيث كانت الفلل في المدينة الفاضلة موزعة إلى مجموعات، كل مجموعة ذات طابع واحد، وتحمل حرفًا من الحروف الإنجليزية، وكان يفصل بينها وبين فيلا أم حسين أميال قليلة، فقد تركت أم حسين الجزيرة وسكنت في المدينة الفاضلة قبلها بثلاثة أشهر، كانت فلل هذه المجموعة فللًا متشابهة، ومتراصة بجانب بعضها البعض، لكل فيلا جراجها الخاص ومدخل بباب حديدي، تتألف من طابقين، في مدخل الفيلا يقابلك ممر ينتهي بسلم صغير بثلاث درجات، وباب الفيلا الرئيسي، وهو باب خشبي بنقوش مميزة، في الداخل ممر مربع الشكل ذو أربع منافذ وسلم، المنفذ الأول من اليمين هو المطبخ، يليه مخزن أسفل السلم الذي يأخذك إلى غرف النوم، أما المنفذ الثالث والرابع لغرفة المعيشة وبجوارها غرفة الضيوف التي تحوي شرفة مطلة على حديقة صغيرة، كان قد اهتم بها الملاك، وزرع في أطرافها النعناع، والريحان، والبقدونس، وترك مساحة مبلطة لأطفاله للعب، أصواتهم وضحكاتهم في كل مكان يجتمعون سويًّا للعب هنا وهناك، أبناء فريد معهم مجتمعون يلعبون بأرجوحة صنعها لهم الملاك بحبلين معلقين بأعلى سقف الحديقة، يتأرجحون عليها ويمرحون.

لقد كانت ختام امرأة مفعمة بالحياة تمثل صورة المرأة التي يرغب بها كل رجل زوجة له، فهي تلك المرأة المطيعة التي لا تتردد في تلبية طلبات زوجها دون نقاش وتتحمل مزاجه وغضبه كثيرًا من الأحيان دون عناد، لقد كان لها اثنان من الذكور وأربع من الإناث في هذا المنزل، وكانت أعمارهم متقاربة، كانت تحرص على لمتهم حولها دائمًا لتناول الطعام معًا، فترى سعادتها بوجودهم حولها، ولم تكن السيطرة عليهم في هذا العمر أمرًا سهلًا عليها وخاصة في غياب زوجها ساعات طويلة في العمل، إلا أن وجود جارتها أم حسين خفف عنها العبء والمسؤولية، فكثيرًا ما كانت ترسل بناتها للعب في بيتها، وكُن ما بين عشر وأربع سنوات، فقد كان أبناء أم حسين أكبر سنًّا من أبنائها، فكُن يساعدنها كثيرًا ويفرحن بوجودها وأبنائها.

أيام من الراحة والسكينة خالية من مشاعر الرعب والخوف، قبل أن يقطعها حدثان مؤلمان، فذات يوم من أيامها في هذا المنزل، حدث أن استيقظت مفزوعة وقد أيقظت الملاك على صراخها، وقصت عليه رؤياها، فقد رأت عمته نفيسة في فناء منزلهم في فلسطين تحفر الأرض وقد بدا وجهها مخيفًا جدًّا، وكان تحتها تراب رطب أخذت تلقي به هنا وهناك، لترى ختام نفسها تخرج من

هذه الحفرة واستيقظت بعدها، هوَّن عليها الملاك قائلًا لها: «استعيذي بالله ممَّا رأيتِ، قد يكون من أثر عشاء أمس، عودي إلى النوم، لعله خير»، عاد هو لنومه، أما هي فقد أخذت وقتًا طويلًا تفكر برؤياها قبل أن تخلد إلى النوم، وفي الصباح وبينما كان الملاك في عمله قصَّت ما رأته على أم حسين، بينما كانت في زيارتها والتي فسَّرت لها ما رأت بحسب ما سمعته، وما تعرفه أن هذه المرأة، أي العمة نفيسة، تكيد لها مكرًا، وظلت رؤياها وكلمات أم حسين تشغل بالها، انتهت من إعداد وجبة الغداء، واطمأنت إلى أن صغيرتها ذات العامين قد نامت، أرادت أن تأخذ حمامًا هانئًا كما اعتادت، فتركت صغيرتها تغفو في مجلس المنزل، وأخبرت ابنتها الكبرى للبقاء بجانبها، والاعتناء بها إذا استيقظت، كانت أكبر بناتها شيرين تبلغ من العمر عشر سنوات حينها، الوضع هادئ والأمور تسير على ما يرام، إلى أن تزعزع هذا الهدوء في لحظة، فتحول المشهد الجميل إلى النقيض تمامًا ليترك أثرًا وذكرى بائسة حتى يومنا هذا، فقد دخلت إحدى جاراتها إلى المنزل لزيارتها، ومن الطبيعي كونها صديقة قريبة منها اتجهت إلى المطبخ، وأعدت الشاي ثم وضعته في غرفة المعيشة، وعادت مرة أخرى إلى المطبخ، ولم تدرك للحظة أن الأمر سيتحول إلى لحظات ندم شديدة بعدها وينقلب الحال، أما ختام فكانت تجفف شعرها في الأعلى وهي بكامل استرخائها، فلم يُعلمها أحد بأن جارتها بانتظارها، وبينما هي كذلك تنظر في المرآة أحست بأنها لمحت شيئًا مر في الخلف بدا أسود في المرآة، فالتفتت إلى الخلف لترى ما عساه أن يكون، وما هي إلا لحظات لتهرع نحو السلم حيث الصراخ هزَّ الأرض تحت قدميها، فصرخات صغيرتها تتعالى، وصرخاتها هي الأخرى من هول ما رأت، فقد صدمها منظر طفلتها وهي تبكي وتصرخ، والكل يقف بصمت من هول المنظر، أمسكت جارتها طفلتها الصغيرة وجرت بها إلى المطبخ، لقد احترقت يدها اليسرى، فقد انسكب الشاي الساخن عليها، وما بين غمضة عين وانتباهتها يُغيِّر الله من حالٍ إلى حال، فسرعان ما تحول المشهد من هدوء وسكينة وراحة بال إلى فاجعة استمر أثرها إلى عدة أسابيع، ومع أن آثار الحروق على يد صغيرتها حتى يومنا، لكن قوة إيمانها بالأقدار ووجود أم حسين بجانبها خفف عنها، وبعد ساعات عادت من المستشفى وقد هدأت بعض الشيء بعد أن أطفأت دموعها نيران حزنها الذي آلم قلبها على ما جرى لابنتها، جلست على سريرها تفكر وتفكر بما حدث، تذكرت ما رأته في المرآة، نهضت على الفور وتوجهت نحو غرف النوم واحدة واحدة، تبحث بها عن شيءٍ لا تعرف ما هو، أبناؤها نائمون وصغيرتها بين يديها، حتى تعبت من البحث عن شيءٍ تجهل ما هو، وجلست في غرفة الضيوف تفكر برؤياها ووجه نفيسة القبيح، أخذت تستعيذ بالله منه، وتنتظر قدوم زوجها من عمله، كادت تصاب بالجنون، كيف ستخبره بما حدث،

وأخذت تحادث نفسها: ماذا عساه أن يفعل؟ كيف ستخبره؟ تساؤلات كثيرة أرهقت عقلها ودفعتها للإسراع نحو صغيرتها فحملتها واتجهت بها نحو باب المنزل حيث دخل زوجها، وبمجرد أن ألقى عليها السلام، وقع نظره على يد صغيرته، فأخبرته على الفور بما حدث، غضب غضبًا شديدًا، وانصرف نحو غرفته رافضًا محادثتها، ومع مرور الأيام، عادت الأمور إلى ما كانت عليه ولم تتردد لحظة في تهوين الأمر على جارتها، التي أخذت تلوم نفسها على ما حدث، أما الملاك فما زاده الموقف إلا إيمانًا بالله، وأنه إذا وقع القدر عمي البصر، فلا فائدة من اللوم، فقد حصل ما حصل، فلعله درس من دروس الحياة أُضيف إلى خبراتها وزادها خبرة وتمكينًا من رعاية صغارها، أما هي فلقد ظلت فترة من الوقت تشعر بحزن شديد وخوف من المجهول، ولعل كلام أم حسين وتفسيرها لرؤياها من بحثها في كتب تفسير الأحلام أكَّد لها أن نفيسة مكرت مكرًا لها، ما جعلها تفكر بها من جديد وتشغل بالها، فهي تجهل سبب هذا المكر الذي لم يقف هنا.

مرت خمسة أعوام على وجودهما في المدينة الفاضلة، كان خلالها الملاك قد اكتسب احترام وتقدير كل مَن عرفه، وقد ظل على اتصال وتواصل بأهله وأقاربه جميعًا، لا يتردد في السفر مع عائلته في الإجازة الصيفية لزيارة أهله، ولترى ختام والدها ووالدتها وأهلها جميعًا، كان اليوم الذي يصلان به إلى القرية يومًا مفعمًا بالحيوية بالنسبة لملاك، أما هي فكان كل ما يقلقها عودة أصوات الثعابين ورؤيتها، وخاصة حين تنزل ضيفة في بيت أبي الملاك، الذي أصبح طابقين، فقد سكن شقيقه عامر الطابق الثاني وتزوج من شقيقتها نجوى، كانا يمضيان إجازتهما بسعادة بالغة ينتظران قدومها بفارغ الصبر للسفر إلى القرية، كان والد الملاك سعيدًا جدًّا بعمله في الدكان، كان به القليل من البضاعة التي تقضي احتياجات سكان الحارة في القرية، إلا أن والده جعل منه ديوانًا يجتمع أمامه أصدقاؤه ويتبادلون الحديث ويقضون وقتهم معًا.

في إجازتهم في القرية يجتمع الجميع على طبلية الطعام في ساحة بيت أبي الملاك، وتنضم إليهم نجوى وأبناؤها وشقيقتا الملاك فاطمة وسهى، أما ميس فتزوجت من ابن عمها وسافرت معه إلى الأردن، وكان أن زارها الملاك وعائلته وأقام عندها يومين قبل الذهاب إلى القرية.

كانت ختام خلال إجازتهما بين الحين والآخر تذهب لزيارة والديها وتقيم عندهم بضعة أيام، كانت هي الليالي الوحيدة التي تخلد فيها إلى النوم، فحين تعود مجددًا إلى بيت خالتها يقلقها صوت فحيح الثعابين وخاصة في غرفة نومها قرب البئر، ولعل قلقها من هذا الأمر دفع بها كثيرًا لسؤال الملاك مرارًا وتكرارًا إن كان يسمع صوت ثعابين، بل سألت ابنها شادي إن كان يسمع شيئًا، ولكن لا أحد يسمع ما تسمعه هي من أصوات، ولعلها كثيرًا ما حاولت السير في حديقة المنزل خلف

غرفة نومها والبحث هنا وهناك علَّها تجد مصدر الصوت.

في تلك الإجازة تزوجت شقيقة ختام الأصغر من نجوى وتُدعى مها، وسافرت مع زوجها إلى المملكة العربية السعودية، حيث أقامت في مدينة الرياض، وكان أن جلس الملاك مع والده للحديث عن شقيقه عاهد الذي أغضب والده بزواجه من إحدى النساء في العراق، والتي كانت تكبره سنًّا رغم رفض والده وإلحاحه عليه مرارًا بالعودة إلى القرية، إلا أن عاهد رفض وعاند والده وتزوج دون رضاه، وحين علم الملاك بالأمر كان في المدينة الفاضلة، وقد حاول التدخل ومحادثة عاهد أكثر من مرة ليعود عن قراره حتى لا يغضب والده، وبالمقابل تحدث مع والده مرارًا علَّه يرضى عن ابنه ويبارك زواجه، ولكن دون جدوى، ولعل الأيام أثبتت لملاك أن والده كان محقًّا في رفضه، فقد كانت زوجته قدم نحس عليه، ونظرًا لاختلاف عاداتها وتقاليدها عن عادات وتقاليد أهل القرية فقد سبَّب هذا العديد من الصدامات والمشكلات بينها وبين أم الملاك لاحقًا حين استقرَّا معها في البيت.

بعد انتهاء إجازتهما الصيفية أخبر الملاك والده برغبته في أن يرسل له وأمه تأشيرة زيارة ليمضيا وقتًا معهما في المدينة الفاضلة، ولم يتردد والده بالموافقة، وبعد مضي ثلاثة أشهر، وتحديدًا في فصل الشتاء حين أصبح الطقس لطيفًا في الإمارات، كانت الزيارة الأولى ولعلها الأخيرة لوالده، لم يكن يعلم خلالها الملاك كيف له أن يسعدهما، فقد كان يصطحب والده معه إلى المسجد وإلى كل مكان يذهب إليه، وهي كذلك مع والدته، فقد عرفتها على جاراتها وكانت ترافقها في كل زياراتها، واصطحب والديه لرؤية الشاطئ والحدائق، وكل مكان وأي مكان، فلم يمضِ يوم دون أن يكون هناك نشاط للقيام به، مرَّ ثلاثون يومًا كلمح البصر، وحان اليوم الذي سيعودان فيه إلى القرية، في الصباح ودَّعت ختام خالتها وعمها، فقد أصرت على البقاء في المنزل، ولكنها لم تكن تعرف أن كل ذلك بترتيب الأقدار.

ودعهم الجميع بالعناق والقُبل وركبا في سيارة الملاك متوجهين جميعًا إلى المطار الذي يبعد عن المدينة الفاضلة 250 كيلو مترًا تقريبًا، بعد أن غادر الملاك بصحبة والديه إلى المطار، تلقت ختام مكالمة هاتفية من عائلته في الخارج، كان على الهاتف عامر شقيق زوجها، قال لها: «السلام عليكم، كيف حالكم؟» ردت بسعادة بادئ الأمر قائلة: «وعليكم السلام، نحن جميعًا بخير، والدك ووالدتك ذهبا مع الملاك إلى المطار».

هدوء خيم على المكالمة، قالت: «آلو، آلو عامر، أنت تسمعني؟»

رد عليها بصوتٍ حزين: «نعم أسمعك، سهى توفيت، والدفن اليوم بعد صلاة العصر»، قال هذا وأغلق الهاتف على الفور.

خيم الخوف والحزن على ختام، هل ما سمعته حقيقي، سهى أخت زوجها ذات السبعة عشر ربيعًا توفيت، هل هذا ما قاله عامر حقًّا؟

توجهت ختام نحو غرفتها وأغلقت الباب خشية أن يراها أحد أبنائها وارتمت على سريرها، ودخلت في نوبة بكاء شديد، كم كان وقع هذا الخبر قاسيًا عليها! كيف لها أن تتمالك نفسها أمام صغارها وقد أحرق الخبر قلبها ألمًا؟ وهي التي اشترت لها الكثير من الهدايا وخصتها بسلسلةٍ من الذهب، فهي تحبها كثيرًا، كيف لها أن تخبر زوجها وهو بغاية السعادة لما أدخله من بهجة في نفس والديه خلال إجازتهما؟ كيف لهما بعد هذه السعادة أن ينتظرهما شيء بقسوة الموت؟ لقد تركاها وفاطمة شقيقتها الأصغر سنًّا لأول مرة وسافرا، فكيف ودَّعاها وهي بكامل قواها وبصحة جيدة على أمل اللقاء القريب، ليكون هذا الوداع هو الوداع الأخير، دموع وحزن شديد أَلَمَّ بقلبها، وأصبحت بداخلها حيرة قاتلة وترددت كثيرًا كيف ستخبر زوجها بهذه الفاجعة؟ وبعد تفكير عميق قررت أن تنتظر عودته من المطار، فقد خشيت أن يُصيبه مكروه وأمامه طريق سفر، أخذت تتذكر سهى وجمال وجهها، فقد كانت تصفها دائمًا بحورية البحر لشدة زرقة عينيها وبياض وجهها، وتذكرت يوم زواجها كيف كانت سهى ذات الخمسة الأعوام طفلة صغيرة تقف كل صباح أمام باب غرفتها تنتظرها هي وزوجها ليحملاها ويلاعباها، لقد كانت سهى منذ نعومة أظافرها طفلة غير عادية، لم تكن تبكي كثيرًا كبكاء الأطفال الآخرين، قليلة الكلام هادئة الطبع، أصيبت بالتهاب مزمن في الكبد، ولم تكن تشتكي ألمًا أبدًا، فتوفيت دون أن يعلم بحالها سوى خالقها.

ذرفت ختام على رحيلها الكثير من الدموع، لم تستطع تحمُّل حجم المصاب، ارتدت حجابًا على رأسها غطَّت به شعرها، وتوجهت على الفور نحو بيت أم حسين، طرقت الباب، وإذا بابنتها مي تستقبلها وقد أصابها الخوف حين رأتها تذرف الدموع، فركضت تنادي والدتها التي ما إن رأت ختام تقف أمام الباب حتى اقتربت منها وعانقتها، وأخذت تخفف عنها، وسألتها: «ما بكِ يا ختام؟ ماذا حدث؟» أجابتها بصعوبة: «لقد توفيت سهى شقيقة الملاك»، كانت أم حسين قد تعرفت على والدة الملاك ووالده، وقد دعتهما أكثر من مرة إلى بيتها وخرجوا سويًّا في نزهة إلى إحدى الحدائق في المدينة الفاضلة، لقد تأثرت كثيرًا بما سمعته، ولكنها أخذت تهون الأمر على ختام، وجلست تحدثها وتخفف عنها، وبعد ساعات عادت ختام إلى البيت، تستعد لعودة زوجها، فقد أدركت أنها لا بد من أن تتمالك نفسها وتقوي زوجها وتصبره على هذا المصاب.

عاد الملاك إلى المنزل، بدا على وجهه الحزن الشديد، اقترب منها وأسند رأسه على كتفها وأجهش في البكاء، فقد اتصل بأخيه من الهاتف العمومي في المطار، ليُخبره بصعود والديه إلى الطائرة وموعد وصولهما، فأخبره أخوه بأن سهى قد توفيت صباح اليوم، علت الدهشة وجه ختام، ولم تسأله شيئًا، فقط اكتفت بمعانقته.

في ذلك العام وبعد عودة والديه واستقرار الحال ولو لقليل من الوقت، كان الملاك وختام يجلسان أمام التلفزيون في غرفة المعيشة، وجميع أبنائهم في غرف نومهم، وما هي إلا لحظات حتى عكَّر صفو هدوئهما جرس الهاتف، حيث أخبروا الملاك بوفاة والده، والذي بدوره أسرع وبدل ثيابه متوجهًا نحو المطار، حيث حجز تذكرة إلى الأردن متوجهًا بعدها نحو القرية لرؤية والده للمرة الأخيرة ووداعه، لقد توفي والد الملاك حزنًا وقهرًا على سهى، فقد كان شديد التعلق بها، ولعله كما كان يقول دائمًا: «انتهى أجله».

لقد كان الملاك الأقرب إلى والده، ولعل حياته كانت تسير بسلام وطمأنينة برضا والديه، فبعد وفاة والده شعر الملاك بأن المسؤولية التي لطالما حملها على كتفيه منذ صغره عادت من جديد لترهقه، وأخذ على عاتقه الاهتمام بشقيقته الصغرى فاطمة، واستمر بمتابعة كافة مصاريفها إلى أن حصلت على شهادة البكالوريوس، وكذا والدته، التي لم يتخلَّ عنها، بل استمر بوصلها وحافظ على رضاها، وقد حدث أن بعث لها في ذات العام تأشيرة زيارة لتصطحب معها فاطمة، وتقضي وقتًا في المدينة الفاضلة بجانب ابنها الأغلى على قلبها الملاك.

مر الملاك بعد وفاة والده بلحظات عصيبة قاسية عليه، فلم يكد يستيقظ من فاجعة فقده لشقيقته حتى فقد والده، ولكونه قليل الكلام والشكوى لم يكن يحدِّث أحدًا عمَّا يشعر به، يكتم مشاعره ووجعه عن ختام، أصبح عصبيًّا حاد الطباع، يثور غضبًا لأقل الأسباب،
لا يستطيع التحكم بغضبه، وكونها امرأة ذكية، كانت تبذل مجهودًا كبيرًا لامتصاص غضبه، وتردد كثيرًا أمامه: «الله يهديك يا زوجي ويصلح حالك ويهدي بالك».

فكانت دائمًا توجد له مبررات وأعذارًا، ولا تتوانى عن عناقه ومحاولة تهدئته والتحدث إليه، ليبدأ صراعه مع الصداع، صداع سيطر على رأسه وتمكن منه وغيَّر حياته، ألم شديد في رأسه مستمر، وألم لا يخف حتى مع تناوله للأدوية والمسكنات، ولطالما كان يقنع نفسه أنها ضغوطات نفسية سرعان ما ستذهب، كان يحاول ربط رأسه لتخفيف الألم أو الخروج للمشي، ولكن دون جدوى، قرَّر بعدها تناسي الألم والتعايش معه.

مرت الأيام ورشحت الشركة - مقر عمله - اسمَه للذهاب مع حملة لأداء مناسك العمرة، كان الطقس في ذلك الوقت حارًّا جدًّا، لكن حلمه أن يزور الكعبة المشرفة وأن يؤدي مناسك العمرة كان أقوى من أي شعور، اشترى ملابس الإحرام، وجهز حقيبته واستعد للسفر، ومن ثمَّ أخبر ختام التي لم تتفاجأ أنه يخبرها قبل ساعات من سفره، فقد اعتادت على مفاجآته، ودعها وودع أبناءه وصعد إلى الحافلة التي ستأخذه ورفاقه إلى هناك، وقد كان الصداع رفيقه الملازم له أيضًا، والذي لم يهدأ إلا أثناء أدائه للعمرة، ولعل السبب يرجع إلى ارتفاع الحرارة الذي جعله يتجاهل الألم حتى اختفى، أدى مناسك العمرة وعاد إلى المدينة الفاضلة وقد كانت رحمة ربه كبيرة، فقد هدأت نفسه وتمكن منه السكون. بعد ثلاثة أشهر من عودته إلى المدينة الفاضلة عاد الصداع من جديد، ولعله أحسَّ به أقوى من ذي قبل، فقرر حينها الذهاب إلى المركز الطبي لإجراء الفحوصات اللازمة ومعرفة سبب هذا الصداع، وقد أخبره الطبيب بعد أن أجرى له الفحوصات بأنه يعاني من ارتفاع ضغط الدم، الذي يُعد مرضًا وراثيًّا، فتاريخ عائلته حافل بارتفاع ضغط الدم، وأبرزهم والدته ووالده، ومنذ ذلك الوقت وهو يأخذ علاجًا له مدى الحياة.

كانت هذه الأحداث عام 1988، وقد انتهى هذا العام بانتقال صديقة ختام أم حسين للإقامة في منطقة نائية تبعد عن المدينة الفاضلة 150 كم تقريبًا، إلا أن علاقتهما وتواصلهما ظل مستمرًّا، وتعرفت ختام بعدها على جارات جدد كُن من جنسيات مختلفة، واستمرت علاقتها بهن حتى بعد مغادرتها المدينة الفاضلة.

في صيف عام 1991 كانت خولة شقيقة ختام وزوجها قد تركا الكويت واستقرَّا في الأردن في أعقاب الغزو العراقي للكويت، وكذلك شقيقة ختام أم راشد، التي استقرت أيضًا بجانب شقيقتها أم محمد بمحافظة الزرقاء، ولعل هذه الإجازة كانت حافلة بالمفاجآت بالنسبة لختام التي سعدت بلقاء شقيقاتها بعد سنوات، وقضت أيامًا في الأردن بينهن قبل أن تغادرها إلى فلسطين لزيارة والدتها ووالدها، وتقضي الوقت مع شقيقاتها وأقاربها وكذا الملاك، في هذه الزيارة أصرت نجوى عليهم للبقاء في منزلها الذي يقع في الطابق الثاني من بيت أبي الملاك، وقد بدا فحيح الثعابين الذي اعتادت عليه ختام أخف وطأة عن السابق دون أن تعرف ختام سببًا لذلك، أو لعلها لم تكن تملك الوقت الكافي للتفكير بالأمر، فقد بدأ الملاك في هذه الإجازة التخطيط معها لاختيار الموقع الذي سيبني عليه الملاك بيته الذي لطالما حلم به، وعهد إلى أخيه عامر متابعة أعمال البناء، في هذا العام حين ودَّعت ختام والدها أحسَّت بشيءٍ يقول لها: إنه الوداع الأخير، كانت تقف بساحة بيت والدها بالقرب من البئر، حيث تجلس والدتها، ودَّعت والدتها ووالدها وعانقته بشدة وانهمرت

دموعها وتوجهت مغادرة البيت تسير على المنحدر تلتفت إلى الخلف مرات عدة، حيث يقف والدها مودعًا إياها حتى اختفى عن ناظرها ليصدق حدسها ويغادر والدها الدنيا بعد شهور من مغادرتها القرية، وقد عانت على أثر وفاته من صدمة نفسية استمرت عدة أشهر، قبل أن تعيش تجارب أكثر قسوة وأشد صدمة.

(13)

بعد فترة من الزمن انتقلت ختام للعيش في بيت المنطقة (X)، مرت حياة ختام فيه بأحداث متنوعة، منها الحزين ومنها المبهج، إلا أنها كانت دائمًا تعتبر نفسها أفضل حالًا من غيرها رغم ما مرت به من أزمات وصعاب.

كان منزلها هذا منزلًا أرضيًّا، عند المدخل الرئيسي تستقبلك مساحات شاسعة على اليمين واليسار، قُسِّمت بطريقة هندسية مبدعة، واحتوت على أصناف متنوعة من الزروع، تشتم بها رائحة الريحان والفل والياسمين والنعناع، وعروش شجرة العنب المعلقة في مدخل البيت تتدلى منها أوراق العنب وثمارها المميزة، أوانٍ موضوعة هنا وهناك، مزروعة بدقة واحتراف، يقابلك سلم وساحة مبلطة وضع ملاك على جدرانها لوحة سوداء، وحامل طباشير للكتابة عليها، ولطالما جلست بناته يلعبن هنا وهناك ويرسمن عليها.

قبل بداية السنة الدراسية كان الملاك يذهب إلى أبوظبي ليشتري الدفاتر المدرسية وأقلام الرصاص والمساطر ولوازم المدرسة بأعداد كبيرة، فقد كان له ستة أبناء في المدرسة بمراحل دراسية مختلفة، ما يتطلب منه التجهيز المسبق لهم، كان يحب العلم كثيرًا ويتابع دراسة أبنائه، ولعل أبرز ما يأتي به من زياراته إلى أبوظبي هو الهدايا المميزة لبناته الأربع، فيشتري لهن ذات الملابس وذات الإكسسوار من ساعات وأساور وكذا الحقائب، البيت يعج بأصواتهم وثرثراتهم وتمتزج فيه رائحة الصمون والزعتر في الصباح والطعام الطيب وقت الظهيرة، لتبدأ ختام مساءها برائحة البخور والطيب.

في كل صباح كانت تستيقظ ختام لتُصلي الفجر، وتبدأ يومها بإعداد الإفطار لأبنائها وتجهز لهم ما سيأخذونه معهم إلى المدرسة، لتناوله خلال الفُسحة المدرسية، في بادئ الأمر كانت تُعد السندويتشات بخبز الصمون، وكان لكل واحد منهم ذوق ورأي مختلف عن الآخر، فهذا يحب الجبنة، وهذا يحب الزعتر، وهي تُلبي طلباتهم بنفسٍ راضيةٍ دون كللٍ أو شكوى، كل صباح تنتشر رائحة الصمون والزعتر والقهوة في أرجاء المنزل، تسير هنا وهناك، توقظ هذا وتساعد هذه في ارتداء ملابسها، وتتأكد من أن الجميع أخذ مصروفه وانطلق، ليحل السكون في المنزل قبل أن يستيقظ صغيرها لتبدأ الاعتناء به، وبعدها تبدأ ترتيب الغرف كافة والتجهيز للغداء، يتخللها زيارة خاطفة لإحدى جاراتها أو زيارة خاطفة من إحداهن، ويمضي الوقت ليعود أبناؤها الواحد تلو

الآخر إلى المنزل، ثم يعود الملاك وتكون قد أعدت له الغداء، وهي في أبهى صورها تستقبله بابتسامتها العذبة، وكأنها أميرة لم تشقَ أبدًا.

اعتادت أن يكون كل شيءٍ بانتظام، فما إن يعود الجميع إلى المنزل حتى تبدأ بتوزيع المسؤوليات على بناتها ليساعدنها بما لم تتمكن من إنجازه في الصباح، ثم تتابع دروسهم إلى أن يحين وقت نومهم؛ لتتأكد أن الجميع في غرفته وعلى سريره، ثم تجلس مع الملاك تستمع إلى أحاديثه ويشاهدان التلفزيون سويًّا.

كان شقيقها الأكبر فريد يسكن وعائلته بجوارها، يقف بجانبها هو وزوجته ويدعمونها عاطفيًّا ومعنويًّا، يبعد بيته عنها بكثير من الأميال إلا أنه لا يمر يوم دون أن تراه، أو يأتي أحد من أبنائه للعب مع أبنائها، فكانت عمتهم ختام بالنسبة لهم أمهم الثانية، يحبون زيارتها والجلوس معها، عاشوا معًا لحظات محفورة في الذاكرة، وأجواء تغمرها المحبة ويسودها التواصل والتراحم.

لقد شاركها فريد وعائلته الأيام التي قضاها في المدينة الفاضلة بحلوها ومرها، فكانت وزوجته تخصصان يومي الخميس والجمعة من كل أسبوع للنزهة والخروج مع أبنائهما إلى إحدى الحدائق في المدينة الفاضلة، كانتا تحضران معهما ألذ الأطباق ويجتمعون في حديقة السيدات، كانتا تضعان بساطًا على الأرض وتجلسان تتسامران وتتبادلان الأحاديث، وأبناؤهما يلعبون من حولهما، كانت الحديقة واسعة جدًّا ونادرًا ما تجد فيها ازدحامًا، كانتا تقضيان أوقاتًا رائعة فيها، أمضوا معًا أوقاتًا ممتعة، فكان فريد لها السند والمعين، عاشوا معًا حياة كريمة بلا مصاعب، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي تحول فيه منزل فريد إلى صناديق جمعت كل ما يحتويه، وحملت ذكريات جميلة، «كركبة» غريبة في منزلهم الذي لطالما تميز بالتحف الثمينة التي كان يحضرها فريد من كل دولة يسافر إليها، في تلك الليلة بدا وجه فريد بائسًا حزينًا، وكذا زوجته وأبناؤه لم يسبق أن كان كذلك من قبل، مشاعر الحزن والألم تعتصر قلبها على رحيله ورحيل عائلته، الخزائن والدواليب فارغة، والكل مجتمع في مكان واحد، بسكون قالت والألم يعتصر قلبها: «أحقًّا ستغادر المدينة؟»

قال لها وعلامات الحزن ظاهرة على وجهه: «نعم سنغادر، مجبر أخاكِ لا بطل».

كان الملاك يستمع للحديث ويراقب عن كثب كل ما يحدث من حوله، لكنه التزم الصمت قبل أن يقطعه صوت بكاء زوجة فريد بحسرةٍ وندم، حينها قال لها: «لا تبكي ولا تحزني، ثقي بالله، وكلامي هذا موجَّه للجميع»، كان ابن فريد المتسبب في الواقعة يقف بجانب والدته خجلًا لا يعرف كيف له أن يخفف من هذا الحزن الذي عمَّ المكان، لم ينطق بكلمة وبعدما استمع لما قاله الملاك،

انسحب بهدوءٍ متوجهًا إلى خارج البيت.

نظر الملاك مجددًا لهم، وهو يبتسم والهدوء يخيم على المكان، ثم قال: «لا بد لنا أن نوطِّن أنفسنا في أيام الرخاء على أن هناك أيامًا عصيبة قادمة لا محالة؛ لأنها دنيا ابتلاء، ولأن الله خلق الإنسان في كَبَد، وأنه إذا أحب عبدًا ابتلاه، إنه ابتلاء من الله، والخيرة فيما اختار الله».

وأخذ يستفسر أكثر عن الواقعة، موجهًا تفكير فريد وزوجته نحو الابتلاء وضرورة الصبر واحتساب الأجر، فليس لابنهم أي ذنب فيما حدث، بل هو القدر.

جاء وقت الوداع، فرغ المنزل من كل الأساسيات، فلم يتبقَّ إلا حقائبهم التي سيأخذونها معهم إلى المطار، دموع وأمنيات لهم بحياة أفضل، لقد كان الشيطان هو المتهم الوحيد في هذه الواقعة، فهو من وسوس لأصدقاء ابنه الكبير بفكره الخبيث المدمر وحرفهم عن السلوك السليم، طيش دفعهم إلى ارتكاب خطأ مخالف للقانون، ورغم أنه لم يكن من المنفذين إلا أنه كان رفيقًا لهم دائمًا، فحين كُشف أمرهم تم استدعاء «الشِّلة» بأكملها، فكان واحدًا منهم، وبمجرد فعل خاطئ ارتكبه فرد من المجموعة يُعاقب الجميع على فعل لم يرتكبوه لمجرد أنهم مجموعة واحدة، ولا سُلطة تعلو على سُلطة القانون، فما بالكم حين يكون هذا التصرف تصرفًا خارقًا للقانون، ولكن مع الوقت أدركت ختام أن هذا ما هو إلا ترتيب من القدر، ولا زوال للعدل الإلهي، فكل فرد مسؤول عند الله عن أفعاله لا يتحملها غيره، وما كان هذا إلا ابتلاءً وامتحانًا من ربٍّ كريم، وبقوة إيمان فريد وصبره أيَّده الله بنصره وردَّ لهم حقهم بعد حين.

لقد ترك رحيل فريد من المدينة الفاضلة غصة في قلب ختام، فكانت كثيرًا ما تمر من جانب بيته وتتذكره وأبناءه، لقد غادر فريد وعائلته المدينة الفاضلة متوجهين نحو الأردن، حيث بدأ حياته من جديد هناك، وفي العام نفسه سافرت ختام وأبناؤها إلى الأردن، والتقته، بل حلَّت عليه ضيفة بمنزله الذي استأجره في العاصمة عمَّان.

(14)

كان عامر يصغر الملاك بعامين، كانا منذ صغرهما متلاصقين إلا أن طباعهما تختلف كليًّا عن بعضهما البعض، فلم يكن الاختلاف بينهما في المزاج والطباع فحسب، بل في كل شيء، وكأن كل واحدٍ منهما نشأ في بيئة وبيت مختلف عن الآخر.

كان عامر طويل القامة، يتميز بلون عينيه الزرقاوين كلون السماء عند شروق الشمس، أما الملاك فمتوسط الطول بعينين خضراوين مشربتين باللون العسلي، كان عامر شقيَّ الطبع شديد القسوة، أما الملاك فكان هادئ الطبع طيب القلب، إلا أنه أصبح لاحقًا عصبيًّا سريع الغضب، وفي الوقت الذي كان فيه الملاك مطيعًا لوالديه لا يتردد لحظة في تنفيذ أوامرهما، كان عامر على العكس تمامًا، يعصي أوامرهما، بل يتفنن في إغضابهما، ولعل ذلك كان سببًا من أسباب تعاسته لاحقًا.

كان في الثالثة والعشرين من عمره، حين تزوج من نجوى شقيقة ختام، وقد أنجب منها اثنين من الصبية، وكان لا يتردد في إيجاد أسباب الشقاء والتعاسة لها، فكان شديد الطبع متسلطًا، أما هي فكانت تخاف منه كثيرًا فلا تتنفس الصعداء إلا في غيابه، ومجرد أن يُقبل عائدًا إلى بيته تتحول إلى آلة تلبي رغباته وطلباته بخوفٍ دون أن يفكر حتى بالاستماع إليها، ومعرفة أي شيءٍ عنها أو عن يومها كيف قضته أو حتى احتياجاتها.

لم يحقق عامر حلم والديه في إكمال تعليمه الجامعي، فلم يكن يحب الدراسة، ولم يكن مستقرَّ الحال، فتارة تجده يعمل حدادًا لدى أحد المصانع في المستوطنات الإسرائيلية، وتارة يريد السفر خارج القرية، فكان دائمًا متخبط الحال لم يعرف يومًا معنى الاستقرار، حتى إن الحظ لم يكن ليحالفه يومًا، فبعد ثلاثة أعوام من زواجه من نجوى أراد السفر إلى الأردن بحثًا عن ذاته، ولم يكن والده راضيًا عن الأمر، وكذلك الملاك الذي كثيرًا ما حاول التواصل معه وإقناعه بالبقاء إلى جانب والديه، ولكن دون جدوى، فقد أصر على السفر، ولسوء حظه، فقد ألقت قوات الاحتلال القبض عليه مشتبهًا به خلال عبوره جسر الملك حسين بن طلال، حيث أراد أن يتوجَّه منه إلى الأردن وألقوا به في سجونهم، حيث مكث فيها ستة أشهر، لا يستطيع أحد التواصل معه أو زيارته، لقد كانت فلسطين في ذلك الوقت تمر بأيام عصيبة، ولعلها كانت في أوج الهجمات الفلسطينية الإسرائيلية في ظل تزايد عدد المستوطنات الإسرائيلية في الضفة الغربية. وما إن خرج عامر من

سجون الاحتلال حتى كان والده قد ودع الدنيا، وذهب إلى دار الحق، وكذا شقيقته الصغرى سهى، ولعل احتجازه في السجن ظلمًا زاد من حدة قسوته على الحياة وغلظة قلبه، فقد غادر والده دون أن يكون راضيًا عنه، وكل هذه الأمور كونت في داخله صراعًا، فلم يكن يتردد لحظة في إيذاء مَن حوله بلسانه أو بيده، ولعل هذا كان أحد أسباب إغلاق الدكان الذي كان لوالده.

فكان يطيل الجلوس وحده في الدكان، وأحيانًا يتركه مغلقًا لوقت طويل، وقد كان على تواصل مستمر مع الملاك، وعلى وفاق معه ليس لطفًا من عامر، بل أسلوب الملاك الواعي في التعامل معه ومع شقيقه عاهد الذي كان في ذلك الوقت في العراق، جعلهما ينصتان له، فكثيرًا ما قام بوفاء ديون عليهما وأمَّن لكليهما ما يحتاجان إليه، فتحسنت أحوالهما لبعض الوقت.

ظل عامر بلا عمل فترة من الزمن إلى أن وجد عملًا في إحدى المستوطنات الإسرائيلية قبل أن تحتله الأمراض، وتجعل منه رجلًا مقعدًا لا يقوى على الحراك رغم صغر سنه، فقد كان حينها في الثلاثينيات من عمره، ولم تكن نجوى كشقيقتها ختام، رغم أنها أيضًا أكملت تعليمها وحصلت على شهادة، إلا أن شخصية ختام كانت مختلفة عن جميع شقيقاتها، فهي طموحة، مجتهدة، واثقة من نفسها، تؤدي واجباتها بحب لا بخوف، وهذا ما لم تعتد عليه نجوى، التي كانت تهاب زوجها، ولم يكن لها من الأمر شيء، لا مع زوجها، ولا حتى أبنائها، فكانت بطبيعتها وحتى قبل زواجها شخصية لوَّامة دائمًا، تلوم نفسها والقدر، وكثيرًا ما تندب حظها وتمضي جُل وقتها في الشكاية وترديد أسئلة سلبية على نفسها، ولعل ذلك ضاعف من أسباب تعاستها، فكابدت ما كابدته من استبداد وقهر وظلم بخضوع ودون اعتراض.

في أحد الأيام، وبعد أن مضت سنوات على زواج عاهد من إحدى النساء العراقيات، استقر في القرية وسكن في بيت العائلة التي تغيرت كثيرًا عن السابق، فقد صعد به أبو الملاك طابقًا علويًّا قبل وفاته ليسكن به عامر وزوجته مؤقتًا، وحين قدم عاهد لم يكن في البيت الأرضي سوى أم الملاك وشقيقته فاطمة التي كانت لا تزال في المدرسة، فاحتل عاهد اثنين من الغرف في الطابق الأرضي، أما والدته فقد أخذت غرفة الملاك، ذات الغرفة التي تزوج بها وختام حيث تقبع خلفها البئر، استمر الخلاف بين عاهد وشقيقه عامر، وكذا نشب خلاف بين زوجة عاهد ونجوى وأبنائها ووالدته، تفتعل المشاكل ولا تحترم صغيرًا ولا كبيرًا، ما تسبب بعد ذلك بالكثير من الأزمات والكوارث، ولعل ما اتصف به عاهد هو انعدام الرحمة في داخله، فقد كانت تصرفاته شيطانية تكاد تنعدم فيها الإنسانية.

في إحدى الإجازات الصيفية التي قضاها الملاك وختام في القرية قرر أن يبدأ في بناء منزل

مستقل له ولأسرته، وقد قام حينها بأخذ موافقات من جميع أشقائه وشقيقاته، وعلى رأسهم والدته بالتأكيد، وكلف عامر بالإشراف على البناء، وفي هذه الإجازة اصطحب الجميع بمَن فيهم عائلته ووالدته وشقيقته وأشقاءه لأرض لهم يُقال لها: البيارة، مزروعة بأشجار الليمون والبرتقال، على امتداد النظر جلسوا هناك يلعبون والنساء تجهز للغداء، والأطفال هنا وهناك يتسلقون الشجر ويقطفون الثمر منه، كان الملاك فخورًا بنفسه وبما حققه مع والده في هذه الأرض، فقد كان قبل أعوام من وفاة والده قد أشرف معه على تجهيز هذه الأرض وزراعتها، وها هو اليوم يجلس مع عائلته يستمتع بإنجازه الذي لم يستمر طويلًا.

لقد كان أن طلب من شقيقيه أن يتعاونا في تكليف مزارعين لجمع محصول البيارة في موسم الحصاد وبيعه، وتقسيم الأرباح بالتساوي بينهما بعد أن يُعطيا نصيبًا مقدرًا منه لوالدته، وكان أن جاء موسم الحصاد، وقد ألقى كل منهما اللوم على الآخر بالتقصير في المتابعة وتكليف المزارعين، وحدث أن اشتد الخلاف بينهما ووصل إلى سب بعضهما البعض، فما إن مرَّ هذا الموسم حتى أخبر عامر الملاك عبر الهاتف بأن خلافًا نشب بينه وبين عاهد حول المحصول دفع بعاهد لإحضار جرافة قامت بجرف واقتطاع الأشجار كافة في البيارة لتعود كما كانت عليه سابقًا أرضًا جرداء.

كان هذا الخبر بالنسبة لملاك محزنًا جدًّا، فقد تذكر اجتماعاته مع والده وهما يخططان لزراعتها، وتذكر كم تعب والده في الإشراف على زراعتها، وكيف أن لحظة غضب وطيش من شقيقه دفعته إلى فعل شيءٍ كهذا.

بعد أن أنهى المكالمة جلس في غرفة الضيوف وكان حزينًا جدًّا، كانت ختام حينها في زيارة لإحدى جاراتها، ولم يكن في البيت سوى ابنته شيرين التي دخلت عليه ووجدته ساكنًا حزينًا، فبادرت بسؤاله على الفور: «ما بالك يا أبي؟ مَن كان على الهاتف؟»

قال لها وهو يهز رأسه: «ببساطة وبلحظة طيش ضاع تعب والدي». لم تفهم ابنته شيئًا ممَّا قاله وبدت على وجهها علامات التعجب.

فأتبع قائلًا: «لقد قام شقيقاي بكل بساطة وقضيا على كل ما أنجزه والدي؛ لأن الكره والحقد سيطر عليهما؛ لأن كل واحد منهما لا يحب الآخر ولا يتمنى الخير له، لقد بذل جدكِ مجهودًا ليترك لهما إرثًا وخيرًا يفيدهما في الحياة، ولكن بلحظة شيطانية دمَّرَا كل شيء».

استمرت شيرين تقف أمامه لا تعرف ماذا تقول له، وماذا تفعل، شعرت بأن هناك أمرًا ما قد

أزعج والدها، وقد تسبب به أحد أعمامها، وما هي إلا دقائق حتى عادت ختام إلى البيت، وبمجرد دخولها سألت عنه وتوجهت نحوه، وما إن نظرت إلى وجهه ورأت الهاتف بجانبه، حتى عرفت أن شيئًا ما قد حدث في القرية، وقد أخبرها بالأمر لاحقًا، إلا أنها لم تندهش كثيرًا، فلعلها كانت تعلم قساوة قلب شقيقيه وعدم مبالاتهما، وما كان منها إلا أن جلست معه، واستمعت إليه، وحاولت تغيير الموضوع للتخفيف عنه.

مضى على مغادرة فريد المدينة أربعة أعوام، حين علمت بحملها بطفلها الثامن، وقد كبر أبناؤها، وجاء اليوم الذي تستعد فيه لوداع ابنها الأكبر شادي، اليوم شادي سيبتعد عنها لأول مرة ويسافر إلى الأردن لاستكمال دراسته الجامعية، ولعل مشهد توديع أبنائها في المطارات من أبرز المشاهد التي مرت في حياتها لاحقًا، تودع أبناءها وبناتها وتستقبلهم بعد طول غياب، مشهد اعتادت عليه إلا أن أول وداع في المطار لأكبرهم شادي كان الأصعب، حينها شعرت بروحها تخرج من جسدها كما وصفت ذلك الموقف، كان الأقرب لها، يشبهها شكلًا، فقد أخذ منها كل ملامحها، تقاسيم وجهها، وكان في طباعه وتدينه يشبه الملاك كثيرًا، وقد كانت في ذلك الوقت وسيلة التواصل معه هي الهواتف الأرضية والعمومية والمكاتب التقليدية عبر البريد.

سافر شادي وكان يأتي لزيارتهم في المدينة الفاضلة في إجازة الشتاء، أو يلتقي مع عائلته في الأردن في الإجازة الصيفية، وقد ولدت ختام وجاء إلى الدنيا عبد الله، آخر العنقود، وتوالت الأحداث، فبعد عام من سفر شادي لحقه إبراهيم، وقد كانا شخصين متناقضين تمامًا، فأي صفة تجدها في شادي تجد العكس منها في إبراهيم، إلا أنهما لم يكونا شبيهين لأشقاء والدهما، فشادي منذ صغره هادئ الطباع مسالم، أما إبراهيم فكان منذ صغره مشاغبًا كثير الحركة، كان أقرب لشقيقاته من شادي، فدائمًا يلعب معهن ويقضي أغلب وقته معهن وهن صغار، وكثيرًا ما كان يتصدرهن في أي مشكلة تقع أو يتسببن فيها.

وقد صادف أن كان الملاك مسؤولًا عن تعليم اثنين من أبنائه وشقيقته في نفس الوقت بجامعات مختلفة، فقد أنهت فاطمة شقيقته وابنه شادي مرحلة الثانوية العامة في العام نفسه، وقد استمر مصروف الجامعات قائمًا لم ينقطع عامًا تلو العام، هذا ينهي دراسته لتتبعه شقيقته، وظل هذا الحال إلى أن وصل إلى أصغر أبنائه عبد الله، فكان يرى أن غربته ما هي إلا استثمار بأبنائه وبناته وتعليمهم.

في أحد الأيام، بينما كان شادي وإبراهيم في الأردن للدراسة انقطعت أخبارهما شهرًا من الزمن، ما دفعها للخوف والقلق عليهما إلا أنها في هذا اليوم تحديدًا استيقظت من نومها، شعرت بضيق

غريب في صدرها، كأنها تستعد لخبر مفجع، لم تتمالك نفسها وأخذت تجهش بالبكاء وتدعو الله بأن يطمئن قلبها على ابنيها، ولعل ما زاد قلقها وخوفها هو رؤيتها لوجه نفيسة بالمنام دون أن تتذكر ما رأتها تفعل، وزوجها الذي لم يكن على ما يرام ليلة أمس، وكأنه يخفي أمرًا عنها.

لقد اعتادت على مفاجآت الملاك، فقد خرج من المنزل وأخبرها بأنه ذاهب إلى المسجد لأداء صلاة المغرب، أسدل الليل ستائره ولم يرجع، جلست تنتظره قلقة، خائفة، اقتربت من الهاتف، اتصلت بإحدى جاراتها التي كان زوجها صديقًا مقربًا للملاك، علها تعرف أي شيءٍ عنه، إلا أن جارتها أخبرتها بأن زوجها مريض منذ الصباح، ولم يخرج من المنزل، ما زاد قلقها واستمرت على حالها.

في صباح اليوم التالي رن جرس الهاتف، ركضت باتجاهه ورفعت السماعة بسرعة: «آلو ملاك».

قال لها: «مرحبًا ختام، أنا في عمَّان، أريد الاطمئنان على الأولاد».

لم يعجبها الأمر وسألته بدهشة: «ماذا حدث؟ أخبرني، كيف سافرت؟ ومتىٍ؟ ولماذا لم تخبرني؟» ظل الملاك صامتًا لبرهة قبل أن يخبرها بأن شادي تعرض لحادث سيارة، تسبب له بإصابات وكدمات، وأنه أراد أن يتابع صحته، وقبل أن يُتم كلامه وقعت سماعة الهاتف من يدها، وفقدت اتزانها وسقطت مغشيًّا عليها من هول الخبر، وقعت هذه الكلمات على مسمعها كوقع سهم في قلب جندي في الحرب، شعرت بأن قلبها قد توقف، كان وقع الخبر قاسيًا عليها، فرغم معرفة الملاك ويقينه بإيمانها إلا أنه نسي تعلقها بأبنائها، وحبها الشديد لهم، أو أراد كعادته أن يطمئن نفسه بها، كانت ابنتها شيرين تقف بجانبها، وحين وقعت ختام صرخت بصوتٍ عالٍ: «ماما، ماما»، وأخذت تهز رأس والدتها علها تفيق، حاولت رفعها على الأريكة وطلبت من شقيقتها إحضار كأس من الماء، وما هي إلا لحظات حتى أفاقت ختام، بعد أن رشت شيرين الماء على وجهها، انتفضت ختام وأخذت تبكي وتردد: «راح شادي، راح ابني»، وظلت تبكي حتى رن جرس الهاتف من جديد، توجهت نحوه مسرعة وهي تجهش بالبكاء، إنه شادي، صوت شادي يطمئنها على صحته قائلًا لها: «اطمئني يا أمي أنا بخير، كدمات بسيطة، أيام وسأكون على ما يرام»، ما أطفأ نار الخوف والهلع داخلها ولو لحين.

شاطرتها الهموم والأحزان، تحكي لها ما يجري في حياتها، يتحدثن سويًّا ساعات من الوقت، ورغم انتقال أم حسين للعيش مرة أخرى في الجزيرة، إلا أنها لم تتردد لحظة بالمجيء إلى المدينة

الفاضلة لزيارة ختام والوقوف إلى جانبها.

أما شادي فلم يكن على ما يرام، وهذا ما دفع الملاك للسفر بسرعة ودون انتظار لمتابعة الأمر، فقد أخبر إبراهيم والده بما جرى، حيث تعرض شادي لحادث سيارة مروع، أصيب على أثره إصابات بالغة بالعمود الفقري ألزمته الفراش، وقد نجا من الموت بقدرة الرحمن ودعاء والدته.

ولم يكن ليعلم أحد بالأمر، لولا أن إبراهيم أحسَّ بأمر غير طبيعي، فقد تغيب شادي عن البيت حيث يقيمان ثلاثة أيام، وحين عاد لم يخبره عن مكان إقامته تلك الأيام، وقد بدا وجهه مليئًا بالكدمات، وحين يصلي، كان يسجد ويركع وهو يتأوه ويتألم ما دفعه لسؤاله بإلحاح حتى أخبره بما جرى.

بقي الملاك في الأردن يخفي عن ختام حجم المصاب الذي ألمَّ بشادي، ويقوم بمتابعة خطة علاجه حسب تشخيص أحد الأطباء المختصين. مر شهر من الزمن حين رن جرس الهاتف، فأسرعت ختام نحوه لتسمع صوت الملاك على الطرف الآخر، قال لها: «كيف حالك؟ وكيف البنات؟»

قالت له: «جميعنا بخير. كيف حال شادي؟» فقد مضى أسبوع لم يحادثها أو يطمئنها.

قال لها: «الجميع بخير وشادي تحسن كثيرًا ولله الحمد».

سألته: «متى ستعود إذن؟»

قال: «أسبوع آخر وأعود بإذن الله».

أغلقت ختام الهاتف وهي تشعر بالأسى، لا تعلم أن الملاك يمازحها كعادته، فقد كان يتحدث معها من الهاتف العمومي في مطار أبوظبي ليتوجه بعدها إلى المدينة الفاضلة.

حين رن جرس الباب فتحت ابنتها الصغيرة قائلة: «بابا»، وركضت باتجاهه تعانقه، كانت ختام جالسة في غرفة المعيشة إلى أن سمعت ابنتها، وعلى الفور توجهت نحو الباب، فإذا به الملاك يقف مبتسمًا وأقبل عليها وعانقها وطمأنها على أحوال فلذة كبدها، ولأن رب الكون يدبر الأمر فقد شفي شادي تمامًا بإذن الله، وعاد يمشي بشكل سليم إلا أن الحكمة فيما أصاب شادي ستظهر لاحقًا.

ومرت الأيام ورزق الله ختام اثنين من الصبية، وكان عمر أصغرهما ثلاث سنوات، حين قرر الملاك أن يرسل ابنته شيرين لتكمل دراستها الجامعية في فلسطين، وتبعتها بعد عام شقيقتها الأصغر سنًّا.

وتوالت الأحداث في حياة ختام بحلوها ومرها، فكانت حياتها تتأرجح بين المدى وغصات الغيم، ما بين حزنٍ وفرح، ولم تكن تعلم ما ينتظرها من مكر نفيسة، ففي الوقت الذي شعرت فيه بسعادة بالغة بقبول ابنتها الكبرى بإحدى الجامعات الشهيرة في فلسطين المحتلة، شعرت بالمقابل بغصة الفراق والبعد والخوف عليها من المجهول، ولعل ما خفف عنها أن غيابها لن يستمر طويلًا لتلحق بها بعد عام شقيقتها الأصغر منها، وأنها في الوقت الحالي لن تكون وحيدة، بل هي في وطنها وبين أهلها.

لطالما صرح الملاك بقناعاته أن الشهادة الجامعية هي قيمة الإنسان، وسلاحه في هذه الحياة، فمنذ انطلق شادي نحو رحلته الدراسية استمر الملاك يرسل الواحد تلو الآخر للدراسة حتى أصغر أبنائه عبد الله.

كانت علاقة بناتها بوالدهم وما زالت مختصرة بثلاث كلمات، هي الإعجاب والحب والحنان، فكان الملاك حريصًا كل الحرص أيضًا على تعليمهن، وكان يرى في العلم حبل نجاة لكل أنثى من مصاعب هذه الدنيا، فالتعليم في نظره لتأمين حياة جميلة راقية لهن تحميهن من غدر الأيام، فهو الملك الذي احتضنهن كأميرات، ولم يتردد يومًا في الحديث معهن وملاطفتهن، وتلبية رغباتهن، حريص كل الحرص على تأمين مستقبل أميراته.

حين وقعت انتفاضة الأقصى، واندلعت شرارتها كان لها من الأبناء ثلاثة، إبراهيم حيث أنهى دراسته ويعمل في مدينة رام الله، وابنتاها تكملان دراستهما الجامعية في مدينة نابلس، كانت هذه الانتفاضة الثانية عقب اقتحام زعيم المعارضة الإسرائيلية آنذاك المسجد الأقصى، يرافقه عدد من الضباط والجنود، فعمت المظاهرات الغاضبة البلاد، واشتبك الطرفان، وسقط عدد من القتلى والجرحى، وقد لجأ الإسرائيليون إلى قصف المدن الفلسطينية، وإغلاق الحدود، وفرض حظر التجول، ولم يكتفوا بذلك بل أخذوا يبحثون عن الشباب ويعتقلونهم في مشهد يتجرد من كل مشاعر الإنسانية، فهكذا هم بنو إسرائيل، أما في مدينة نابلس حيث تدرس بناتها، فقد انقطعت كل سبل الاتصال معهن، فرغم امتلاك كل واحدة منهن هاتفًا خلويًّا، إلا أن انقطاع التيار الكهربائي وحظر التجول الذي فرضته قوات الاحتلال في المدينة، حرمهن من التواصل معها وطمأنتها، فأصابها الذعر، واستمرت أيامًا تنتظر اتصال أحد ليطمئن قلبها، ولكن دون جدوى، فالحرب وأصوات القذائف، ومضادات الطائرات، خلفت الخوف والرعب في القلوب.

مضى أسبوع على هذا الحال، ومع دخول الوضع مرحلة الاحتضار، أغلقت المدينة كل أبوابها واشتدت الحرب، لم تعُد تقوى على تحمُّل الأمر، جلست وحيدة منعزلة يستنزفها التعب النفسي

والجسدي، تعُد الدقائق وتنتظر بصيص أمل، كان وجهها شاحبًا، وقلبها ينفطر حزنًا وخوفًا، أما الملاك فكان كعادته بثباته يمد يده إليها، ويهدئ من روعها ويطمئنها بعبارات كلها أمل وتفاؤل: «هن في حماية الله، ولن يصيبهن مكروه بإذن الله»، لقد قام بكل هدوءٍ واتزانٍ توضأ وصلى صلاة الحاجة طالبًا من ربه طمأنة قلبها وقلبه، وما هي إلا دقائق حتى تلقى اتصالًا هاتفيًّا من ابنته الكبرى ليطمئن قلبهما، إنها ليست معجزة بل هي ثقة برب العباد اعتادها وعودها عليها، نابعة من قلبه وشدة إيمانه بكرم الله ولطفه، إلا أنها في تلك الليلة جلست تفكر فيهن، ولو باستطاعتها كانت تسافر لهن وتعيدهن إلى الأمن والأمان، فهن ولدن وترعرعن في بلد لا يعرف الحرب، لم يسمعن أصوات الانفجارات التي تصم الآذان، وتملأ القلوب خوفًا ورعبًا، أما بالنسبة لها فالأمر مألوف، فقد عاشت هذه المشاهد وتعايشت معها، ولكنها لم تتمنَّ أبدًا لأبنائها تجربة ما تخلفه الانتفاضة من خوف وقلق ومصير مجهول.

في تلك الأثناء، وبينما هي تجلس في غرفتها، استعادت شريط ذكرياتها في فلسطين، فتذكرت دوي صفارات الإنذار وأصوات القنابل، تذكرت وقت التهجير وكيف أخذها والدها ووالدتها هي وإخوتها إلى خارج المنزل يحملون كل ما استطاعوا حمله من البيت، في ذلك الوقت هاجمت إسرائيل القرية وأجبرت سكانها على مغادرتها والرحيل إلى المجهول، ففارقوا أرضهم وشجرهم وبياراتهم عدة أيام، وبعد أن عادوا إلى أرضهم بقيت آثار القصف والهدم والتخريب عالقة في ذاكرتها، ليقطع شريط الذكريات صوت بكاء صغيرها عبد الله.

مرت الأيام وانتهت الانتفاضة وعادت الحياة إلى سابق عهدها، وبعد مضي أعوام عادت ابنتها الكبرى تحمل شهادة جامعية كما تمنت لها أن تكون، وبقيت بجانبها إلى أن تزوجت وأنجبت، أما بناتها الأخريات فتبعنها الواحدة تلو الأخرى.

(15)

عندما كانت تعطيها الحياة سببًا لتيأس، كانت تعطيها في المقابل ألف سبب للاستمرار، ومن هنا تبدأ سطور الختام، وهنا نستطيع الجزم بأن نفيسة قد تمكنت وأتباعها من أذية ختام، وسيطر السحر بمخالبه اللعينة على جسدها القوي، فأفقدها رونقها وغابت ابتسامتها الحقيقية فيا لها من مرحلة لا تكاد تخلو من أزمات نفسية وصراعات! لقد كانت على الدوام تشكو ألمًا ووخزًا في جسدها، ولم تكن تعلم أن نفيسة قد أعدت العدة لهذا اليوم.

استيقظت ختام صباح ذلك اليوم كعادتها لتُعد لزوجها طعامًا وتوقظ أبناءها للذهاب إلى المدرسة، إلا أنها شعرت بآلام في جسدها وارتفاع في درجة الحرارة دفعتها إلى إيقاظ ابنتها لتُعد الطعام، وتتولى شؤون إخوتها ووالدها، وجلست هي منهكة إلى حين وقت صلاة الظهر، كانت في هذا اليوم ترى وجه نفيسة أمامها تتبعها من مكان إلى آخر، ما جعلها تقلق كثيرًا، فاليوم الذي ترى فيه وجهها الشيطاني تحدث كارثة، فماذا عساها تفعل وهي اليوم تراها طوال الوقت، توجهت إلى المركز الصحي القريب من منزلها لأخذ العلاج اللازم، وفي طريقها إلى المركز، تذكرت الجزء الغريب الذي تشعر به منذ أكثر من أسبوعين أسفل كتفها اليمنى، وحين دخلت على الطبيب وفحصها الفحص المعتاد وكتب لها وصفة طبية، أخبرته بما تشعر به كأنه كتلة أو - كما وصفته - كيس ما تحت الجلد، لم يقُم الطبيب بفحصها وطمأنها بأنها قد تكون من أعراض الإنفلونزا، وستذهب بعد أخذ الوصفة التي كتبها لها، وطلب منها العودة إليه مجددًا بعد أسبوع.

عادت إلى منزلها واستجمعت كامل قواها لتُكمل يومها دون تقصير، تنظف المنزل بأكمله، ثم تُعد الطعام لأبنائها قبل أن يعودوا من مدارسهم، وتبدأ المرحلة الثانية من يومها في متابعتهم متابعة كلية من حيث تبديل ملابسهم ومذاكرة دروسهم، وتلبية احتياجاتهم وتجهيز زيهم المدرسي لليوم التالي من غسيل وكي وما شابه، وما إن يحل الليل حتى تجلس لتُلبي مطالب زوجها وتعتني به، دون أن تشتكي تعبًا أو كدرًا من كل ما سلف، بل كانت دائمًا امرأة قوية تؤدي دورها على أكمل وجه.

مرت الأيام ولم تختفِ عن ناظرها صورة وجه نفيسة القبيح، وكان حجم الكتلة في ازدياد، تشعر بالحر والتعرق الكثير ليلًا وهي نائمة، فأخبرت الملاك بقلقها وسردت له حالتها، فأخذها لإجراء الفحوص اللازمة تجنبًا لما هو أسوأ، ومرت ثلاثة أشهر وهي تراجع الأطباء دوريًّا ويقومون

بإجراء التحاليل اللازمة، وكانت في استسلام تام ليس لديها القدرة على التفكير الصائب غير المشوش، وقد شل وجه نفيسة تفكيرها، فحتى أمس كانت حياتها طبيعية مثل بقية الناس، وهمومها همومًا حياتية تجري في مسارها المعتاد، وفجأة انهار عالمها وتبددت آمالها في أن يكون مرضها شيئًا آخر غير الخبيث المميت، كل هذه الآمال ذهبت أدراج الرياح، فقد واجهت الحقيقة المرة التي تقول بوضوح: إنها كتلة لورم خبيث في منطقة حساسة ومعقدة من جسدها، فأصبحت تائهة وعاجزة، فلم تستطع حينها تصور أن يغيبها الموت عن أحبتها وأبنائها على حين غرة.

لقد كان وقع الخبر كارثة بالنسبة للملاك، الذي مرَّ عليه ليل عصيب منذ أن رآها بثياب الصلاة تسجد للخالق ودموعها أغرقت المكان، فالأطباء في المستشفى أكدوا لها أن التحاليل تُظهر أن الخبيث في مراحل متقدمة وأنها بحاجة إلى جراحة عاجلة لاستئصال الورم الخبيث قبل الانتشار، فكان جُلُّ خوفها من سقوط شعرها الخروبي الجميل وقضاء الكيماوي على أنوثتها، فهل سيتقبلها زوجها ومَن حولها أو ستتقبل شكلها الجديد؟ كل الأمور تحولت في نفسها إلى اتجاهٍ آخر، فهي الآن غدت بأمس الحاجة للشجاعة والصبر لتتخطى هذه المحنة وتصل مع عائلتها إلى بر الأمان، ما زالت عبارتها التي هزت جدران غرفتها تصدح بصوتها المرتعش: «سيسقط شعري»، وقد سمعت ابنتها الكبرى ذلك ولم تستوعب ما سمعت، راحت تبحث عن القوة في والدها، فهو المصدر لها، تحدق في والدها ونظرات عينيه تخفي أمرًا لا يريد البوح به، فلم يكن يعلم بعلمها بالأمر، كان جلُّ تركيزه كيف يخفف عن أمها ألمها وما تشعر به، وهو يردد: «أمر المؤمن كله خير، لعله خير».

وسرعان ما لبَّى نداء الإيمان الأشبه بالبئر المظلمة كلما أوغر في صدر مَن حوله الألم منحه القوة، لقد منحهم بإيمانه وطاقته الإيجابية العالية بصيص أمل، فحين سافرت ختام للعلاج، ودعها وكله ثقة بقدرة الخالق على شفائها. بدأت رحلة علاجها والتي استمرت بادئ الأمر ثلاثة أشهر، كانت تتمنى أن يكون كل ما يجري لها كابوسًا ستستيقظ منه لاحقًا، أعدت حقيبتها للسفر لإجراء فحوصات جديدة، فلم يكن زوجها على يقين من صحة تشخيص الأطباء، أو كان لديه بصيص أمل في أن يكون التشخيص ليس دقيقًا أو هناك خطأ ما. في المطار كانت تشعر بأنه اللقاء الأخير، أخذت أبناءها بين ذراعيها وانهارت بالبكاء، لم يكن أحدهم يدرك لِمَ كل هذا البكاء سوى ابنتها التي سيطر عليها شعور وداع بلا عودة، كانت تشعر كأمها بأنه اللقاء الأخير، أما والدها فقد رفض وداعها واكتفى بمصافحتها مبتسمًا مسيطرًا على حواسه ومبديًا قوة رهيبة مظهرًا لها إيمانًا ويقينًا بعودتها. مرت رحلتها بثلاث ساعات قضت خلالها الوقت تراجع في ذهنها أحداث الأسبوع

الماضي، وما تخلله من تحاليل وأشعات وإجراءات جراحية، وكان لا يزال لديها أمل في أن يكون الملاك محقًّا في عدم دقة التحاليل التي أجرتها. ابتسمت للمرة الأولى منذ أسبوع حين التقت بفريد وشادي ووجدتهما بانتظارها في المطار، أخذت شادي بين ذراعيها وانهمرت بالبكاء، لقد أخبره والده بكل ما جرى، ولحسن الحظ فقد كان مجال دراسته الجامعية في الطب ولديه معرفة في مستشفيات البلد، وانطلقت معه إلى منزل خاله فريد، وفي الطريق كان فريد يحادثها عن أبنائه وزوجته متعمدًا عدم ذكر مرضها إلى أن وصلا إلى المنزل.

لطالما كانت تشعر بأن أبناء فريد هم أبناؤها، فقد كبروا وترعرعوا برعايتها واهتمامها قبل أن يغادروا المدينة الفاضلة، إلا أن مشاعرها المختنقة جعلتها خائفة طوال الوقت أن تنهار أمامهم، أما هم فدعموها معنويًّا وبثوا الأمل في نفسها، وأحاطوها بمشاعرهم الصادقة، فقد كانت عمتهم المفضلة والمميزة لديهم.

في أول صباح لها بعيدًا عن الملاك دخل فريد غرفتها فوجدها ترتجف، وكانت عيناها وارمتين من البكاء، وشعرها الخروبي ينسدل على كتفيها، وعلامات الحزن والغم الشديدين تلوح على وجهها، نظرت إليه وغطت وجهها بيديها، وصارت تبكي بكاءً شديدًا، فاقترب منها وغمرها بيده، واجتهد لكي يسليها ويطمئنها، إنه معها وإنها بالتأكيد ستكون بخير.

وفي الجانب الآخر كان العبء الأكبر على الملاك في الاهتمام بأبنائه الأربعة، والقيام بدورها إلى جانب دوره في غيابها، ما تطلب منه الكثير من القوة، ولكن بحكمته وتداركه كل النتائج التي كان من الممكن أن تؤثر على أبنائه سلبًا، ساعد في الحفاظ على الروتين اليومي بأقل ضرر ممكن على حالتهم النفسية في ظل غيابها، ولم تتردد جاراتها في التخفيف عنهم وزيارتهم من حين لآخر، بل كانت إحداهن تقضي اليوم بأكمله معهم.

قاسية هي الحياة عندما تصدمك بواقع مؤلم وتقلب الحال، فقد بدأت رحلة علاجها، ولا بد لها أن تقاوم هذا المرض اللعين، ليس من أجلها فحسب، بل من أجل كل مَن يحبها.

في تلك الفترة كان الهاتف الأرضي لا يزال هو وسيلة الاتصال المتوفرة قبل انتشار الهواتف الخلوية، فكان الملاك على تواصل معها كل ليلة ليعلم ما أجرته من فحوصات خلال النهار، ويطمئنها على أبنائها، وقد مرت المرحلة الأولى من الأشعات والتحاليل المخبرية، والتي استمرت أسبوعًا كاملًا.

بعد مضي أسبوع تحركت مع شادي لاستلام نتائج التحاليل وزيارة الطبيب الذي أكد صحة

التحاليل الأولى، وأن الكتلة ما هي إلا ورم خبيث وجب استئصاله في أقرب وقت ممكن، في تلك الأثناء كانت تتمنى أن يأخذها الموت ليعفيها من الألم، ومن جرعات الكيماوي وآثارها، ولم تكن حينها تدرك أن أمنيتها تلك ستبقى مرفوعة عند باب السماء لتتحقق بعد مضي عشرين عامًا من عمرها.

كان الليل قد أسدل ستائره، وأخذت هي تراجع في ذهنها الأحداث الماضية منذ أن علمت بمرضها وما تخللها من أشعات وتحاليل وإجراءات جراحية، كانت حزينة يائسة تفكر كيف أنه لا مفر من إجراء الجراحة وأخذ جرعات الكيماوي؟ كيف تبددت آمالها وأصبح مرضها حقيقة؟ أفكار وهواجس وصلت بها إلى صغيرها عبد الله ذي الأعوام العشرة، أخذت تتذكر كلماته المتعثرة وضحكاته، وكم اشتاقت له ولأبنائها، فبدأ يساورها بعض الأمل في الشفاء، وأخذت تدعو الله أن يخفف ألمها ويشفيها.

في اليوم التالي كانت قد استيقظت من نومها باكرًا، وتناولت فطورها مع فريد قبل أن يذهب إلى عمله، تجلس في غرفة المعيشة ومعها زوجة فريد التي تحادثها في مواضيع متنوعة، وتحاول أن تشغلها عن التفكير في مرضها، رن جرس الباب، فذهب أحد أبناء فريد ليفتح، إنه شادي جاء ليأخذ والدته إلى مكانٍ ما.

«أمي هيَّا ارتدي ملابسك، سيارة الأجرة تنتظرنا في الخارج».

ردت ختام وقد بدا عليها الخوف والارتباك: «إلى أين سنذهب؟ لا أريد الكيماوي لا أريده»، وقبل أن تكمل كلامها توجَّه نحوها وأمسك بيدها وقال لها: «لا داعي للقلق، ستكونين على ما يرام، ثقي برب العالمين».

في سيارة الأجرة جلس شادي في المقعد الأمامي، وجلست ختام في الخلف ممسكة بيدها مصحفًا صغيرًا تقرأ منه، بدا الطريق طويلًا جدًّا، ولاحظت أنهما قطعا مسافة طويلة، وضعت يدها على كتفه وقالت له متسائلة: «أين نحن ذاهبون؟» حرك يده باتجاه كتفه حيث كفها وطبطب عليها، وحرك رأسه مبتسمًا دون أن يقول شيئًا، وما هي إلا دقائق حتى وقفت السيارة، وطلب من والدته النزول، نظرت من نافذة السيارة لترى أمامها بوابة حديدية حمراء ضخمة محاطة بسورٍ أبيض عالٍ، نزلت من السيارة وشادي يسير بجانبها نحو البوابة.

فُتحت البوابة لتجد من حولها أشجارًا هنا وهناك افتقرت إلى العناية بها، وبيت في وسط الساحة بابه أبيض قديم به مربعات خضراء اللون كُتب أعلاه عبارة: «بسم الله الرحمن الرحيم»، وعلى

اليمين واليسار منه عبارتا: «الرجاء خلع الحذاء وممنوع التدخين»، تسير معه لا تعلم إلى أين يأخذها، ولعلَّ آيات الذكر الحكيم التي تسمعها عبر مكبرات الصوت في كل مكان قد طمأنت قلبها، دخلت من الباب، وجدت أمامها غرفة واسعة بها بساط أرضي منقوش باللونين الأخضر والأحمر، وعلب مياه معدنية مصفوفة على دولاب صغير، وخلفها مسجل صوت لونه أحمر، الغرفة فارغة، تقف على يمين الباب ومعها شادي، أعادت السؤال عليه: «أين نحن؟» قال لها: «نحن في منزل الشيخ حامد»، أخذت تحدث نفسها: «الشيخ حامد؟ ومَن هذا؟ وماذا عساه أن يفعل؟» كانت تنتظر رجلًا كبيرًا في السن يرتدي عباءة، وبلحية بيضاء طويلة وكثيفة، وعلى رأسه عمامة، وما هي إلا لحظات حتى أطلَّ عليهم من الداخل شاب صغير لا يتجاوز عمره العشرين عامًا، ما إن رآه شادي حتى هلَّل مرحبًا به، اقتربا من بعضهما، سلم عليه وعانقه وقال: «أهلًا وسهلًا بك يا شادي، كيف حالك؟» قال له شادي: «أنا بخير الحمد لله، منذ آخر زيارة لك وأنا أتحسن بفضل الله»، ثم توجَّه بنظره نحو ختام التي تقف في حيرةٍ من أمرها، وقد رسمت على وجهها ابتسامة مصطنعة، قال لها مبتسمًا: «أهلًا وسهلًا بكِ، ستكونين على ما يرام بفضل الله»، نظر إلى وجهها وأمعن النظر، ثم قال لها وكأنه يقرأ ورقة تقرير طبي لحالتها: «أنتِ تعانين من ورمٍ خبيثٍ في المكان الفلاني، وحجمه كذا وكذا» (قالها بدقةٍ متناهية)، وأتبع: «سنعالجكِ بإذن الله تعالى»، ثم نظر إلى شادي وقال له: «أنتظركم غدًا في تمام الساعة الحادية عشرة صباحًا»، مدَّ كفَّه مصافحًا له، ومشى معه للخارج وهي بجانبه مودعًا إياهما.

ما إن غادر الشاب حتى وقفت ختام في وسط الشارع، واعترضت طريق ابنها قائلة له: «مَن هذا الشاب؟ وأين الشيخ الذي تقول عنه؟» ضحك شادي واضعًا كفه على كتفها مطمئنًا لها وقال: «هذا الشاب هو الشيخ حامد، يُعالج بالقرآن الكريم، وقد سبق أن عالجني قبل شهور من كسرٍ في إحدى فقرات العمود الفقري إثر الحادث الذي تعرضت له، أتذكرين يا أمي؟» لم تصدق ختام ما قاله شادي، وبعد سلسلة من النقاشات معه كانت هي كالغريق الذي يبحث عن طوق نجاة كي ينجو من الموج العالي، وهذا ما كان، فالشيخ حامد معالج بالقرآن الكريم يُشخص الداء الذي يُريه إياه ملك يقف على عينيه، يُقال: إنها كرامة له من الله وهبها إيَّاه منذ طفولته، وأخذ يعالج بها المرضى بإذن الله.

لم يكن الملاك مصدقًا ما سمعه من ابنه شادي، ولكنه يبحث عن فسحة أمل ونجاة لحبيبته، فما كان منه إلا أن يتابع ما يجري ثقة بالله.

في اليوم التالي عادت ختام ومعها شادي إلى ذات المكان كما طلب منهما الشيخ حامد، ولكنه هذه

المرة لم يأتِ، بل جاء أحد معاونيه، وطلب منها أن تتوضأ وتنام على ظهرها في إحدى الغرف المخصصة للنساء، وتقرأ سورًا من القرآن الكريم لتبدأ جلسة العلاج، كانت كالمغلوب على أمره، تفعل كل ما يُطلب منها دون نقاش، وما

إن تنام على ظهرها وتقرأ ما طُلب منها حتى تغط في نومٍ عميقٍ وتشعر بشيءٍ ما يجري من حولها، وكأنها أُدخلت إلى عملية جراحية، ظلت على هذا الحال مدة ثلاثين يومًا، كان يرافقها شادي في كل جلسات العلاج، التي تستمر من الحادية عشرة ليلًا حتى الحادية عشرة صباحًا، تتخللها استراحة واحدة فقط لأداء صلاة الفجر، لم تكن وحدها في الغرفة، بل كان هناك العديد من النساء من حولها، لكن لا أحد يتحدث مع الآخر، كل يوم على هذا الحال، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي زارت فيه الشيخ حامد حيث أخبرها بأنها في مرحلة النقاهة التي تقتصر على شرب مياهٍ مقروءٍ عليها آيات مختارة من القرآن الكريم، وطلب منها أن تحصن نفسها بالأذكار، ثم جاءت الصاعقة، فقد أكد لهما الشيخ أن ما أصابها هو سحر أسود سُفلي عُقد لها في يوم زواجها، وأُلقي في بئرٍ معتمةٍ تقع خلف الغرفة التي تزوجت فيها، وأن أثره قد ارتبط بإصابتها بالورم الخبيث، وطلب منها العودة مجددًا بعد أن تشرب الماء كله، وما إن أكمل كلامه حتى أصابت ختام صدمة نفسية عميقة، أخذت على أثرها تردد: «إنها نفيسة عمة والدك، هي مَن عقد هذا السحر، لم يكن أحد يصدقني، كنت أسمع فحيح الثعابين مصدرها البئر»، وأخذت تجهش في البكاء، وأخذ شادي جاهدًا يخفف عنها.

عادت ختام إلى بيت فريد والكل يهلل بسلامتها، كانت تشعر بأنها تحسنت عن السابق، وأخذت تروي تفاصيل دقيقة لملاك عبر الهاتف، ولم تترك شاردة أو واردة إلا أخبرته بها، والذي اطمأن لما سمعه، فما رأى من شأن السحرة شيء لدى الشيخ حامد فارتاح قلبه، إلا أنه أخذ يفكر فيما سمع من ختام حول السحر الأسود الذي عقد لها يوم زفافها حسب ما قاله الشيخ حامد، حين قالت له: «ملاك، عمتك عقدت لي سحرًا ووالدتك تعرف بالأمر، لم تكن الثعابين وحفيفها وهمًا، لم تصدقوني يومًا»، أخذ الملاك يهدئها ويطمئنها ويكرر على مسمعها: «الحمد لله، فضل من الله».

بعد أن أغلق الهاتف واطمأن على حالها، ظلت كلمات الشيخ وكلماتها حول عمته نفيسة ترن في ذهنه، وعاد بذاكرته إلى يوم وفاة حازم، وما قاله عامر عن سبب وفاته، فلم يتردد لحظة في الاتصال بعامر، وأخبره بما قاله الشيخ لختام، فتوجَّه عامر على الفور نحو البئر دون تفكير وبلا تردد، وطلب من ولديه إحضار حبل طويل لإجراء اللازم والنزول إلى هذه البئر بحجة تنظيفها دون أن يخبر شقيقتها نجوى بما أخبره به الملاك.

أحضر أبناء عامر حبلًا طويلًا، وأمسك الأكبر بطرف الحبل، وربط الأصغر الحبل حول خصره، وأمسك مصباحًا كاشفًا بيده لينزل ويستكشف ما بداخل البئر، كانت ماء هذه البئر قد نضبت قبل أعوام، بعد أن أُغلقت فوهتها، ولم تعد تختزن مياه الأمطار كما في السابق، ولم يعد يستفيد منها أحد، كانوا في السابق يستخرجون الماء منها عن طريق دلو رُبط بحبل عند فوهتها، يصنعون من مياهها الشاي ويسقون الزرع ويملؤون الدلال منها للشرب، إلا أن كمية المياه التي تضخ إلى البيوت عبر الأنابيب والصنابير أصبحت وفيرة، فلم تعُد البئر ذات أهمية كالسابق، استعد ابن عامر للنزول إلى البئر بعد أن طلب والدهما تنظيفها أو ردمها، وقبل ذلك أن ينزل أحدهما ويُلقي نظرة على ما تحتويه من الداخل، كان المصباح بالكاد يضيء جزءًا بسيطًا، هناك الكثير من الأحجار، وما إن وصل إلى وسط البئر حتى صرخ بأخيه الذي ما كان منه إلا أن شد الحبل ليسحب شقيقه على الفور إلى خارج البئر، والذي خرج لاهثًا متعرقًا، أخذ نفسًا عميقًا وقال لهم: «سأُعيد الكرَّة من جديد»، ونزل مرة أخرى وظل شقيقه يتابعه من الأعلى متشبثًا بالحبل بقوة، مر وقت طويل، أخذت خيوط الشمس تغالب عتمة الليل حتى عمَّ الظلام، وما هي إلا دقائق حتى جاء صوت صراخه: «ثعابين، ثعابين، البئر مملوءة بالثعابين، لقد سمعت فحيح ثعابين».

كان عامر يقف خلف ولديه، في محيط الموقع قرب البئر، ولم يندهش ممَّا سمع، توجَّه بسرعة نحو البئر وأخذ يشد مع ابنه الحبل لرفع ولده إلى الأعلى؛ الذي خرج يلهث، وعلامات الفزع تبدو واضحة على ملامح وجهه، أراد الكلام إلا أن والده باغته قائلًا على الفور: «قوما بحرقه وردمه».

وهذا ما حدث فعلًا، ففي صباح اليوم التالي استيقظ أبناء عامر وقاموا بإشعال النار فيه، والتي ظلت مشتعلة مدة يومين كاملين، ولم يعُد أحد من جديد لرؤية ما حلَّ به. أما عامر فقد اتصل بالملاك وأخبره بالأمر معللًا وجود الثعابين كرصد لحراسة السحر، وعاد وردد على مسامع ملاك: «هذه عمتك هي مَن وضع لختام السحر في البئر يوم زفافكما؛ لأنك لم تتزوج ابنتها»، وعلى الرغم من عدم اقتناع الملاك بكل هذا الحديث إلا أن حاجته الملحة لأي سبب ينجي ختام ممَّا هي فيه كانت أقوى بكثير، ما جعله يوهم نفسه بأن هذا الشيء حقًّا قد حدث، دون أن يؤثر ذلك على علاقته بعمته لاحقًا.

وما إن وصل إلى مسامع والدة الملاك ما حدثت ختام به الملاك، وما رآه ابن عامر في البئر، حتى توجهت نحو بيت نفيسة وهي تهدد بقتلها اليوم، وصلت إلى بيت نفيسة وما إن فتحت الباب حتى تسمرت في مكانها، فقد رأت أمامها حية الكوبرا وهي من أكبر الأفاعي السامة على وجه

المعمورة، انتصبت أمامها وفردت جلد رقبتها، فأصابها الذهول والفزع وظلت متسمرة في مكانها لا تحرك ساكنًا قرابة نصف الساعة قبل أن تتراجع الكوبرا إلى الخلف وتختفي من أمامها، لتسقط أم الملاك أرضًا وقد تسبب لها هذا الموقف بجلطة قلبية نُقلت على أثرها إلى المستشفى وتدهورت حالتها الصحية بعدها كثيرًا.

استمرت ختام بمتابعة الجلسات العلاجية مع الشيخ حامد، ويومًا بعد يومٍ وبفضل الله عادت إلى حياتها الطبيعية أقوى من أي وقتٍ آخر، لتبدأ مرحلة جديدة بنضج وقوة، وكأنها ولدت من جديد، وقد زادتها هذه التجربة إيمانًا برب هذا الكون الذي بيده ملكوت كل شيء، فهو المنجي وهو مَن يُسخر جنوده في الأرض لإبطال سحر السحرة، فكل الأمر بيد الله، ولعل أكثر ما طمأنها على وضعها الصحي هو تلاشي الكتلة من جسدها حتى اختفت كأنه حلم، وبعد مضي ما يقارب الأسبوع وقبل عودتها أجرت تحاليل وأشعات في مستشفى آخر، ليُطمئنها الطبيب بأن الأشعات والتحاليل سليمة وأنها لا تشكو شيئًا، دون أن تريهم ملفها الطبي السابق، وقد عادت إلى بيت فريد، ووجدتهم قد جهزوا لها احتفالًا كبيرًا بشفائها، أبناء فريد من حولها يعانقونها فرحًا، وها هو فريد يقترب منها ويهديها عقدًا مميزًا زين جيدها، وظلت ترتديه طوال حياتها، كان سلسلة من الذهب به تعليقة على شكل قلب تمتزج بها ألوان الذهب الأصفر مع الذهب الأبيض، كما أهداها زجاجة عطر ظل عطرها المفضل والمميز حتى آخر يوم في حياتها، كان عطرًا فرنسيًّا يجمع بين عبق فاكهة التفاح وعبير الورد الجميل، عطر أنثوي كلاسيكي تميزت به، بل تميز بها، تشم رائحته على وسادتها وعلى ملابس الصلاة الخاصة بها، وفي أي شيءٍ تلامسه عطر يليق بها وبجمالها، فمجرد أن تشمه تقول: «هذه ختام»، في تلك الليلة وقبل يوم واحد من مغادرتها الأردن سعيدة بشفائها، دخلت الغرفة التي تنام فيها في بيت فريد، وأخذت تقرأ القرآن وهي على سريرها، وما هي إلا دقائق حتى شعرت كأن الأرض تهتز، نهضت محركة رأسها باتجاه الأرض لتجد شقوقًا كبيرة تملأ أرضية الغرفة وصوت أشياء تتحطم هنا وهناك، دققت أكثر لتجد بين الشقوق ثعابين ودماء، فما إن شهقت بصوتٍ عالٍ وفتحت عينيها حتى رأت نفسها لا تزال في مكانها على السرير، لقد كان كابوسًا مزعجًا، أخذت تنظر من حولها كأنها تؤكد لنفسها أن ما رأته ما هو إلا كابوس، عدلت وسادتها ونامت.

وها هو الملاك يقف مع أبنائه في المطار في صالة انتظار القادمين، وكلهم شوق لاستقبالها، بابتسامتها الأجمل على الإطلاق، كان قد اصطحب معه أبناءه الصغار، لقد مر عليه الوقت بطيئًا جدًّا، كان ينتظر رؤيتها بلهفة، يقف تارة ينظر إلى بوابة القادمين يبحث عنها بين الناس، يتلفت هنا

وهناك يبحث عنها بين الجموع، ثم يذهب باتجاه شاشات العرض ليتأكد من وصول الطائرة، ينظر إلى النافذة الزجاجية علَّه يلمح طيفها، لقد عادت بعد شفائها وخلوها من المرض الخبيث، واستعادت عافيتها دون الحاجة إلى العلاج الكيماوي، فأي رحمة غمرتها! ظل ينتظر وينتظر.

أما هي فكانت أكثر منه لهفة، تجري لإنهاء إجراءات المطار، تقف في الطابور حيث تنتظر دورها لتقديم جواز السفر لختمه ختم القدوم، لم تكن تفكر سوى به وبأبنائها، لقد اشتاقت لعناقهم وتقبيلهم، أنهت الإجراءات وتوجهت نحو بوابة القادمين للخروج منها وحدها، فلم يأتِ بعدها أحداث إلا كان الملاك إلى جانبها، فهي التي لطالما شعرت بالخوف من أن يبقى دونها ليلة واحدة، كانا طوال فترة غيابها يستمعان معًا لأغنية فيروز «سلِّم لي عليه»، وكأن فيروز في ذلك الوقت غنَّت هذه الأغنية لهما، مشاعر من الفرح والشوق غلبتها، وسرعان ما لمحته بين جموع المنتظرين، أخذت دقات قلبها تتسارع، قبل أن يقفز عليها أبناؤها ويعانقوها فرحًا، الشوق والأمل بلقائه ظهر في عينيها، وقضت تلك الليلة تحكي له كل مشاعرها وشوقها، وما لم يستطع أن ينطق به لسانها، أما الشيخ حامد فعرف لاحقًا بأنه يتعامل مع عدد من أطباء الجن المسلمين، وحسب ما يُقال فهم متقدمون عن الإنس في العلاج مئات السنين، فهو يعتمد على القرآن الكريم لبدء العلاج، ولا يرضى بمعالجة أحد أيًّا كان، إلا أن يكون مَن يُعالجه مؤمنًا حق الإيمان بقدرة الله تعالى على شفائه، وقد كانت تتم لختام عمليات جراحية حقيقية، لكن دون أن ترى الأطباء، وهذا السر لا يعلمه سوى رب الكون، فما أعدته نفيسة من سحرٍ أسود عاونها به أعوانها الكفار من الجن، كُشف بأمر الله ومعاونة المسلمين من الجن، ولكن لا شيء يحدث دون أمر الله ومشيئته.

و لم يكن سحر العمة نفيسة قد تمكن من ختام فقط، بل أيضًا قد وصل بها الأمر لإيذاء شقيقها خليل، ففي أحد الأيام وبينما كانت ختام تقضي إجازتها الصيفية مع أبنائها في الأردن، حيث أقاموا في شقة استأجروها في العاصمة عمَّان، حدث أن كان شقيقها خليل قد قدم من القرية لقضاء إجازته الصيفية في الأردن.

كان خليل أصغر أشقائها، درس في إحدى الجامعات في الهند، وعاد واستقر في القرية، كان كل أشقائه وشقيقاته قد تزوجوا وغادروا البيت، فبقي هو ووالدته، وكان شديد التعلق بها وبشقيقاته، فكان يمضي أغلب الوقت مع شقيقاته ممَّن يقطنَّ في فلسطين، وقد حاولن مرارًا وتكرارًا تزويجه إلا أنه رفض، وكان من بين المرشحات ابنة العمة نفيسة الصغيرة، وقد حاولت نفيسة كثيرًا أن تفرضها عليه كما كانت تفعل مع شقيقتها وملاك، ولكونها امرأة تجهل أن الأمر بيد الله ظلت تحاول وتحاول وهو رافض الزواج من ابنتها، ومع مضي العمر قررت أن يبقى خليل على حاله،

ولم تتوانَ لحظة في إيذائه لكونه لم يحقق مطلبها، وقد مضى العمر على ابنتها، فاضطرت لتزويجها برجل ممَّن تقدم لخطبتها، لكنها لم تكن راضية عنه كل الرضا.

لم يكن أحد يعلم بنيَّتها أو أنها قامت بإيذائه إلا أن الله أرسل جنديًّا من جنوده ليكشف الضرَّ، فقد أحضرت إحدى بناتها شيخًا ليقرأ القرآن عليهم في البيت، حيث كانت دائمًا تشعر بشيءٍ غير مريح عند النوم، وأحيانًا تستيقظ من نومها فزعة كأن أحدًا كان بجوارها ورحل دون أن تراه، مجرد خيال أسود، وحين أخبرت ختام بالأمر شعرت بقلق شديد، وجعلها ما مرت به من أذية السحر الأسود الذي عقدته لها نفيسة أن تطلب من إحدى صديقاتها إعطاءها رقم أحد الشيوخ المعروف عنه قراءة «الخولة الشرعية» ليرقي أهل البيت، فلم تكن ترغب في أن يحدث لابنتها ما حدث لها، وكيف أنها كانت حين تحدِّث أحدهم بما تسمع وترى لا يصدقها، فصدقتها على الفور، وقد سألت الملاك قبل الاتصال بالشيخ ولم يمانع بذلك.

حضر الشيخ أبو حمزة، وكان يرتدي دشداشة بيضاء وفوقها عباءة سوداء، ويضع عمامة على رأسه، كان وجهه سمحًا بلحية طويلة بيضاء، وقد صادف وجود خليل معهم في البيت، رحب الجميع بالشيخ الذي جلس في غرفة الضيوف، كان الوقت مساءً، كل مَن في البيت موجودون في غرفة الضيوف، خليل يجلس مقابل الشيخ وختام والملاك واثنتان من بناتهما، وجَّه الشيخ سؤاله لابنة الملاك التي كانت تشكو أمرًا: «ما الذي تشعرين به؟» فأجابته خجلًا: «أشعر بعدم الراحة، الأمر جديد، أرى أن شيئًا ما يتبعني»، قاطعها على الفور قائلًا: «سأتلو الآن عليكِ وعلى الموجودين آياتٍ من الذكر الحكيم خولة شرعية»، وأتبع: «بسم الله الرحمن الرحيم»، وبدأ يتلو الآيات، الكل يُنصت للشيخ، مرت أربع دقائق توجهت خلالها الأعين نحو خليل الذي بدا غريبًا بعض الشيء، إذ وضع وسادة على رأسه وأخذ يتصرف بغرابة، يحرك الوسادة باتجاه الشيخ وكأنه يقول له لا تُكمل، فما كان من الشيخ إلا أن توجَّه نحوه واستمر في ترديد القرآن بالقرب منه، نهض خليل من على الأريكة بشكل مفزع، وأخذ يصرخ في وجه الشيخ وينهره قائلًا: «كُفَّ عن القراءة»، استمر الشيخ بترديد الآيات مقتربًا منه ممسكًا بيديه بقوة يدفعه للجلوس، وخليل ما زال يحرك رأسه رافضًا ما يسمع، في تلك الأثناء طلب الملاك من بناته وزوجته ترك الغرفة بشكل عاجل، وأحضر كأسًا من الماء، كما طلب منه الشيخ، كان الشيخ يردد على مسامع خليل قوله تعالى: «وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ»، بدا صوت خليل مختلفًا، كأن أحدًا آخر ينطق عنه، وهنا بدأ الشيخ يوجِّه كلامه له قائلًا: «مَن أنت؟ ما اسمك؟» وخليل يصرخ وينهر الشيخ، عاد الشيخ وأمسك بيده وكرر سؤاله، فأجابه: «أنا اسمي مرعش، ولن أترك خليل، سأظل

بداخله»، حاول الشيخ باستمرار ترديد الآيات بوجه خليل، وعاد وسأل مجددًا: «من أين أتيت؟ أين وضِع السحر؟ مَن هم رؤساؤك؟» وظل يسأل ويسأل حتى علم منه أن سحرًا أسود قد رُبط له، ووضِع أسفل شجرة خروب، كان خليل قد فقد وعيه حين أخبر الشيخ الملاك بضرورة البحث عن السحر.

وعلى الفور اتصل الملاك بشقيقه عامر، وأخبره بما حدث، صُدم عامر ممَّا سمع، إلا أن أشجار الخروب من حولهم كانت كثيرة ما يتطلب وقتًا للبحث، عاد الملاك وسأل الشيخ عن إمكانية معرفة مكان الشجرة، عاد الشيخ وأمسك بيد خليل ورش وجهه بالماء، وأخذ يتلو الآيات من جديد حتى عاد ونطق ما بداخله معارضًا قول الشيخ، أعاد السؤال عليه من جديد: «أين السحر؟ أين وضِع السحر؟» فأجابه بأنه أسفل شجرة الخروب القابعة بجانب دورة المياه في بيت أبي فريد. لقد تمكن ابن عامر من إيجاد السحر بسرعة، كانت صُرَّة عُقدت له مليئة بورقٍ دونت عليه كلمات غريبة، أو كما تسمى «طلاسم»، ووضِعت أسفل الشجرة المشار إليها، وقد طلب منهم الشيخ إحراقها على الفور، وبعد مضي ساعات، استعاد خليل وعيه، وقد خضع بعدها لاستجوابات كثيرة من الشيخ، وقد أخبر الشيخ بأنه يعاني من آلام مبرحة في ظهره، وطمأنه الشيخ أن الأمور ستسير على ما يرام، وأوضح للجميع ما جرى لخليل، وأنه كان مسحورًا دون أن يُشير إلى مَن عقد له السحر، أما ابنة الملاك فقد كانت السبب الذي سخره الله ليكشف ما بخليل من سحر، ولعل الجميع أصبح لديه يقين بأن نفيسة هي مَن أعدَّ له السحر، ولكن لا أحد يملك القدرة أو الجرأة على مواجهتها، فقوة الشر التي تمتلكها حجبت البشر عنها.

ولكن لم تدُم بعد ذلك القوة الخارقة التي كانت تمدُّ نفيسة بالشر، والتي ألحقت الكثير من الأذى بمَن حولها، فلم تحمها من قدر الله فيها، فقد أُصيبت بأمراض خطيرة أفقدتها القدرة على الحركة والنطق وظلت على حالها عشرة أعوام، لا علاج ينفعها ولا طبيب قادر على تشخيص مرضها، لم تنفعها ممارساتها الشيطانية ولا أعوانها، وتوفيت بعدها ودُفنت في أرض الحاووز التي تحولت إلى مقبرة دُفنت فيها ودُفن سرها معها.

(16)

عاشت ختام في المدينة الفاضلة مراحل مختلفة من حياتها، يمكن تصنيفها عمريًّا إلى ثلاث مراحل، وبحسب المنازل التي عاشت بها في المدينة الفاضلة، ففي الثلاثينيات من عمرها أول ما قدمت إلى المدينة كانت في منزل في المنطقة (F)، أما الفترة الثانية في الأربعينيات من عمرها فكان في منزل المنطقة (X)، وآخر منزل سكنته في الخمسينيات من عمرها كان في المنطقة (V).

كان يتميز كل منزل حيث تسكن دائمًا بالخضرة، وكأنك تدخل متنزهًا مليئًا بالنباتات والأشجار، فما إن تفتح الباب الخارجي له حتى يستقبلك عريش من العنب فوق رأسك ظلَّل به الملاك مدخل المنزل، أصيص ورد هنا وأصيص هناك، الحديقة كأنها رسم هندسي أبدع في تصميمه مصمم محترف، ولم يكن هذا في واحد من المنازل الثلاث فحسب، بل فيها جميعًا، كان ما يميز منزلها الأول هو شجرة الليمون التي كانت تطعم من حولها، وتتدلى أغصانها من السور خارج المنزل ليلتقط المارة منها خيرًا كثيرًا، لطالما أحب الملاك الاعتناء بحديقة المنزل، وكانت هي تتباهى بجمال وروعة حديقة منزلها. كان كل منزل تغادره يحزن على فراقها فيبدو مهجورًا، شحبت أشجاره وخضرته على فراقها، فبات كئيبًا ميتًا.

أما المنزل الثالث في المنطقة (V) فقد قضت فيه عشرة أعوام بحلوها ومرها، كان أكثر اتساعًا وانشراحًا من الفلل السابقة، إلا أنه لا يختلف كثيرًا عن البيت السابق من حيث تنسيق المزرعة وجمالها، إلا أن هذه الفيلا كان لها غرفة ضيوف بها شرفة واسعة جدًّا، وضع بها الملاك أرجوحة بيضاء أمامها «منقل» للشواء، حين انتقلا للعيش في هذا المنزل، كانت شيرين قد أنهت دراستها الجامعية وعاد إبراهيم وقد بدأ حياته في المدينة الفاضلة، وساعده الملاك في أن يكون له عمله الخاص، شادي في الأردن واثنتان من شقيقاته هناك أيضًا، والأخرى في كنف عائلتها في مرحلة الثانوية العامة، أما محمد وعبد الله فكانا لا يزالان في المدرسة بالمرحلة الإعدادية.

كبر أبناؤها وكبرت هي معهم، وزاد الضغط على جسدها، فلم تعُد تقوى على أداء المهام اليومية التي كانت تؤديها في السابق، ولكنها كانت تحاول دائمًا أن تبدو قوية أمامه وأمام أبنائها رغم الألم.

الأمور تسير على ما يرام، تزوج شادي وأخته شيرين، وأنهت اثنتان من بناتها الجامعة لتبدأ ابنتها الصغرى دراستها الجامعية في الأردن، وهكذا يبدأ هذا بالدراسة، وما إن يتخرج حتى يأتي دور آخر، وهكذا.

لقد مرت ختام بأحداث كثيرة في هذا المنزل، لعل أبرزها هو ولادة حفيدها من ابنتها شيرين، وحفيدتها من ابنها شادي، وسفرها لتحقيق حلمها الذي حلمت به منذ عودتها من علاجها في الأردن وهو أداء فريضة الحج، والتي كُتب لها أن تؤديها في ذات العام الذي أُعدم فيه صدام حسين، وقد كانت رحلة ميسرة جدًّا وبرفقة طيبة، عادت بعدها بروح معنوية عالية جدًّا وكأنها ولدت من جديد.

مرت الأعوام عامًا تلو العام؛ ليأتي اليوم القاسي عليها، استيقظت كعادتها فجرًا، أعدت الإفطار للملاك ثم تابعت خروج ابنيها إلى المدرسة، وكان لها اثنتان من بناتها في البيت، وقد تأكدت من خروجهما إلى عملهما، حيث تعملان في إحدى المدارس في المدينة الفاضلة، الأمور إلى الآن تسير بشكلها الروتيني إلى أن أعدت قهوتها المميزة، والتي تكاد أن تشتم رائحتها عند عتبة باب المنزل من الخارج، أخذت فنجان قهوتها وتوجهت نحو غرفة المعيشة لتجلس وتحتسيها قبل البدء بمهامها اليومية التي تنتظرها من تنظيف وإعداد الغداء وغيره، جلست بالقرب من الهاتف، بدت على غير طبيعتها، فمنذ أن استيقظت وهي تشعر بوخز غريب في قلبها، أرادت الاتصال بابنها شادي لتطمئن عليه، وضعت فنجانها وإذا بجرس الهاتف يرن، رفعت السماعة قائلة: «السلام عليكم».

فجاءها صوت الملاك قائلًا: «وعليكم السلام، كيف حالك؟»

أجابته بدهشة: «الحمد لله أنا بخير، أريد أن أحتسي قهوتي وأبدأ بمهامي المنزلية»، قال لها الملاك بصوتٍ هادئ: «لقد استأذنت اليوم من العمل، وأريد أن أعود إلى المنزل، أخبرتكِ بهذا حتى لا تقلقي عند رؤيتي».

لم يزدها كلامه إلا خوفًا وارتباكًا، «لماذا أخذ إذنًا؟ ولماذا يخبرني؟» أصابتها حيرة ودهشة، زادت من وخز قلبها الذي تشعر به منذ الصباح، وما هي إلا دقائق، حتى رن جرس الهاتف من جديد، وما إن وضعت يدها على السماعة لترفعها، حتى شعرت بألم شديد في قلبها، لم تقُل شيئًا وكأن لسانها عقد فجأة، اكتفت بوضع السماعة على أذنها وانتظرت حديث الطرف الآخر: «السلام عليكم».

جاء صوت عامر شقيق زوجها، لم تستطع الكلام، وكل ما خطر ببالها أن شيئًا ما قد حدث، تابع عامر كلامه: «آلو آلو، لقد توفيت خالتي أم فريد صباح اليوم رحمها الله وأسكنها فسيح جناته»، أكمل حديثه وأغلق الهاتف، أما هي فقد فقدت الحركة كليًّا، ولم تقوَ على الحراك أو تصديق ما سمعت، ولعل رحمة الله دائمًا تحيط بها، فما هي إلا ثوانٍ حتى كان الملاك أمامها ممسكًا بيدها،

وما إن لامس يديها حتى انهارت بالبكاء وهي تتمتم: «أمي ماتت، لم أرَها منذ عامين، أمي ماتت، لم أكن بجانبها، أمي ماتت، وجميع شقيقاتي من حولها إلا أنا»، وأجهشت بالبكاء، وقد فقدت القدرة على التحكم في نفسها وبدموعها المنهمرة، وللحظة تمنت أن تعود شهرًا إلى الوراء، حين عرض عليها الملاك الذهاب لزيارة والدتها، فقد تعرضت إلى نكسة مفاجئة نُقلت على أثرها إلى المستشفى، وقد تبين إصابتها بجلطة قلبية، وأُجريت لها عملية جراحية، إلا أن ختام لم تكن تتوقع أن وضع والدتها كان بهذا السوء، فقد طمأنها الجميع على صحتها وتحدثت هي معها، لقد تمنَّت هذا الآن، تمنَّت أن تكون بجوارها وتراها للمرة الأخيرة، ومَن منَّا يملك تغيير ما كان، فالحياة تأخذنا من الحياة وتلهينا، لقد ظهر الطفل القابع بداخلها رغم السنوات التي مرت عليها، فرحيل والدتها أيقظ هذا الطفل وجعلها تسند رأسها على كتف الملاك وتبكي، شوقًا وحنينًا إلى فقيدتها.

وبعد مضي ثلاثة أيام على وفاة أم فريد، كان الملاك قد غادر المدينة الفاضلة متجهًا إلى القرية، فقد أُصيبت والدته بجلطة قوية في المخ، فقدت على أثرها القدرة على تحريك جانبها الأيمن، وأصبحت طريحة الفراش، فمنذ ذلك اليوم الذي رأت فيه الكوبرا، لم تعُد كما كانت بقوتها في السابق، وتوالت عليها الجلطات حتى وصلت إلى المخ.

وصل الملاك إلى منزله متجهًا نحو غرفة والدته حيث كانت مستلقية على السرير، حين فتح الملاك باب الغرفة وتوجَّه نحوها، وأمسك بيدها اليسرى وقبَّلها، فتحت عينيها لتجده أمامها، وبدأت تبكي وتبكي ما أوجع قلبه عليها، كيف لأمه القوية أن تكون بهذا الحال؟! سالت دموعه حزنًا عليها وظل طوال الليل يجلس بجانبها ممسكًا يدها، ويعتني بها رغم أنه مرهق من السفر، ولم يوقظه من غفوته التي لم تتعدَّ نصف ساعة سوى صوت المؤذن، وهو ينادي لصلاة الفجر، فتح عينيه، وجد نفسه ما زال يمسك بيد أمه، شعر ببرودة غريبة في يدها، أفلت يدها ووضع كفه على جبينها، أخذ يحاول أن يسمع نفَسها أو دقات قلبها دون جدوى، لقد رحلت ولحقت بشقيقتها بعد ثلاثة أيام فقط، حزن الملاك كثيرًا عليها إلا أنه لطالما ردَّد أن الله قد اختار لها الأفضل، فهذه المرأة التي اعتاد رؤيتها بقوتها لن تستطيع تحمُّل أن تعيش بجزءٍ مشلولٍ كليًّا، ولكن مرارة الفقد والحنين سيطرت عليه فترة من الزمن قبل أن يعود إلى حياته الطبيعية.

مر عامان على وفاة والدتها وخالتها، زوَّجت خلالهما واحدة أخرى من بناتها وابنها إبراهيم الذي تزوج وسكن في المدينة الفاضلة، كان يومها حافلًا بالأحداث لا يسعدها سوى وجود الملاك بصحته وأبنائها وأحفادها من حولها، كانت جاراتها يرحلن من المدينة الفاضلة الواحدة بعد الأخرى، فما تمضي سنة حتى يتقاعد زوج إحداهن وتعود إلى وطنها، وبقيت هي وقد كبر أبناؤها،

ومنهم مَن أصبح موظفًا في المدينة، وتزوج وأنجب، فأصبحت هي جدة ويا لقلب هذه الجدة! كانت أقصى درجات سعادتها أن ترى أبناءها وأحفادها ملتفين حولها، وقد أعدَّت لهم ما لذَّ وطاب من أصناف الطعام، كانت تقف ساعات طوال لتُعد الطعام لهم بكل حبٍّ، فتراها تنتظرهم وإن لم يأتِ أحدهم تُعاتبه، وبالتأكيد تترك له حصته من الطعام جانبًا.

(17)

يوم من أيام الشتاء المختلفة مع بداية عام جديد، استيقظت من نومها على صوت رياح شديدة في الخارج، وقد أخبرها الملاك أمس بأن عاصفة رعدية قوية ستضرب المنطقة نتيجة منخفض جوي قوي، جلست في غرفة الضيوف تشاهد عبر الشرفة حركة الأشجار المخيفة، والأصوات التي تتبعها، تجلس وحدها في البيت، فالملاك قد ذهب إلى عمله منذ الصباح، وهي لم تعُد تستيقظ باكرًا سوى لأداء صلاة الفجر، تُعد الإفطار لملاك الذي ما إن يخرج إلى عمله حتى تعود هي للنوم قبل أن تبدأ بإعداد الغداء وترتيب البيت، كبر أبناؤها، فثلاثة منهم خارج المدينة الفاضلة يكملون دراستهم الجامعية، والباقي تزوج هنا وهناك، إبراهيم تزوج واستقر في المدينة الفاضلة، وكذا شيرين، وأصبح لديها أحفاد منهم، وكل في بيته.

لم تكن في هذا اليوم على ما يرام، شيء ما يقلقها، فحديث الملاك لها أنه يرغب بالعودة ولا يريد تجديد عقد عمله لعام آخر يشغل بالها، فقد اعتادت على لمة أبنائها وأحفادها من حولها، اشتدت الرياح في الخارج، وما هي إلا لحظات حتى عاد الملاك من عمله، وقد أخبرها بأن الطقس في الخارج غير مستقر، ما دفعهم إلى تعطيل العمل هذا اليوم، جلست معه أمام التلفزيون في غرفة المعيشة، كانت الإنارة مطفأة عدا إضاءة التلفزيون، وكانت الغيوم الداكنة قد ملأت السماء، فخيَّم الظلام على المكان، وما هي إلا لحظات ليشتد صوت الإعصار في الخارج، وكأن شيئًا يتكسر ويتطاير، اطمأنت على ابنتها وزوجها وأحفادها، ثم على ابنها وزوجته وحفيدته والملاك جالس أمامها، إذن فالأمور تسير على ما يرام، انقطع التيار الكهربائي، فعمَّ السكون المكان، هنا بدأت تشعر بالقلق حيال ما يجري من حولها، استمرت الأصوات وهطول المطر بغزارة، لم يتحرك أحد منهما من مكانه، وقطع الملاك الصمت ممازحًا لها: «وماذا ستفعلين العام القادم في شتاء الأردن؟» وأتبعها بضحكات عالية ليقف متسمرًا في مكانه، فقد سمع صوتًا عاليًا قادمًا من الخارج قريبًا منهما وكأن شيئًا قد تحطم، فجأة لم يستطع فتح الباب من قوة اندفاع الهواء، فاكتفى بفتح الستارة الموجودة في ممر المنزل ليُلقي نظرة على الخارج.

لقد تكسرت بفعل قوة الرياح شجرة قابعة أمام المنزل، ووقعت على السور الأمامي للحديقة فتحطم بالكامل، استمر الوضع على هذا الحال حتى منتصف الليل، وقد دمر هذا الإعصار ما دمر قبل أن يغادرا المدينة الفاضلة. في صباح اليوم التالي كان يوم جمعة، وكانت ختام لا تزال نائمة، أما الملاك فقد بقي مستيقظًا بعد صلاة الفجر، وأخذ يرمم ما أفسدته الرياح في الخارج، لقد قلب

الإعصار الحديقة رأسًا على عقب، فتحركت الأواني المزروعة من مكانها، ومنها ما تحطم، أخذ يتحرك هنا وهناك علَّه يستطيع إصلاح ما يمكن إصلاحه، وما إن أشرقت شمس هذا اليوم، وبعد أن أنهوا طعام الإفطار بصحبة أبنائهما وأحفادهما، حتى بدأ التجهيز لصلاة الجمعة، شيرين وزوجة إبراهيم تقفان في المطبخ، وختام تجلس على طاولة الطعام التي تتوسط المطبخ تتحدث معهما، وأحفادها قد جلسوا من حولها، الملاك ذهب للاستحمام، أما إبراهيم فجلس ممسكًا هاتفه الخلوي في غرفة المعيشة، الحديث يدور حول الإعصار وما دمر وخرب في المدينة، رن جرس الهاتف الأرضي، ذهب إبراهيم لإحضاره والرد على المتصل.

لم يطل انتظار ختام لمعرفة مَن المتصل، فقد قدم إبراهيم إلى المطبخ حيث تجلس، وقد خيم على وجهه الحزن، التفتت إلى الخلف حيث سمعت تنهيدة إبراهيم، نظرت إليه قائلة: «لعله خير».

قال لها إبراهيم: «البقاء لله، لقد توفي عمي عامر صباح اليوم»، وما أكمل جملته حتى عمَّ الصراخ أرجاء البيت بين مصدق ومكذب، وختام تردد: «يا إلهي، نجوى! ماذا سيحل بها؟ أطفالها تيتموا، كيف سنخبر الملاك؟» وأخذت تذرف الدموع، لقد كان عامر يحب بناتها وأبناءها، وهم يحبونه كثيرًا، وكان لطيفًا معهم خاصة بعد أن أقعده المرض، فكان حين يرى أحد أبناء ملاك وبناته يعانقهم بشدة ويجهش بالبكاء، لقد شقي عامر ما شقي في حياته، ولعل ما زاد من حزن الملاك على وفاة شقيقه المكالمة الهاتفية التي سبقت وفاته بيومين، والتي طلب فيها عامر من الملاك أن يأتي إلى القرية ليستعيدا ذكرياتهما معًا، وينزلا إلى الوادي للاختباء خلف الأشجار وعمل المقالب بشقيقهما عاهد، وأبناء خاله وأبناء عمته، وكأنه عاد طفلًا صغيرًا يحن إلى رؤية الملاك ليُعيدا ذكرياتهما معًا، ولعل ما زاد من حزنه أنه أتى إلى القرية بناءً على طلب عامر، إلا أنه استعاد ذكرياتهما دون عامر، لقد سافر إلى القرية وشارك في الدفن ومراسم العزاء، واطمأن على أبناء شقيقه وأوضاعهم قبل أن يعود إلى المدينة الفاضلة.

وعادت حياتها تسير بمجراها الطبيعي، تجلس ختام ومعها الملاك وحولهم أبناؤهم محمد وعبد الله قد قدموا لقضاء عطلة الصيف مع والديهما، فهما يدرسان في إحدى الجامعات التركية في مدينة قبرص، وها هو إبراهيم وزوجته وشقيقاته الثلاث اثنتان منهن تزوجتا ومعهما أطفالهما، خمسة أحفاد يلعبون من حولهم هنا وهناك، الجميع جالس في غرفة المعيشة يتبادلون الأحاديث، وقد أدار الملاك التلفزيون لينتظروا جميعًا لجنة تحري هلال شهر رمضان، وما هي إلا لحظات حتى أعلن المذيع أن غدًا هو أول يوم من أيام شهر رمضان المبارك، وقد كان آخر رمضان يقضيه الملاك وختام في منزلهما كمقيمين في المدينة الفاضلة، عمَّت البهجة والمباركات المكان، وانطلق الجميع

لإنهاء التجهيزات الأخيرة، أما الملاك فاستعد للخروج إلى المسجد لأداء صلاة التراويح.

كان شهر رمضان بالنسبة لختام شهر البهجة والفرح، فجميع أبنائها يلتفون حولها ليأكلوا ما صنعت يداها، كانت تقف بعد أذان الظهر في المطبخ لا تخرج منه إلا وقت أذان المغرب، يتخللها بعض الانقطاعات لأداء الصلوات وتعود لتقف مجددًا تعد أصناف الطعام، كانت تحرص على أن تُرضي كافة الأذواق، تهتم بكل فرد منهم حتى أحفادها قبل الأذان تتصل بالجميع تتأكد من حضورهم للإفطار سويًّا.

اليوم آخر يوم في رمضان، أعدت طبق القوزي وهو عبارة عن أرز مطبوخ بقطع من اللحم المفروم تغطيه المكسرات المقلية كاللوز والصنوبر، وبجانبه صينية الدجاج المشوي مع الخضار، والسَّلطة العربية وحساء العدس، بالإضافة إلى طبق الكبَّة المقلية والسمبوسة بحشوات مختلفة، الكل مجتمع من حولها، تبتسم للجميع على الرغم من التعب الظاهر على وجهها الشاحب، فقد قضت شهرًا كاملًا على هذا الحال تقف وقتًا طويلًا يتعدى الساعات الخمس تُعد ما لذَّ وطاب، ثم وقت الإفطار تجلس معهم تلبي طلباتهم، فلا تكاد تستطيع تناول أي شيءٍ من التعب الذي تحس به من وقفتها المتواصلة، الكل ينهي طعامه ويتوجَّه نحو غرفة المعيشة، أما هي فتظل جالسة على طاولة الطعام لتقوم قبل أذان العشاء وقت التراويح بربع ساعة لأداء صلاة المغرب لا يدفعها لذلك سوى الألم الشديد الذي تشعر به في ساقيها دون أن تشتكي، ليمر الوقت وتنهي صلاة التراويح، وتجلس لقراءة القرآن، ومع كل هذا فقد كانت في غاية سعادتها، لقد افتقدت رمضان معهم، افتقدت لمَّتهم واجتماعهم حولها، وافتقدت نكهة الطعام حين غادرت المدينة الفاضلة تاركة وراءها قلبها وذكرياتها.

وما هي إلا أيام، وينتهي العيد ويعود الجميع إلى عمله ودوامه الرسمي ليستلم الملاك بعدها بأيام إخطار التقاعد بناءً على رغبته، ويبدأ مع ختام استعداداتهما للعودة إلى القرية ومغادرة المدينة الفاضلة.

اليوم وبعد ربع قرن اختلف كل شيءٍ في هذه المدينة الفاضلة، بل إن منزلهم الأول الذي سكنوه في المدينة الفاضلة قد تمَّ هدمه بالكامل هو وما حوله من منازل رغبة في تعمير مبانٍ أحدث، الحدائق لم تعُد كما كانت، فقد استبدلوا ما فيها من ألعاب ما أحدث تغييرًا كبيرًا فيها، الطريق إلى الحديقة وإلى المركز الطبي وإلى المدرسة الذي يحكي الكثير عن ختام، لم يعُد طريقًا عاديًّا، بل غدا طريقًا مؤلمًا مليئًا بالذكريات، كله حنين وشوق.

كان 2014 عام التغيير والعودة بالنسبة لهما، العودة من الغربة إلى الغربة، حان موعد مغادرة ختام المدينة الفاضلة بعد أن أمضت بها وزوجها أكثر من خمسة وثلاثين عامًا، ذكرياتها، همساتها وضحكاتها وخطواتها ما زالت على الطرقات، لقد عرضوا على الملاك البقاء كمستشار أو التقاعد، وكان ذلك بعد ثلاث سنوات من السِّن الرسمية للتقاعد، فقد كان رجلًا يحب عمله ويبدع في أدائه، ما دفع المسؤولين إلى تمديد فترة عمله، إلا أن شوقه وحنينه ورغبته في العودة إلى بلده دفعه إلى طلب التقاعد، وكان له ما طلب، ليتركوا المدينة الفاضلة وتبقى أصوات لعب أبنائهم وأحفادهم وضحكاتهم تملأ المكان، إما في الشارع أو في حديقة المنزل الخلفية حيث الأرجوحة البيضاء التي لطالما جمعتهم حولها لشَي اللحم وغيره، والتي كانت في فصل الشتاء تعج بالأصوات والضحكات وبرائحة النعناع والريحان المزروعة من حولها، كانت ختام تصل لأقصى درجات السعادة حين ترى كل أبنائها ملتفين حولها يتناولون الطعام الذي مكثت لساعات تعده من أجلهم، في هذا العام عادا من غربتهما إلى غربتهما، فالغربة أن تكون غريبًا في أرضك بعيدًا عن وطنك وأهلك ومَن تحب، وهي في عودتها غربة عن أبنائها وأحفادها، فعاشت حياتها غريبة تعي معنى الغربة بكافة أشكالها.

لقد غادرا القرية قبل أربعين عامًا وحيدين هو وهي فقط ليعودا إلى القرية وحيدين، فما كانا يعلمان بأن القدر قد رسم لأبنائهما طريقًا نحو الغربة بل شتاتًا في بقاع الأرض، لم يتوقع الملاك يومًا أن يكون نصيب بناته الزواج من غرباء لا يستطيعون بحكم الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين القدوم إلى القرية، وكأنه لم يفكر في المستقبل، بل كان يعيش اللحظة الآنية، لتأتي لحظة الغربة من الغربة إلى الغربة، غادرا المدينة الفاضلة وقد غدت بعدهما موحشة مليئة بالذكريات، خطوات الملاك متجهًا نحو الجامع، وضحكات ختام وجاراتها حين يخرجن للمشي في أرجائها، خطواتهما باتت ذكرى جميلة في أرجاء المدينة، تحييها كلما قدمت في الإجازات الشتوية لزيارة أبنائها الذين يحملون في ذاكرتهم إلى يومنا هذا أجمل الذكريات في حلهم وترحالهم، فالذكريات تتوارى وربما تزول مع الأيام، أما المكان فيبقى شاهدًا ما بقي.

في ذلك العام وقبل مغادرة منزلها في المدينة الفاضلة للاستقرار وزوجها في الأردن، كان عامًا مميزًا بالنسبة لها على بساطتها، ففي هذا العام سافرت مع إحدى بناتها إلى بلد جديد، فكانت تجربة شائقة بالنسبة لها كما تمنتها، كانت حريصة كل الحرص على أن يكون أبناؤها يدًا واحدة، لم تغادر المدينة إلا بعد أن أسست لعلاقات متينة بين أبنائها، لقد حان وقت الرحيل والعودة إلى الوطن، الوطن الذي فارقته قبل خمسة وثلاثين عامًا لتعود إليه اليوم، ولكن ليس كما فارقته، والدها

ووالدتها وجدها وجدتها كلهم تحت التراب، فارقوا الحياة في سنوات غربتها، شقيقاتها تزوجن وأنجبن وافترقن، شعرت بغصة في قلبها، كيف لها أن تودِّع أجمل أيامها التي قضتها في المدينة الفاضلة، ما زالت الجدران والشوارع والمباني تبكي رحيلها،
وما زال الألم يعتصر قلب محبيها على فراقها، كيف لها أن تترك أبناءها وأحفادها وذكرياتها وتعود إلى الوطن، لقد سرقتها الغربة من نفسها، سرقت عمرها وفجأة وصلت إلى نهاية الطريق، خافت ممَّا بعد العودة ولم تجد إلا الذكريات ملاذًا لها.

لقد حاول أبناؤها أن يقنعوا والدهم بالبقاء هنا، فكلهم من حولهم، فلِمَ الغربة من جديد؟ فلمْ يعُد هناك شيء لهم يعودون من أجله، إلا أن الملاك لطالما حلم أن يعود إلى أرض الوطن وتلهف لاستكمال مشوار نجاح غربته على أرضه التي تعلق بها، لقد حنَّ إلى رائحة الأرض ورغب بأن يستقر فيها ظنًّا منه أنه سيرتاح من عناء الغربة، أما هي فقد تركت قلبها في المدينة الفاضلة، ولم تعُد كما غادرتها، عادت إلى الوطن وكأنها لم تعُد، فقد ظلت روحها في المدينة الفاضلة وغادر جسدها إلى القرية حيث ولدت.

بعد أقل من عام قامت ابنتها باستخراج تأشيرة زيارة لهما، وقدما إلى المدينة الفاضلة واجتمع الجميع من جديد في بيت إبراهيم، وقد كان ذلك في شهر رمضان، مرَّ هذا الشهر عليها سريعًا، كانت تستيقظ كل يوم تدعو الله أن يديم عليها وعلى أبنائها السعادة، وأن تمكث أكثر مع أبنائها وأحفادها، أما الملاك فلم يكن يرغب بترك بيته، فهو لا يحب السفر كثيرًا إلا أنه يضطر لذلك من أجل أن يرضيها ويخفف عنها شعورها بالشوق لأبنائها.

مرت الأعوام لتعود إلى وطنها الأم حاملة معها الكثير من الذكريات، عادت إليه غريبة عنه، فقد مكثت خارجه عمرًا يفوق العمر الذي مكثت فيه بوطنها، أما الملاك فعاد يحمل شوقًا وحنينًا لأرضه وبلدته رغم تبدل أحوالها وتغيرها، فلم تعُد كما كانت، فلا أثر لرائحة خبز الطابون تفوح هنا وهناك في الصباح، فقد استبدلت أفران الطابون بالفرن المنزلي الحديث الذي أصبحت نساء القرية يمتلكنه، وقد خفف الكثير من العبء عنهن، أو على الأرجح فقد أصبح الخبز متوفرًا في الأسواق بكثرة، ما خفف عليهن عناء الاستيقاظ قبل الفجر لإشعال فرن الطابون وإعداد العجين وتحمُّل حرارة اللهب الخارجة منه، لم تعُد الحياة ببساطتها فقد سيطر على القرية جيل جديد
لا يعي معنى لمَّة الأهل، فهو جيل الإنترنت والهواتف المحمولة التي تمكنت منهم وسيطرت على عقولهم، فباتوا يمضون أغلب وقتهم في عزلتهم معها. عاد إلى القرية وانساب عبق الزمن الماضي في أعماقه، لقد رحل عنها كل أحبابه، فقد غيبهم الموت وأصبحوا في قبورهم إلا أن حلمه منذ

غادر القرية أن يعود لها.

عاد إلى بيته، بيت أهله، الذي لم يعُد فيه أبو الملاك وأم الملاك ولم يعُد فيه شجار عامر وعاهد شقيقيه، وقد غادرته شقيقتاه حيث تزوجتا وأسستا حياتهما في الخارج، أما هي فقد رحل والداها إلا أنها أفضل حالًا منه، فنجوى وثلاث أخريات يسكن في القرية أو في قرى قريبة منها، وكذلك شقيقها الأصغر خليل الذي لا يزال يسكن بيت أهلها ويعمره.

سكنا في القرية في بيتهما القابع في أرضه التي كانوا يطلقون عليها «العماير»، أعاد الملاك تجديده بعد أن عهد لعامر الإشراف على بنائه إلا أن عامر لم يكن حريصًا على متابعة الأمر كما يجب، فحرص الملاك على أن يعيد تجديده ليكون أقرب إلى البيوت التي سكنتها ختام في المدينة الفاضلة، كان بيتًا واسعًا جميلًا، أشرفت هي على تأثيث كل غرفة من غرفه بحب، وهي ترى أبناءها وأحفادها من حولها، تختار ما يناسبهم ويريحهم لا ما يناسبها، كان للبيت حديقة واسعة جدًّا، قام الملاك بالإشراف على زراعتها بالأزهار الجميلة من ورد وفل وقرنفل، وكأنها جنة محاطة بأشجار التين والعنب، رائحة الورد وزهر الليمون تجود بعطرها وتنشر عبيرها في كل مكان، لقد شعرت بالوحدة والغربة بادئ الأمر، اختلطت في ذاكرتها الأماكن والأزمنة، ضاعت اللحظات بين الملامح والأصوات، اشتاقت إلى أبنائها وأحفادها، كان هذا الشعور يزداد كلما أسدل الليل ستائره، لم تعتد على هذه الوحدة بعد، فقد كان منزلها هناك يعج بأصوات أحفادها وأبنائها من حولها، أما هو فسرعان ما أصبح لديه رفقة وأصدقاء يلتقي بهم وقت الصلاة يجتمعون ويتحدثون بعد انتهائهم من صلاتهم، ويقضي غالب وقته معهم، فيجذبهم حديثه وتأخذهم مفرداته وعمق تحليله وسعة ثقافته ووقاره فيؤثر فيهم، فقد زادته الغربة تواضعًا ووعيًا ثقافيًّا، فلم يغير جلده ولم يغيره الزمن بل ظلَّ على حاله بعفويته وبساطته، وقد ظل على طباعه وأخلاقه التي نشأ عليها حافظًا لدواخله من اختلاس النظر وإلقاء السمع والحديث عن الناس.

أما ختام فكانت تؤنس وحدتها شقيقتها نجوى التي تسكن بالقرب منها، فكانت نجوى كل صباح تأتي لتحتسي القهوة معها، ثم شيئًا فشيئًا أصبحن يجتمعن في بيت العائلة الذي ولدت وترعرعت فيه، وقد سبقها والداها إلى دار الخلود حين كانت في غربتها، كانت وشقيقاتها يتفقن على يوم معين يلتقين فيه يأتين من مدن مختلفة يقضين معًا وقتًا ممتعًا، كان أكثر ما يلهيها عن الخوض في الذكريات هو جمال الطبيعة من حولها وشعورها بالفصول، ففصل الربيع مميز بأزهاره وخضرته، وفصل الشتاء مميز بأمطاره وبرده، ففي فلسطين لكل فصل طابع خاص.

في أول فصل من فصول الربيع لها في القرية، اتصلت بشقيقاتها واتفقن على اللقاء في بيت

أهلها، حيث يعيش شقيقها خليل، لإعداد فطائر الزعتر البلدي التي تبدع ختام بإعدادها، ومن ثم الذهاب في نزهة إلى أرض مجاورة لأرض أهلها يُقال لها «خلت الراس»، التقين في اليوم المحدد واجتمعن في مطبخ البيت، ختام أعدت العجينة وبدأت بفردها لتقوم شقيقتها نجوى بخبزها في فرن الطابون الذي قُمن بإشعاله من جديد بعد مضي زمن على تركه، لتشم رائحة الماضي وتعود بالزمن ساعاته وذكرياته، هنا والدها وفريد وهنا والدتها وشقيقاتها، وهنا بدأت قصة حبها، كانت بروحها الجميلة تحيي المكان فهي بطبعها تحب الناس وتسعد بهم، فلا تُشعر أحدًا بما في دواخلها من غصة بُعد أبنائها وأحفادها عنها.

بعد أن انتهت من إعداد الفطائر أعددن الشاي، وتوجهن نحو «خلت الراس»، الجمال هنا وهناك، نباتات يانعة بغصونها الخضراء، هي أرض منحدرة كساها الربيع فبدت لوحة رسام أبدع في رسمها، الجو دافئ يتخلله نسيم عليل ينعش النفوس، فيزيد وجهها جمالًا على جمال، افترشن الأرض وجلسن يستمتعن بأحاديث الملاك الذي انضم لهن، والطيور تحلق مغردة مرفرفة من حولهم، كانت ختام تجلس في الجهة المقابلة لشجرة الخروب وقد بدت صغيرة جدًّا لبُعد المسافة عنها، قابعة أمامها لا تفارق نظرها وتخبرها الكثير.

أخذت ختام شيئًا فشيئًا تعتاد الوضع، وتعود الحياة لحياتها، فها هي تستيقظ باكرًا تعدُّ طعام الإفطار، وجلست تفكر بأبنائها وأحفادها القادمين اليوم إلى القرية، جلست في غرفة المعيشة والملاك جالس أمامها يشاهد التلفزيون، بدأت تجري اتصالاتها وتتأكد من أن بناتها قد توجهن نحو الجسر ومنه إلى القرية، وأخذت تحسب الوقت المقدر لوصولهن، ثم اتصلت بنجوى وأخبرتها برغبتها في تجهيز غداء الغد من اليوم، وهو طبق محشي ورق العنب والكوسة، والتي لطالما أبدعت نجوى وتميزت بإعداده وخاصة حين تستقبل ضيوفها القادمين من الخارج، لبَّت نجوى طلبها بالتأكيد، فما مضت ساعة إلا كانت نجوى معها في مطبخ منزلها تساعدها، لم تكن ختام كعادتها، بل كانت تشعر بسعادة لا توصف، فهذه المرة الأولى التي سيرى أبناؤها بيتها الجديد ويملؤونه فرحًا، أنهت إعداد غداء الغد، وتوجهت نحو غرفتها بعد أن غادرت نجوى البيت فتحت دولاب ملابسها، وأخذت تفكر.. ماذا سترتدي؟ صففت شعرها وتعطرت بعطرها الساحر المميز، واتجهت نحو غرفة الضيوف وجلست هناك ممسكة بهاتفها المحمول تنتظر أخبارًا عن أبنائها، حلَّ الليل ولا يوجد أي خبر عنهم، كانت تجلس في غرفة المعيشة هي والملاك حين سمعا صوت سيارة تقترب من البيت، لحظات وضوء خفيف انبعث من نوافذ غرفة المعيشة، توجَّه الملاك إلى الخارج ليستقبل أبناءه وأحفاده مهللًا، أما هي فوقفت أمام باب البيت وكلها شوق بلقائهم ليلتفوا من

حولها ويزيدوا بهاء حياتها ومتعتها ثلاثين يومًا.

سرعان ما مرت الأيام كأنها يوم واحد، أعادت بداخلها دفء مشاعر العائلة وشعرت بأهمية وجودها بالنسبة لهم، وشعرت بحبهم وأغدقت عليهم حبًّا وحنانًا، البيت من حولها يضج بالأصوات، أمام ساحته يلعب أحفادها بالكرة وهي تجلس على كرسي أمامهم تنظر إليهم مستمتعة بهم وبحركتهم وشغبهم، وبناتها يجلسن من حولها، يحدثنها عن أحوالهن، هذه تشتكي من أمرٍ ما، وتلك ترغب بشيءٍ ما، ويملأن قلبها بضحكاتهن وشغبهن، على مدى ثلاثين يومًا أجواء من الألفة والمحبة، فها هي فاطمة شقيقة الملاك تأتي مع بناتها لزيارتهن، وكانت هي أيضًا ضيفة على القرية، فهي تقيم خارجها، وها هو خالها عبد الله يأتي لزيارتهم وقد حلَّ ضيفًا أيضًا، فهو يقيم وعائلته في الكويت، هنا ابنتها تعد أقراص الكعك بالتمر كما علمتها والدتها، وهنا اجتمع أبناؤها يحتسون الماء الساخن والليمون، لعله يخفف من الدهون التي اكتسبوها من طعام والدتهم اللذيذ، حديث هنا وضحكات هنا، وشاية أحدهم بالآخر، الأطفال ملتفون حول جدهم وجدتهم يحدثونهم ويلعبون معهم، أجواء حميمية سرعان ما انقضت.

في آخر يوم في إجازة بناتها، جلسن جميعهن في شرفة غرفة الضيوف، كان الجو لطيفًا، أحفادها جلسوا أمام عينيها على الأريكة، تحاول أن تشحن نفسها وعينها وقلبها برؤيتهم وحديثهم، تمازح هذا وتداعب هذه وتلتقط الصور والفيديوهات لهم.

حان وقت وداعهم، غابت ضحكات أبنائها وشقاوة أحفادها وأصواتهم، ولم يتركوا لها سوى الذكرى في كل زاوية من زوايا المنزل، وكل ركن فيه قصة وغصة علقت في قلبها، ليعود المنزل فارغًا ميتًا لا حياة فيه، ولقد فوجئت بعد شهر بوفاة صديقتها أم حسين بعد معاناة مع المرض، وقد تأثرت كثيرًا برحيلها، فقد كانت آخر مرة التقيا بها في بيت أم حسين في عمَّان العام الفائت، حين اتصلت بها أم حسين وأخبرتها بأنها ليست على ما يرام، وبأنها ترغب برؤيتها، وكان أن ذهبت فعلًا لزيارتها واصطحبت معها ابنتها وشقيقها فريد وزوجته، وقد بدا التعب واضحًا على وجه أم حسين التي كانت تعاني منذ زمن من الكبد الوبائي الذي أتلف كبدها على مر السنين، في ذلك اليوم عانقتها أم حسين عناقًا طويلًا وأخذت تجهش بالبكاء، وكأنها تخبرها برحيلها وبأنها المرة الأخيرة التي ستلتقيها في هذه الدنيا، وهذا ما كان.

في العام نفسه، ومع اقتراب نهايته، أرسل أبناؤها لها ولوالدهم تأشيرة زيارة للتخفيف عليهم من برد فلسطين القارس، وخصوصًا في شهر كانون الأول، وليحتفلوا معًا ببدء عام جديد وهم مجتمعون في أفضل حال، فعادت لرؤيتهم وعادت لها الحياة، زارت صديقاتها وخرجت معهن،

أعدَّت أصناف الطعام لأبنائها وأحفادها، ملأت بضحكتها أرجاء المكان ليعود وينبض بالحياة من جديد، في آخر يوم لها في الإمارات في تلك الزيارة في مطلع عام 2019 كان يومًا مختلفًا حقًّا، قضته في كنف بناتها الأربع، بعد أن تناولوا جميعًا طعام الإفطار، توجهت اثنتان من بناتها إلى السوق حيث أرادتا أن تشتريا لها حذاءً مريحًا لترتديه في السفر، وليُخفف عن قدمها الألم، كانت بناتها تجتهدن لرؤيتها مرتاحة سعيدة لا تتألم، كن يطلبن منها الجلوس والراحة، ولو كان بالإمكان لمشين نيابة عنها حتى تبقى أميرة معززة مكرمة لا تشتكي ألمًا أو وجعًا، نزلن عند قدميها تبدلن بحذائها حذاءً مريحًا، وقد رافقنها إلى المطار حيث صالة المغادرين، وقد بحثت إحداهن عن خدمة توفير الكرسي المتحرك لها لتتنقل والدتها من خلاله في المطار إلى باب الطائرة بصحبة مرافق ومعها الملاك بالتأكيد، كانت تلك آخر مرة تزور بها ختام المدينة الفاضلة، وفي هذه الإجازة أفصحت ختام لإحدى بناتها بأمر الكتلة التي عادت تشعر بها من جديد أسفل إبطها الأيمن، وكانت تؤلمها جدًّا إلا أنها طلبت منها عدم إخبار أحد بذلك، معللة طلبها بأنها قد قامت بفحصها عند أحد الأطباء في مدينة طولكرم، وأخبرها بعد إجراء التحاليل والأشعات بأنها كتلة دهنية، ومرَّ الموضوع ولم تخبر ابنتها أحدًا بما قالته والدتها إلا بعد حين.

جاءت لحظة الوداع، وغابت عنهن، وكانت المرة الأخيرة لإحداهن ترى والدتها فيها، وقد شعرت بهذا، فما إن جلست ختام على الكرسي المتحرك حتى أجهشت ابنتها هذه بالبكاء، وظلت تبكي حتى اختفت من أمامها ورحلت لتكون آخر مرة تشاهدها أمامها، وتلمس يديها وتعانقها وتُقبِّلها.

(18)

لم تكن ختام تعلم أن القدر خبَّأ لابنتها الكبرى ذات المصير، ما حرك بداخلها الألم والمشاعر نفسها التي عاشتها قبل تسعة عشر عامًا، حين علمت أن ابنتها تشعر بكتلة في مكانٍ ما في جسدها، ومع هذا فقد كان حزنها على ابنتها أضعافًا مضاعفة، فلم تكن ترغب في أن تعيش ابنتها ما عاشت هي من همٍّ وكدَر، ولكن رغم الألم يبقى الأمل.

ففي صيف ذات العام، وبعد أن قضت ابنتها الكبرى شيرين وأبناؤها إجازة الصيف مع والديها، وكانت إجازة مميزة حقًّا، وقد كان برفقتها اثنتان من شقيقاتها، زوَّجت ختام واحدة منهن وأقامت لها عرسًا حضره أهلها وأقاربها، وكانت في ذلك اليوم تزف ابنتها مبهجة مبتهجة كعادتها، فهي التي لطالما تمنت أن ترى ابنتها هذه في ثوب عرسها الأبيض، فلم تكن تدرك أن هذه العروس هي آخر عروس ستزفها إلى زوجها قبل رحيلها ليبقى لديها ثلاثة من الأبناء حرموا من وجودها إلى جانبهم يوم زفافهم.

لقد انقضت تلك الإجازة الصيفية بحلوها ومرها، قضت ثلاث من بناتها إجازتهن بأكملها في ربوع فلسطين، ودَّعن ختام بالدموع والأمنيات بلقائها العام القادم، وهذا لم يكن.

بعد مضي شهرين من الزمان استيقظت في أحد الصباحات على صوت الملاك، كان في المطبخ يعد لها طعام الإفطار، جلسا وحيدين على المائدة، كان الجو غائمًا، وكأن الغيوم تستعد للبكاء على أمرٍ ما، هدوء غريب يخيم على المكان، لعله هدوء ما قبل العاصفة، وأي عاصفة تلك!

رن جرس الهاتف الأرضي، بقيت هي في مكانها تترقب بينما ذهب الملاك لإحضار الهاتف اللاسلكي من غرفة المعيشة، كانت ابنتها الكبرى على الطرف الآخر من الهاتف، دار حديث مطول بينها وبين والدها، كانت ختام تسمعه بتمعن، شعرت بقلق من ردوده على ابنته، لم تنتظر أن يغلق الهاتف وقاطعت حديثه مستفسرة عمَّا بها، ليكون رده سهمًا اخترق قلبها الأبيض الكبير.

قالت له: «ما بال شيرين؟ ماذا حدث لها؟»

نظر إليها والدموع ملأت عينيه وظل صامتًا بضع دقائق قبل أن يقول لها: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، وطأطأ رأسه حزنًا.

لقد أخبرته ابنته بأن الشك ساورها بينما أحسَّت بوجود كتلة غريبة في جسدها تزداد حجمًا مع مرور الوقت، فكان أن ذهبت لإجراء الفحوصات الطبية اللازمة ليخبرها الطبيب بأن الكتلة ما هي

إلا ورم خبيث، وجب استئصاله بالسرعة القصوى خوفًا من انتشاره. قضت ختام تلك الليلة حالكة السواد حزينة تفكر بأمر ابنتها، وقد انهمرت دموعها على وجهها دون توقف، داعية الله أن يقف بجانب ابنتها حتى تتخطى هذه اللحظات المؤلمة.

مرت هذه الليلة عليها وكأنها دهر، ومع شروق الشمس قامت بتجهيز حقيبتها وحقيبة زوجها لمغادرة المنزل إلى الأردن، ودعت نجوى وقد أخبرتها بالأمر حيث اتفقتا مع ابنتهما على اللقاء معها هناك للتأكد من الأشعة والتحاليل التي أجرتها، ومتابعة فحوصاتها في مستشفيات متخصصة في الأردن علَّها تكون ورمًا حميدًا، وكأن الزمن يعيد نفسه ويكرر الأمر ذاته مع ابنتها، إلا أن الأمر اختلف تمامًا، فلم يكن سحرًا أسود أبدًا، وإن كانت ختام تتمنى ذلك.

منذ سماعها لما حلَّ بابنتها، بدأت ختام تفقد رونقًا من رونقها كل يوم حتى ذبلت، لطالما حاولت أن تخفي مشاعر الحزن والألم على ابنتها التي كانت تنهار أمام عينيها، وطالما رددت أمامها الكثير من التساؤلات التي ذكرتها بنفسها قبل أعوام: «لماذا؟ وكيف؟ ولماذا أنا بالذات؟ أنا لم أتسبب يومًا بإيذاء أحد طوال حياتي، فلماذا أنا؟ وهل الإصابة بهذا المرض عقاب على ذنب ارتكبته؟»

كل هذه التساؤلات كانت لدى ختام سابقًا، لم تجد لها إجابة، واليوم تعود أمامها وكأنها ما شفيت منه، بل عادت تشعر بالكتلة مرة أخرى في جسدها هي الأخرى، ولكنها لم تخبر أحدًا بذلك.

لم تكن تعلم ماذا يمكن أن تقدم لابنتها، كانت كل يوم تجلس في المطبخ تُعد لها طعامًا صحيًّا من الأطعمة التي يُقال إنها تحارب السرطان، فتراها يوميًّا تمسك كيسًا من الجزر تقشره وتعصره وتقدمه لابنتها، وتُعد أطباقًا من الملفوف علَّه يكون شفاءً لها.

آمال وأحلام وثقة برب كريم، كانت تعتصر قهرًا عليها وتردد أمام زوجها أنها ستقوم بحلق شعرها بأكمله تأييدًا لابنتها إذا ما تأكد أنها مصابة بالخبيث المميت.

مع بداية عام 2020 كان الوضع على ما هو عليه، لا تزال ختام في الأردن، وابنتها شيرين قد أنهت الفحوصات والأشعات التي أكدت إصابتها بالورم الخبيث فعلًا، والذي لم يكن حجمه صغيرًا وأجمع الأطباء على ضرورة البدء بجرعات الكيماوي تحسبًا لانتشاره. حاولت ختام وأبناؤها جاهدين الوصول إلى ذات الشيخ، الشيخ حامد الذي عالجها سابقًا وكشف لها عن السحر الأسود ولكن دون جدوى، وكأن الأرض ابتلعته فلم يجدوا له أثرًا، أما ختام نفسها فرغم علمها أن الورم قد عاد إلى جسدها كما كان، إلا أنها آثرت أن تخفي الأمر حتى شفاء ابنتها. نعم لقد عادت الكتلة إلى

جسد ختام منذ أعوام، لكنها كانت تصبر نفسها بأنها قد تكون كتلة دهنية سرعان ما تزول وحدها، أو أنها أرادت أن توهم نفسها بذلك، وقد كان لهذا أبشع الضرر عليها لاحقًا.

لم تكن هي والملاك وحتى ابنتهما يرغبون بالعلاج الكيماوي، كيف ذلك وهي التي لجأت إلى مختلف الطرق حتى لا يقضي عليها وعلى أنوثتها كما كانت تظن؛ لذا شجعت ابنتها على المتابعة مع أحد أطباء العلاج الشعبي والاعتماد على الأعشاب لتنقذها من مخالب الكيماوي، وكثيرًا ما أحضروا شيخًا لقراءة القرآن عليها.

لقد كان الملاك في تلك الفترة السند والقوة لكل مَن حوله بكلماته المؤمنة وصبره واحتسابه، فشجَّع ابنته على عدم الاستسلام مؤكدًا لها أن الحالة المعنوية تؤثر على المرض وتهزمه إذا ما كانت عالية، رفع طاقتها الإيجابية وشدد عليها ضرورة اللجوء إلى الله، فهو الشافي من كل داء.

عاد الكل إلى دياره وبدأت ابنتها رحلة العلاج مجهولة المصير، اعتمدت فيها على كل الأغذية المقوية للمناعة والمضادة للخبيث، كانت تُكثر من تناول مشروب الكركم ومشروب الجزر، لجأت إلى إعداد خبز الشعير واعتمدت على الأغذية العضوية، كانت تظهر أمام الجميع بمعنويات مرتفعة، كانت ختام ترفع معنوياتها وتقويها بدعائها ووقوفها بجانبها، كل ذلك قبل أن تحل لعنة الله على العالم بأكمله.

جاء شهر آذار من عام 2020، عزلة تامة، حظر تجول، إغلاق للمتاجر والمطاعم وحتى المدارس والجامعات، توقفت حركة الطيران وأُغلقت الحدود بين الدول، ترى الكعبة المشرفة وقد منعت المصلين من أداء صلاتهم بها، أُغلقت دور العبادة، توقف العالم لأيام وشهور، ولجأ الجميع إلى التواصل عبر العالم الافتراضي (الاتصال المرئي)، فقد غزا فيروس كورونا البشرية وحصد أرواح الملايين من سكان الأرض في وقتٍ قصير.

مشاعر الخوف أصابت البشرية من فقد الحياة وبلوغ الفناء، فهذا القاتل ظهر في الصين وسرعان ما توجَّه مخترقًا الحدود والمسافات وانتشر بين الدول.

في ذلك اليوم استيقظت ختام من نومها فزعة، فقد رأت نفسها تقف أمام شجرة كبيرة جدًّا مليئة بثمار الخروب، اقتطفت منها أربع ثمرات وأمسكتهم بيدها وأطالت النظر إليهم، وقد تحدثت عن رؤياها لبناتها عبر الاتصال المرئي، وأحسَّت إحداهن بأن شيئًا ما سوف يحدث، فرؤيا شجرة الخروب ما هي إلا إيذان بخراب البيت، وكونها قابعة في ساحة بيتهم، فبيت أهلها ينتظره أمر ما، فما قصة ثمرات الخروب الأربع؟

كانت هي والملاك في تلك الفترة في عزلة في منزلهما، وكان تواصلهما بشكلٍ يومي مع أبنائهما عن طريق الاتصال المرئي، تطمئن على أبنائها وأحفادها كل يوم، بل تنتظر اتصالهم بفارغ الصبر، تتأكد من أن ابنتها مستمرة بخطة علاجها، تردد على مسامعهم رضاها عليهم ودعاءها لهم بالسعادة وراحة البال، مرت الأيام وكورونا في انتشار، إغلاق وعزلة لم يتمكن زوجها حتى من الذهاب إلى المسجد، بل كان يؤدي صلاته في المنزل، كانت شقيقتها نجوى هي النجوى لروحها تؤنسها في عزلتها، تأتي إليها في وقت الظهيرة يحتسيان القهوة ويتسامران لتنسى بها ما بداخلها من حزنٍ وألمٍ وقهر، حزنٍ على ابنتها وما هو مصيرها، وألمٍ ممَّا تسببه الكتلة في جسدها، وقهر على ما يحل بالعالم من مرضٍ وعزلة، ولا تتردد لحظة بقبول دعوة نجوى لها لزيارتها في منزلها.

لتأتيها الضربة الأولى، أو لتتكشف أولى ثمرات الخروب، فقد اتصلت شقيقتها أم محمد من الأردن وأخبرتها بأن شقيقها حسين قد فارق الحياة، لطالما ساندته ووقفت بجانبه، ومضت الحياة وحزنها على رحيله يقل شيئًا فشيئًا، إلا أن الحزن بإصرار تابع بناء طوابقه بداخلها إلى أن وصل إلى الطابق الأخير.

كانت تجلس على سطح منزل نجوى في ليالي آذار الباردة، وكان العالم ما زال في عزلته، والمرض ينتشر أكثر فأكثر، احتست قهوتها مع نجوى وغادرت منزلها، وكانت الأمور على ما يرام، أخبرتها نجوى في تلك الليلة برغبتها في قطف ثمار ليمون من الشجرة القابعة أمام منزلها، فرحبت ختام بذلك وطلبت منها أن ترسل لشقيقها خليل بعضًا منها.

في اليوم التالي جاءت نجوى إلى منزلها، كانت ختام لا تزال نائمة، جمعت نجوى ثمار الليمون لها ولشقيقها، وطلبت من الملاك أن يأخذها بسيارته إلى بيت خليل لتعطيه الليمون، ثم تنطلق إلى إحدى القرى المجاورة حيث أرادت أن تقوم بإجراء بعض الفحوصات السريعة لمعرفة سبب الصداع القاتل الذي تشعر به.

ركبت السيارة وانطلقا.

مر بادئ الأمر على ابنتها التي جلست بجانب عمها ونجوى في المقعد الخلفي والصداع يزداد حدة، ولعل أبرز ما رددته على مسامع الملاك في هذا اليوم هو: «أظن أنني سأموت قبل أن أفرح بزواج أي واحدٍ من أبنائي». تلك الجملة كانت كثيرًا ما ترددها دون أن يلتفت لكلامها أحد، فهي بطبعها كانت كثيرة الشكوى.

توجَّه الملاك نحو بيت خليل، ووضع له كيس الليمون وصعد مجددًا منطلقًا بهم نحو المركز الطبي في قرية مجاورة، نزلت نجوى وابنتها ودخلتا إلى المركز، أما الملاك فظل في الخارج ينتظرهما، مرت نصف ساعة أجرى لها الطبيب الفحوصات اللازمة، وقد طمأنها بأن كل شيءٍ على ما يرام موضحًا لها أن سبب الصداع قد يكون ضغط دمها المرتفع، وطلب منها الالتزام بالراحة التامة، وكتب لها العلاج بوصفة طبية.

خرجت نجوى وابنتها من المركز، فوجدت الملاك ما زال ينتظرها، قالت له: «أما زلت تنتظر؟ لماذا لم تذهب؟»

قال لها: «لا عليكِ. بماذا أخبركِ الدكتور؟ أريد أن أطمئن وأُطمئن ختام، فهي تنتظر اتصالي».

لقد بدا لملاك أن وضع نجوى ليس وضعًا طبيعيًّا، فزرقة وجهها والإرهاق كان واضحًا عليها.

قالت له: «ضغطي مرتفع»، وسكتت عن الكلام، وصعدت إلى السيارة وأعطته الوصفة الطبية إشارة له برغبتها في الذهاب إلى الصيدلية التي تصادفهم في طريق العودة لصرفها وإحضار الدواء، وما كان من الملاك إلا أن توقف وأحضر لها الدواء وأوصلها إلى منزلها هي وابنتها وقال لها: «أم محمد، إذا أردتِ أي شيءٍ ما عليكِ سوى الاتصال بي أو بختام».

عاد الملاك إلى بيته وطمأن ختام على صحة نجوى، والتي بدورها توجهت نحو المطبخ لإعداد الغداء ظنًّا منها أن الأمور تسير على ما يرام.

إلا أن حالة نجوى الصحية ازدادت سوءًا، ولم تعُد تقوى على تحمُّل الصداع، فطلبت من ابنتها الاتصال فورًا بسيارة أجرة تنقلها إلى المستشفى المركزي في المدينة، وما إن وصلت السيارة حتى صعدت نجوى وابنتها متوجهتين إلى المدينة، والألم يشتد والصداع لا يحتمل، وما إن وصلت السيارة أمام بوابة المستشفى حتى نزلت ابنتها من السيارة وأمسكت بيد أمها التي سقطت على الأرض ودخلت في غيبوبة، أخذت ابنتها تصرخ وتصرخ حتى جاء اثنان من الممرضين ليسعفاها، حملاها ووضعاها على سرير الإسعاف، ووضعا لها جهاز تنفس وأسرعا بها إلى الداخل.

ظلت ابنتها تقف في الخارج تنتظر أن يطمئنها أحد على حال والدتها، حتى خرج لها أحد الممرضين وأخبرها بضرورة عودتها إلى البيت، حيث إن وضع فيروس كورونا وانتشاره لا يسمح لأحد بمرافقة مريض.

أخذت ابنتها تبكي ولا تعلم ماذا عساها أن تفعل، اتصلت بشقيقيها اللذين كانا في ذلك الوقت خارج القرية، ولم يجبها أحد منهما، فاتصلت بخالتها ختام وأخبرتها بما حدث، ما جعل ختام

تصرخ وتبكي وتخبر الملاك بما جرى، وتطلب منه أن يطمئنها على شقيقتها، وعلى الفور ركب الملاك سيارته وتوجَّه نحو بيت شقيقه عامر، وأخذ ابنة نجوى وتوجها نحو المستشفى.

في تلك الأثناء كانت نجوى قد تدهورت حالتها، وأُدخلت فورًا لإجراء عملية لوقف نزيف حاد في المخ، ومضى وقت طويل وهي في غرفة العمليات، والجميع ينتظر أي خبر عنها، والملاك وابنتها يجلسان في السيارة بالقرب من مدخل المستشفى.

وما هي إلا ساعات حتى جاء اتصال لابنتها من المستشفى، أخبروها بأن نجوى فارقت الحياة، وما عادت منذ تلك اللحظة النجوى لروح ختام، كل تلك الأحداث حصلت في يومٍ واحدٍ فقط لتغادر نجوى الدنيا، ولتكون ثاني ثمرات الخروب.

من هنا خط القدر تفاصيل الختام، ولم تعُد روح ختام الجميلة الهينة اللينة كما كانت في السابق من تلك اللحظة، ومنذ أن فارقت نجوى حياتها فارقت روحها الحياة وبقيت جسدًا بلا روح؛ لتكبر في عيد ميلادها الذي حلَّ دون نجوى عشرين عامًا وليس عامًا واحدًا. وصل الحزن بداخلها إلى أعلى مستوياته، وبدأ ينهي التفاصيل الأخيرة، أصبحت عاجزة تائهة لا تستطيع تحمُّل كل هذا الكم من الألم، كيف للموت أن يغيب نجوى على حين غرة؟! أحاطت نفسها بقوقعة وراكمت داخلها الألم، وبدأ الورم الخبيث ينتشر في جسدها ويخترق كبدها وعظامها، وهي لا تعلم، وبدأت تشعر بآلام شديدة وضيق نفس، تراجعت نفسيتها إلى الوراء، وضعت نفسها في ضغط شديد الوطأة وقهر عميق أسقط جدار مناعتها، فسهل اختراق الخبيث جسدها فانتشر. في تلك الأثناء كانت ابنتها قد أجرت فحوصات جديدة في ذات الوقت مع والدتها، كل في بلده، ليؤكد الأطباء لكلا الطرفين وجود الورم الخبيث، ختام في مراحل متقدمة وقد انتشر ليصل إلى الكبد والعظام، أما ابنتها ففي مراحلها الأولى، وجبت السيطرة عليه بالكيماوي، فلم يزدها العلاج الطبيعي إلا تقوية لمناعتها وحَدًّا من انتشاره، إلا أنه ما زال في جسدها، أي قهر أحسَّت به في داخلها! العالم في عزلة، لا يستطيع أحد من أبنائها أن يكون معها في علاجها وألمها، ابنتها الكبرى ستخوض تجربة العلاج الكيماوي، تجلس دون نجوى ودون ونيس، لم تستطع تحمُّل كل ما يدور حولها، وأكثر ما ترفضه هو العلاج الكيماوي لها ولابنتها. لقد قررت أن رسالتها في هذه الحياة قد انتهت، أو أن رب العباد قرر حتمًا أن ترتاح من ألمها وعذابها؛ لأنها نفس طيبة وقلب أبيض، لم تؤذِ أحدًا أبدًا لتكون هي ثالث ثمرات الخروب.

منذ وفاة نجوى حتى شهر تموز، أي ما يقارب ثلاثة أشهر، كان الملاك خلالها يستيقظ في الصباح يُعد وجبة الإفطار، يُنظف البيت، يقوم بكافة الأعمال المنزلية ويطلب منها فقط أن ترتاح

وألَّا تجهد نفسها، يرافقها في زياراتها إلى الأطباء للاطمئنان على حالها، ولإجراء الفحوصات المطلوبة منها دون أن يشتكي من ذلك، بل هي مَن كانت بشكل مستمر وبكل خجل تقول له: «لقد تعبت معي كثيرًا». فيصرخ بها قائلًا: «لا تقولي هذا، هذا الكلام ليس صحيحًا، فأنتِ حبيبتي»، ما يجعلها تذرف الدموع، لطالما كرهت ختام زيارة الأطباء؛ لأن كل زيارة كانت تذكرها بما مرت به من أيام مع الخبيث المميت، إلا أن موت نجوى أمات شيئًا بداخلها، فكانت تستجيب لطلب أبنائها زيارة الطبيب والاطمئنان على وضعها الصحي دون أن تعترض، فقد استسلمت ورفعت الراية البيضاء، وكانت في أيامها الأخيرة تردد بكثرة رضاها عن أبنائها ودعائها لهم بالسعادة وراحة البال.

قبل يومٍ من دخولها إلى المستشفى، استيقظت صباحًا ولم تكن على ما يرام، اختناق شديد تشعر به كشيءٍ سقط على صدرها فحجب عنها النفس لتتنفس بصعوبة بالغة، شعرت بأنها تودع الدنيا، لكنها لم تخبر أحدًا بالأمر، ولعل لسانها عجز عن نطق ما أحسَّت به، لم تبدل ملابس النوم، بل ظلت بها لا تقوى على فعل شيء، اتجهت نحو غرفة الضيوف وكان الجو حارًّا جدًّا، أدارت مكيف الهواء، وأمسكت بهاتفها الخلوي، فتحت الصور في هاتفها، وظلت تقلبها وتقف عند كل صورة تتأملها وتبتسم، صور أبنائها ولمتهم واجتماعهم حولها، صورة لهم وهم جميعًا جالسون حولها مع أحفادها في نفس الغرفة التي تجلس فيها حين جاءوا لزيارتها قبل عامين، راحت تنظر حولها وتتفحص الصورة وتتأمل المكان في الواقع، علهم يرجعون إليها، تتنهد بصعوبة، وترسل لهم الصور عبر الهاتف حيث أنشأت ابنتها الكبرى شيرين مجموعة للدردشة تضم أبناءها وبناتها الثمانية، وأخذت ترسل عبارات تلو العبارات مفادها الذكريات الجميلة علَّها تعود يومًا، ليقطع حبل ذكرياتها صوت الملاك وهو ينادي عليها: «ختام، أتحضرين إلى المطبخ أم أُحضر الطعام عندك؟» صمتت لبرهة قبل أن تجيبه بتثاقلٍ وبصوتٍ لا يكاد يُسمع: «تعالَ هنا». ثم سكتت، فقد أحسَّت باختناق طوق صدرها ورغبة في استنشاق الهواء، وكأن شيئًا ما قيد حركتها وحجب عنها النفس، وما هي إلا لحظات ليأتي الملاك يحمل صينية مليئة بالأطباق، وقد أعد لها كأسًا باردًا من الليمون والنعناع لتحتسيه، فقد قطعت عهدًا على نفسها أن تغير أسلوب طعامها منذ أن علمت بأن الورم عاد إلى جسدها من جديد، وضع الملاك صينية الفطور أمامها، وقال لها ممازحًا: «أأُطعمكِ بيدي؟»

إلا أنها أجهشت بالبكاء، وكأنها تنتظر حديثه ورؤيته لتبكي، بكت وانتحبت وهو يجلس أمامها ينظر إلى وجهها الذي تبدلت ملامحه، يبحث في ملامحها عن ملامحها فلا يجدها، أعطاها كأس

العصير راجيًا منها أن تشربه دون أن يسألها عمَّا بها، فما بها ظاهر على وجهها وجسدها، أخذت تبتلع دموعها وتحاول مجددًا أن تلتقط نفسًا عميقًا لكن دون جدوى، نظرت إليه ووضعت يدها على جيدها ممسكة بالعقد الذي يزينه وقالت له: «هذا العقد أريد أن أعطيه لابنة شيرين»، فتح عينيه في ذهول وأمعن النظر في عينيها، ووضع كفه على يدها قائلًا بمرارة: «لا تقلقي، ستكون الأمور على ما يرام»، وما هي إلا لحظات حتى رن جرس هاتفها وأرسل أحد أبنائها طلبًا لها للانضمام إلى اتصال مرئي لرؤيتها والحديث معها، بدت على غير عادتها ما أثار مخاوف بناتها، فهي لم تسرح شعرها كعادتها، فقد أنهكها التعب وبدت شاحبة الوجه، أخذت تسأل عن هذا وتبحث عن تلك، تستعيد ذكرياتها معهم وتسترجع ضجيج أحفادها من حولها، وتذكرهم بجلساتهم واجتماعاتهم، «سقا الله تلك الأيام»، تبتسم لهم رغم شحوب وجهها، بدت عجوزًا جدًّا على غير عادتها، وكأنها كبرت أعوامًا وأعوامًا، كل أبنائها مجتمعون أمامها صورًا وأصواتًا، غاب الإحساس بهم وغابت رائحتهم، كانت وحدها تصارع الأيام الأخيرة في حياتها، والتي تتكرر مرتدية ذات الزي الممل، كانت في داخلها تتمنى أن تموت بالقرب منهم، أما هم فكان ما يحدث لها غصة في حناجرهم، فالوقت لا يسمح لهم بتوديعها الوداع الأخير، صمتت الجدران وعمَّ السواد المكان، وانتهت المكالمة وراح كل واحد إلى حياته وانشغالاته، أما هي فظلت تفكر بهم، فهم كل حياتها وانشغالاتها، ودَّعتهم في آخر المكالمة قائلة: «الله يرضى عليكم ويسعدكم يا أولادي وبناتي».

(19)

لنعود إلى مشهد صوَّرته كاميرا منزلها في آخر أيامها، وقد بدت عروسًا في العقد الثالث من العمر، بفستان أبيض تزفها الملائكة إلى الجنان، ممسكة بيدها اليمنى ملكًا، وآخر باليد اليسرى، متجهين بها إلى خارج المنزل، حيث لم تعُد إليه مجددًا.

بدا جسدها نحيلًا جدًّا على غير العادة، فقد أنهكها الحزن، خرجت ليلًا بسيارة إسعاف إلى أحد المستشفيات خارج بلدتها، إذ نصحها الأطباء بإجراء جراحة عاجلة مرتبطة بضيق النفس، أي لا علاقة لها بالخبيث، بل أرجع الأطباء الأسباب إلى انسداد في شرايين قلبها وجب فتحها وإجراء قسطرة عاجلة لها، كان هذا اليوم غريبًا جدًّا بالنسبة للملاك وأبنائها الذين كانوا على تواصل معهما عبر الاتصال المرئي، الملاك تائه حائر لا يدري ماذا يفعل لختام؟ وكيف يخفف عنها؟ أبناؤها يحاولون إقناع والدهم بأخذها فورًا إلى المستشفى ليطمئنوا عليها، يسألها الملاك إن كانت ترغب بالذهاب إلى الطوارئ كما يطلب أبناؤها فتجيبه قائلة: «كما تريد»، ولكنه لا يعرف ما يريد، وسرعان ما اتصل أحد أبنائها من الإمارات بأحد المستشفيات في مدينة طولكرم لإرسال طاقم لإسعاف والدته، وقد حضرت سيارة الإسعاف بعد نصف ساعة والجميع يترقب، وسرعان ما اصطحبها إلى سيارة الإسعاف اثنان من طاقم التمريض والملاك يسير خلفهم لا يستطيع اللحاق بهم بسبب وضع الفيروس، والحظر المفروض على جميع القرى والمدن. دخلت ختام إلى المستشفى ليلًا وقاموا بإجراء الفحوصات اللازمة لها، وفي صباح اليوم التالي قدم الملاك إلى المستشفى حائرًا تائهًا، وقد شحب وجهه وتغيرت ملامحه، توجَّه نحو الطبيب المعالج لها، وسأله عن حالها وسبب ما تشعر به، فأخبره بضرورة تحويلها إلى أحد المستشفيات التخصصية في مدينة نابلس ليجري لها الاختصاصيون هناك عملية قسطرة لشرايين القلب، وبالفعل ما هي إلا ساعات كان خلالها قد وضع إمضاءه على عدد من الأوراق في المستشفى لنقلها إلى المستشفى الآخر، وأثناء توجهها إلى المستشفى في نابلس بسيارة الإسعاف، كانت مستلقية على ظهرها ووضعوا لها كمامة لتزويد رئتيها بالأكسجين، كان يجلس بجانبها، مد يده يتحسس خديها ويحدثها حديثًا صامتًا قطعه الممرض المرافق لها حيث قال: «لقد وصلنا، ستكونين بخير».

كان الملاك يقف في ممر المستشفى حيث مُنع من مرافقتها إلى الداخل، في تلك الأثناء عرض الممرض المرافق لها من مستشفى طولكرم الأشعة والتحاليل التي أُجريت لها على الأطباء المختصين بجراحة القلب، ما دفعهم إلى أن يقرروا إجراء جراحة عاجلة لها، دون أن تقوم بإجراء

أي تحاليل إضافية، أعدَّ الطاقم الطبي غرفة العمليات وقد جاء الملاك إلى غرفتها ليودعها، كانت مشاعر الخوف قد تمكنت منها، دنا منها وقال لها متصنعًا ابتسامة: «لا عليكِ، ستكونين على ما يرام»، وظلت هي ممسكة بيده فترة طويلة قبل أن تأتي إحدى الممرضات وتطلب منه المغادرة. دخلت غرفة العمليات، مضى من الوقت أكثر من أربع ساعات، أبناؤها على اتصال مع الملاك للاطمئنان عليها، فأي عملية قسطرة تأخذ كل هذا الوقت، بدا الأمر مريبًا بالنسبة للجميع، وخاصة أن والدهم قد أجرى عملية مشابهة سابقًا، لم يتطلب إجراؤها أكثر من ساعة، بعد مضي وقت طويل خرجت من غرفة العمليات إلى غرفة العناية المشددة، طلب أبناؤها من والدهم التحدث معها إلا أنه رفض معللًا أنها مرهقة من آثار العملية، ووجب بقاؤها تحت المراقبة مدة ثمانٍ وأربعين ساعة، حسب ما أخبروه به في المستشفى، مرت الساعات ببطءٍ شديدٍ إلا أن حالتها تدهورت، فلم يكن صوتها بخير، ولم تكن هي بخير، قلق وخوف ومشاعر محبطة، لم يقطع أبناؤها تواصلهم معها لدرجة أن طاقم التمريض في غرفة العناية المشددة انزعجوا منهم وقرروا عدم الرد عليهم، أما الملاك الذي منعته ظروف الجائحة من المبيت معها، فكان متماسكًا يذهب كل صباح للاطمئنان على حالها ويعود من جديد إلى البيت على أمل أن يعود في اليوم التالي وتكون هي قد أُخرجت من قسم العناية المركزة.

ازدادت مشاعر الخوف لدى أبنائها، حاولوا جاهدين السفر لرؤيتها إلا أن العزلة والإجراءات التي فرضها فيروس كورونا أعاقت محاولاتهم، وما زاد قلقهم هو ما أخبرهم به والدهم حول احتياج والدتهم لعملية ثانية بعد مرور ثمانٍ وأربعين ساعة على العملية الأولى، فما حدث أن الشبكية التي أراد الطبيب وضعها كدعامة في الشريان لإبقائه مفتوحًا ضاعت في جسدها مسببة لها تسممًا في الدم، ولسوء حظها فقد وقعت بيد مجرمين لا أطباء، قرروا محاولة إزالة الدعامة فأدى ذلك إلى تفاقم وضعها سوءًا، فأُدخلت مرة أخرى إلى غرفة العمليات، ما تسبب في انتكاس حالتها بشكل مفاجئ، نُقلت على أثره إلى غرفة العناية المشددة، بعد انتهاء العملية الثانية سمح الأطباء للملاك برؤيتها، وقد بدا متوجسًا وخوفه يزداد من الحالة التي كانت عليها، فقد كان وجهها أزرق اللون ولم تنطق بكلمة واحدة، كانت تنظر إليه فقط، دسَّ يده في جيبه وأخرج حبة تين التقطها لها، وهو خارج من البيت في الصباح، اقتسمها نصفين ممسكًا بالنصف الأول والأكبر واقترب من شفتيها ليُطعمها إيَّاه فارتسمت عليهما ابتسامتها التي يعشقها، والتي ما إن رآها حتى أخذ لسانه يردد آيات قرآنية واستبشر خيرًا. لم يكن الملاك على دراية بأنه يودعها وأن هذه الابتسامة الأخيرة ابتسامة الختام، فبعد أن غادر المستشفى أخذت حالتها الصحية تتدهور أكثر فأكثر حتى دخلت في

غيبوبة.

في مساء يوم الأربعاء 22/ 07/ 2020 كان أبناؤها مستمرين في محاولة الاطمئنان على وضع والدتهم الصحي، مرَّ على الجميع هذا اليوم ببطءٍ شديدٍ وقلقٍ قاتل، كان الملاك في صباح هذا اليوم قد دخل لزيارتها ولم تكن تبدو على ما يرام، حاول كثيرًا ممازحتها ولكنها بدت غير طبيعية، ما دفعه لسؤال أحد الأطباء عن حالها، فما كان من أحدهم إلا أن طلب منه الدعاء لها بأن يختار الله لها الأفضل، وأن نزول ضغطها المستمر بسبب تلف الكبد والكلى، وتعليلات غريبة دفعتهم إلى وضع التنفس الصناعي لها، كل ذلك لم يخبر به الملاك أبناءها الذين رفعوا أكفَّ الضراعة راجين فرجًا قريبًا أو معجزة تبدل الحال، وتعيد والدتهم إلى بيتها بصحة وعافية، فقد استمرت أسبوعًا كاملًا بعد العملية التي أجرتها كان خلالها الملاك يأتي لزيارتها صباحًا ويطمئن عليها ليعود في المساء يقضي الوقت في الصلاة والدعاء لها، فلم يكن بمقدوره أن يبقى إلى جانبها، أما أبناؤها في غربتهم فكانوا مقيدين يعتصرون قهرًا وحزنًا يمنعهم الفيروس المنتشر من السفر والوقوف إلى جانبها ورؤيتها، فلا يملكون إلا الدعاء لها لعل تلك الأزمة تمر على خير.

كان الملاك، ورغم علمه بحالتها وأنها ليست على ما يرام، لا يملك القدرة على تغيير مصير يراه محتومًا، لقد احتفظ بروحه وابتسامته وتشجيعه لها حتى آخر لحظات حياتها وهي تواجه الموت.

يوم الأربعاء في تمام الساعة العاشرة والنصف ليلًا غادرت ختام دنيانا لتلقى ربًّا كريمًا، تلك الليلة نام الجميع على أمل الاستيقاظ على خبر مفرح، أما الملاك، ومع علمه بوضعها الصحي، فكان ينتظر أن تصعد روحها إلى خالقها لكي ترتاح من العذاب والألم، ليودع في تلك الليلة وجه حبيبته ولا يودع حبها الذي سكن قلبه وسيظل يسكنه للأبد.

في تلك الليلة، وبعد أن عاد من مدينة نابلس إلى بيته، كان يجلس وحيدًا في غرفة المعيشة، حين رنَّ هاتف المنزل ليخبره الأطباء بأنها فارقت الحياة، توقف لبرهة كأنه غاب معها للحظات تائهًا لا يعرف ماذا يفعل، خرج من البيت ووقف في ساحته فترة من الزمن، ثم دخل إلى البيت، حمل كرسيًّا خشبيًّا، وخرج به مرة أخرى إلى الساحة، وضع الكرسي أمامه ولم يجلس عليه، بل ظل واقفًا متسمرًا قرابة خمس ساعات لا يحرك ساكنًا، ينظر إلى وجهها وقد ارتسم أمام عينيه لا يفكر بشيء، وكأن الله أرسل موجة من السكينة احتلت قلبه وعقله، لحظات وجاء صوت المؤذن ينادي لصلاة الفجر، هنا أجهش الملاك بالبكاء، وقد ثقلت قدماه وجلس على الكرسي، لقد رحلت ختام وكان وقع لحظة الختام قاسية على قلبه ليرمي حموله على الرحمن القادر على كل شيء، ويتقبل

المكتوب، فلا فكاك منه، لقد كانت لحظات قاسية بالنسبة له، فكيف سيخبر أبناءه وبناته بالأمر، بعد أن سيطر الحزن على قلبه وتمكن منه، صلى الفجر في ساحة البيت وتوجَّه نحو بيت شقيقه عامر، حيث أخبر ابنة أخيه بأن خالتها قد فارقت الحياة، وبأنه سيتوجَّه للمسجد لإعلامهم بذلك لينادوا عبر مكبرات الصوت بوفاتها وإعلان الدفن، أما ابنة أخيه فقد ارتكبت خطأً فادحًا حين قامت بكل ما يحمله المشهد من قساوةٍ بإرسال رسالة نصية عبر الهاتف لإحدى بنات ختام تخبرها بأن والدتها قد فارقت الحياة.

كانت في ذلك الوقت ابنتها تجلس وشقيقتها تقرآن القرآن بعد أن أشرقت الشمس، وتتضرعان بالدعاء إلى الله بأن يطمئنهما على والدتهما، وما هي إلا دقائق حتى صرخت إحداهما: «لقد توفيت ماما، لقد رحلت ماما، لم تنتظر قدومنا، لم نودعها»، وخيَّم الحزن على المكان وعمَّ السواد الدنيا.

لتعود كلماتها إلى الذاكرة: «استمتع بحياتك بما يرضي الله، فاللحظة التي تمر لا تتكرر، وقيمتها لا ندركها إلا متأخرًا بعد فوات الأوان».

لقد تركت ختام لنا في كل مكان مرَّت منه عبقًا من فيضها، وذكرى تزهر كلما صدح صوت فيروز:

يا جبل اللي بعيد قول لحبايبنا

بعدوا الحبايب بيعدوا بعدوا الحبايب

عجبل عالي بيعدوا والقلب دايب

بعدوا الحبايب بيعدوا بيعدوا بيعدوا

دبلوا الزهور وبين هالشجرات في طيرين

عم يسألوا لوين هالأصحاب راحوا لوين

(20)

اليوم قلبها سيُشرق مجددًا، وتهطل عليه الخيرات من حيث لا تحتسب، ستجد الطمأنينة وتعانق أحلامها وتتجاوز أحزانها، ستبدأ حياتها الجديدة، عروسًا يكسو الفرح محياها، تُزف إلى دار الحق، نحتسبها شهيدة عند الله، أقبل عليها الملائكة يحملون كفنًا من أكفان الجنة، ويرددون «يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربِّكِ راضية مرضيـة»، وضعوا روحهـا في ذلك الكفن الذي تفوح منه رائحة المسك، مروا بجانب سور البيت، حيث تطل منه غصون خضراء لأشجار الزيتون، نشرت السلام على روحها الصاعدة إلى السماء الدنيا، ومنها إلى السماء السابعة، إلى رحلة السعادة الأبدية الخالية من الشقاء، أما جسدها المفعم بالحب فقد كان في النعش الذي حمله الملاك يرافقه حشود من البشر، أقبلوا من أعلى الطريق المؤدي إلى القبور من كل حدبٍ وصوبٍ مسرعين غير مبالين بأي شيء، فُتحت أبواب البيوت وشرعت النوافذ، لا خوف لا هلع، نور يسطع في أرجاء المكان، مشهد يروي لنا تكاتف هذا الشعب، هذا الشعب المحتلة أرضه، لا يأبه لشيءٍ ولا يردعه شيءٌ عن المشاركة في مواكب الأعراس المحفوفة بالمشاعر، أو تشييع جثامين الشهداء. مشاركون دائمًا بالأفراح والأتراح، وها هو جسدها يحتضن الأرض المباركة، وبيده وسَّدها التراب، تاركة هويتها على جذوع التين والزيتون، وأزهار النرجس والتوليب، لينتقل حبها من فضاء الواقع إلى فضاء ذاكرته وذاكرة أبنائها وذاكرة الوطن، ختام البداية لأمل جديد، لأرضها وشعبها، وتينها وزيتونها، مهما اغتربت عنهم واغتربوا عنها تبقى آمالها كآمالهم، وأحلامها كأحلامهم، وصوتها كصوتهم، صوت الأرض والتاريخ والحقيقة.

... على الرغم من الأزمة العالمية التي فرضت إجراءات احترازية خاصة بالتعامل مع فيروس كورونا، والتي كان أبرزها منع إقامة خيم عزاء أو بيوت أجر، لم يمنع ذلك محبيها من تقديم واجب العزاء فيها، فقد أصرَّ الملاك على تلقي العزاء في بيته، رغم هول فاجعته، علهم يواسونه في مصابه، منهم مَن اكتفى بتقديم واجب العزاء عند المقبرة وقت الدفن، ومنهم من حادثه عبر الهاتف، فقد تلقى الكثير من المكالمات الهاتفية من الخارج يعزونه في وفاتها.

في اليوم الأول من العزاء، وبعد الانتهاء من الدفن، عاد إلى بيته، وبصحبته ابن أخيه عامر الذي آثر البقاء بجانبه خوفًا عليه، فلقد كانت نظرات عينيه الذابلتين والتائهتين تخفي وراءها العديد من الاحتمالات المسببة لموتها، ظل محافظًا على اتزانه وتوازنه، واستقبل عددًا قليلًا من المعزين فيها من أقاربها، كان يستقبلهم في ساحة المنزل الخارجية، وقد غادر للتو ابن خالته، وقبل أن يدخل

المنزل، داهمه صوت خفيف قائلًا له: «عظَّم الله أجركم»، فالتفت للخلف ليُفاجأ بما رأى ويهتز جسده، إنه الشيخ حامد، اقترب منه، أخذ يتأكد من صحة ما رأى قبل أن يعرف هو نفسه قائلًا: «أنا الشيخ حامد جئت لتقديم العزاء في أم شادي».

اقترب منه الملاك أكثر وبدت له الفرصة مواتية للقضاء عليه والانتقام لها.

فهو يرى أنه هو مَن تسبب بموتها، فقد بحثوا عنه ولم يعثروا له على أثر، وكأنه ذاب في الفراغ أو ابتلعته الأرض، صرخ في وجهه قائلًا: «أنت السبب، أنت مَن أوصلنا إلى هنا»، أومأ الشيخ برأسه واقترب منه ممسكًا يده وقال له: «إن كل ما يجري في هذا الكون هو بقضاء الله وقدره، لا أحد يملك الخروج عن القدر المقدور، ولا أن يتجاوز ما خُطَّ له في اللوح المحفوظ».

ظل الملاك واقفًا متسمرًا ينظر إلى وجهه محدقًا بعينيه مصغيًا بكل حواسه وقال له: «لقد شفيت في المرة الأولى من الخبيث، ثم عاد إليها من جديد، ولولا غيابك لما لجأنا إلى المستشفيات، هم مَن قتلوها»، وقبل أن يُكمل كلامه قاطعه قائلًا: «إن المقدور الذي كتبه الله لختام في حياتها ومماتها رحمة، وفيه الكثير من العِبَر، فحتى لو أن الإنس هم مَن تسببوا بأذيتها بالسحر والشعوذة، فأرهق جسدها وتسبب لها بالمرض، ذلك كله بعلم الله وبأمره، وقد أنجاها الله من السحر بأعوانه وجنوده، وشفيت بإذنه تعالى، وحين عاد إلى جسدها كان كله بأمر الله».

كان الملاك يقف أمامه وضربات قلبه تبلغ المسامع من شدَّة التأثُّر لا يدري ما الذي عليه أن يفعل أو يقول، وأتبع الشيخ حامد قوله: «أراد الله أن يخفف عنها العذاب والألم، فسخر لها بأمره مَن يرشدها لطريقة موتها التي تسبب بها البشر، باختيار رب العالمين وبأمر منه، والحكمة في كل ما جرى ستجدها حين تستشعر كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: ولو اجتمعوا على أن يضرُّوك بشيءٍ لم يضرُّوك إلَّا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفَّت الصُّحف».

طأطأ الملاك رأسه وراح يبكي ويبكي، وهو يستحضر وجهها والذكريات، ثم رفع رأسه ليجد أمامه ابن أخيه، يقترب منه، أخذ يلتفت هنا وهناك يبحث عن الشيخ حامد ولم يجد له أثرًا، أخذ يردد: «أستغفر الله العظيم وأتوب إليه، أستغفر الله العظيم وأتوب إليه، رحمكِ الله يا قطعة من قلبي وألهمني وألهم أبناءكِ الصبر على فراقك».

طمست الأيام ألم رحيلها، لتلحق بها بعد أقل من ثلاثة أشهر شقيقتها الكبرى فريدة، التي كانت ختام حريصة دائمًا على السؤال عنها والاطمئنان على صحتها، فكانت دائمًا تردد خوفها من وفاة فريدة، إلا أنها سبقتها إلى دار الخلود، لتكون فريدة رابع ثمرات الخروب، وتكتمل رؤيا ختام.

وإلى يومنا هذا كلما راح مشيًا إلى الجامع فجرًا يمر بجانب قبرها حيث ترقد بسلام، يُلقي عليها التحية ويظل طوال الطريق يدعو لها بالرحمة والمغفرة، وما إن يذكرها أحد أمامه حتى يجهش بالبكاء.

لقد أصبحت ختام ذكرى تركت أثرًا جميلًا في نفس كل مَن عرفها، فوداعًا لنفس طيبة وروح هينة لينة غادرت دنيانا لتنتظرنا في جنات النعيم حيث اللقاء.

على هذه الأرضِ ما يستحقُّ الحياة. على هذه الأرضِ سيدةُ الأرضِ، أُمُّ البداياتِ، أُمُّ النِّهاياتِ. كانت تُسمَّى فلسطين. صارتْ تُسمَّى فلسطين. سيِّدتي: أستحقُّ؛ لأنَّكِ سيِّدتي، أستحقُّ الحياة.

محمود درويش

لُطفًا فلم ننتهِ بعد،

ولم نضع ختامًا، بل نقطة، وسطرًا جديدًا.

فختام استوطنت القلوب وبرحيلها البداية، بداية الأمل، بداية المستقبل، بداية الأمل في مستقبل مشرق بأبنائها، وبناتها وأحفادها، ففي داخل كلٍّ منهم امتداد لها، شيء منها، ابتسامتها، دلالها، جمالها، روحها الطيبة، فهي خريطة طريقهم في هذه الحياة، والمشهد الحقيقي لانتمائهم لها هو انتماء لأصل واحد، وشعب واحد، وأرض واحدة، وبوجود هذه الأرض الطيبة ستبقى روح الختام تتجدَّد فيها، فسلام عليكِ وعلى روحكِ الملائكية النقية ألف سلام.

لمحة عن الرواية

ولدت «ختام» وولدت معها أحلامها البسيطة في أن تعيش كإنسانة تقبل بها الحياة، وتجد فيها مَن تحب، وتحيا تجربتها مع الأيام بلا منغصات، ولا آلام، ولكن هيهات على البسطاء أن تدعم الدنيا أحلامهم الصغيرة، فلم تمهلها الأيام كثيرًا حتى بدأت صراعاتها المستمرة، هكذا تحاول الرواية أن تنطلق بالقارئ مع حكاية يمكن أن تكون (أنت أو هو أو هن أبطالها) بدلًا من «البطلة»، فختام ما هي إلا رمز للإنسان العربي بهمومه وأحلامه وإخفاقاته وانتصاراته الصغيرة، فهي التي واجهت ببساطتها تعقيدات الحياة في رحلة يغلب عليها الانكسارات فهجرت وطنها تحت ضربات المحتل ومضايقاته، وتركت مهجرها الأول بحثًا عن مصدر رزق وحياة كريمة برفقة شريكها، وهي التي عانت الألم في الوطن والجسد، وواجهت حمق البشر وجشعهم، كما تحملت مؤامرات الجن والإنس على أحلامها، وظلت طوال حياتها في حالة الهجرة المتواصلة تواجه منافسة حامية ومستمرة ممَّن حولها ومن قوى لا هي ولا نحن ندرك خباياها، وهي في كل صراعها مع الحياة تبحث دائمًا عن مكان وزمان لحلمها البسيط في أن تعيش الحياة بلا منغصات.

لم تكن ختام يومًا ضعيفة ولا مكسورة الجناح، ولم ترضَ يومًا بأنصاف الحلول، ولم تجِد عن هدفها في الحب والحياة وبين أمواج الصراعات، بل كانت قوية للغاية حتى في أشد لحظات انكسارها، يحدوها أمل في الخلاص، والنصر والنجاة، وهو أملنا مثلها، بل إنه أمل أوطان المهزومين في كل زمان ومكان.

وتتعدد الأزمنة والرؤى، كما تتعدى البيئات في الرواية، بداية من فلسطين المحتلة، مرورًا بلبنان والأردن وسوريا ودول الخليج، لتجد ختام فيها جميعًا وطنًا وملجأ، وبيتًا للآلام أيضًا، وتنطلق الرواية من مشهد الموت المهيب وما يكتنفه من أسرار ورهبة ورعب، ولكن الرواية تجعله يوم عرس، وكأن ختام فيه تتحرر من آلامها وآمالها معًا، وما هي فيه من صراعات، لتنطلق بعد ذلك إلى عالم «ختام» وما به من أسرار ومراحل، تتكامل مع الهم العربي حينًا ومع ما تواجهه المرأة في هذا العالم من تحديات وصعوبات، تجبرها عليها العادات تارة وذكورية المجتمع تارة أخرى، وإن كانت الرواية تحاول جهدها ألا تكون حالة صراع بين المرأة والرجل، إلا أن كل شخوصها الفاعلة هي العنصر النسائي، ولا يبدو الرجل إلا حين تحتاجه صراعات الرواية، المتعددة المستويات، في مختلف المراحل التي تأخذنا أحداث الرواية إليها، والتي تمثل في جوهرها حالة لجوء مستمر، فمنذ اللحظة الأولى للعمل نجد مشهد الخروج، لتعود بنا الرواية إلى نفس البيت

ونفس الحالة في لحظة النهاية لتكرس «الخروج والبحث عن ملجأ»، وهو ما يجعلنا على ثقة من أننا أمام عمل حقيقي من لحم ودم، وليس مجرد خيال كاتبة قررت الانطلاق إلى فضاء الرواية.

«رحلت ختام دون وداع تاركة بصمتها يتغنى بها الجميع حتى غدت رمزًا ونجمة للأمل في سماء اللاجئين والمحرومين، وأثرًا جميلًا في قلب كل مَن عرفها، لتصعد روحها إلى السماء عروسًا تبدأ حياة جديدة في دار الخلود».